sarkht damir inside.indd 1 24/04/2018 03:18:08

sarkht damir inside.indd 2 24/04/2018 03:18:08

ألحان فرحات

صَرْخة ضَمير

رواية

سائر المشرق

الطبعة الأولى
٢٠١٨

© دار سائر المشرق للنشر والتوزيع
جديدة المتن – نهر الموت
رقم الهاتف والفاكس ٩٠٠٦٢٤–٠١

info@entire-east.com
www.entire-east.com

ISBN: 978-614-451-128-2

هذه الرواية مهداة

إلى أصحاب الضمائر الحرّة حول العالم...

sarkht damir inside.indd 5 24/04/2018 03:18:10

قد يحتار البشر في أمر تفسير الضَمير وقد يُجاهر بعضهم بإمتلاكه، وقد يبالغ آخرون بأحكامه أو بالإحتكام إليه. فالضَمير قد يَقْتُلُ ولا يُقْتَل ويَرفَعُ ولا يُرفَع لأنّه المحرّك الرئيس لحياةٍ بشريّة أكثر إنسانيّة. إنّ الضَمير كلّيٌ وشامِل، لا يمكن تجزئته فإذا ما تاه عنه الإنسان فَقَدَ بوصلته نحو الصوابية. ذاكَ لأنّ الضَمير لا يُرهَن، لا يُباع، ولا يُعار. هو الحقّيقة في الخير لا الوهم في الخيار.

فعودوا إلى ضمائركم... ثوروا على أنفسكم قبل غَيْركم... آمنوا بالحقِّ وانطقوا به لتُبصروا بعدها فرحًا سرمديًّا عظيمًا قد يبقى ما بقيتم في هذه الدنيا الزائلة. حينها ستخلّدون بعد رحيلكم في سجلّ الإنسانيّة الذهبيّ.#ألحان_فرحات.

التوطئة

مع هذه الرواية تنتهي الرحلة الفكرية الأدبية لسلسلة روائية أُنْسِنَت فيها صفات الإنسان برسالةٍ إنسانيّة مجتمعيّة، تُحاكي هَواجِس الأحرار في العالم وطُموحَاتهم وأصحاب الضمائر الحرّة، بغضِّ النظرِ عن معتقداتهم وإيديولوجياتهم وثقافات حضاراتهم التي إليها ينتمون.

في الرواية الأولى "حكاية طَموح"، ناضل بَطلها في سبيل القيَم والأفكار المبدئية المثاليّة التي تُكرّس فكرة وجود الإنسان الحرّ، عملًا بفكرة الثورة على الذات أوّلًا، وتبديل الحال إلى أحسن الأحوال. ففيها ظهر أوّلًا الطفل الذكيّ الطَموح، الباحث عن الحقّائق، وقائل الحقّ بلسان البراءة. فشبّ على أفكار التحرّر وكان، اسمًا وفعلًا، مواطنًا طَموحًا.

ونقول مواطنًا، لأنّه أعلن وآمن بفكرة المواطنة الحقّة التي تُمنح للمرء جرّاء صوابيّة أفعاله تجاه وطنه، بعيدًا من الإكراه وقوّة قوانين النظام السياسيّ. أمّا طَموح الشاب، فقد دخل المعترك السياسي وما تلوّث بغبار الفساد ولا انحاز إلى

sarkht damir inside.indd 9 24/04/2018 03:18:10

الألاعيب والمساومات أو التسويات الخفيّة. غير أنّه كان صادقًا في نهجه وفكره وإلتزامه بالمبادئ والثوابت التي ربّته عليها بيئته. ورغم رحيله باكرًا شهيدًا، إلّا أنّه ما مات، بل عاش فكرة معنويّة خالدة في عقل كلّ مَن أراد أن يعي حقيقة وجوده، بعيدًا من المصالح الزمنيّة الفانية التي تُدمر الإنسان بحدّ سيف الجشع وحبّ الظهور وامتلاك المال. ورغم تمكُّن أيادي الغدر من قتل جسده إلّا أنها لم تتمكن من قتل فكرته. فحملها الكثيرون وناضلوا في سبيلها، وما كانت رحلة عمره الزمنية القصيرة إلّا جسر عبورٍ من الذلّ نحو التحرّر وتحقيق الذات.

وبعد "حكاية طَموح" كانت الثنائية وعنوانها "بَراثن وأقدار". وهي الرواية التي ناصرت قضايا المرأة بحبكة أحداثها، ورفعت من شأن دورها في المجتمع، وميزّت كلّ شابة صاحبة كفاءة، وكرّست فكرة تحرّر النساء كما الرجال. وأكثر من ذلك، قد تمكنت "حُريّة" وهي بطلة تلك الثنائية من مواجهة أسوأ النفوس الذكورية وقد كانت نفوسًا متسلّطة، طامعة، خائنة، وفاسدة متعالية... انتصرت فيها الفتاة الحرّة بقوّة إيمانها بمبادئها الإنسانيّة، وصونِها لثوابِت تربيتها، ووفائها لمسيرة شقيقها المشرّفة الوطنيّة.

حُريّة دافعت عن الحقّ في المحاكم، فما قبلت أن يشتريها أصحاب النفوذ والمال، وما هابت الرجال إنّما كانت مندفعة، قويّة وذكيّة. واجهت وكانت واثقة الخطى تسير كملكة موشّاةٍ

sarkht damir inside.indd 10 24/04/2018 03:18:11

بأنوثة وحياء، وقد أوصلت الأقدار إلى حدودها بكشف براثن الخيانة والغدر والإجرام. فصارت حُريّة نموذجًا أنثويًا راقيًا ناجحًا يُحتذى به. هي التي عالجت بفكرها الواعي قضايا المجتمعات البشريّة المصيرية، ومنها العنف الأسري، وآفة المخدرات، إلى جانب القضيّة الأهمّ ألا وهي كشف ملابسات قضيّة مقتل شقيقها طَموح. وما كان إنتصارها، في كشف المحرّض والمخطّط الذي غدر بشقيقها طَموح، إلا إنتصارًا على الذات وكشفًا للمجرم الحقّيقي في نهاية المطاف.

وممّا لا شك فيه أنّ هذه السلسلة الروائية ما كانت لتكتمل، لولا الثالثة بعنوانها "صَرخة ضَمير"، وفيها تؤدّي شخصيّة "ضَمير" دورًا بارزًا في إعادة إحياء الأمل ببقاء فكرة طَموح المواطن، المسؤول والناجح، الذي واجه مصيره شامخًا معتزًّا بثباته على مبادئ الحقّ وقيم الحقّيقة. فنجد "ضَمير"، كما اسمها، شخصية صادقة عصاميّة مثابرة تسعى إلى إنتاج الحقّيقة وإخراجها في مشروع فيلم قصير يحاكي تفاصيل نضال طموح الإنسانيّ والسياسيّ الشريف، والمتمثّل في حقيقة الإيمان والإلتزام بفكرة الوطن التي تتخطّى حدود الأشخاص.

طبعًا، ما كانت مهمّة "ضَمير" لتتحقّق لولا مساعدة "حُريّة"، و"شجاع" وبحضورٍ جليّ لقائد قوى الأمن العام "إلتزام"، مع دور بارز لصديقها المقرّب "موثوق" في وجه فساد "مُتحَكِّم". وهو حاكم البلاد الذي اتّهمها وسجنها في

sarkht damir inside.indd 11 24/04/2018 03:18:11

قضية ملفّقة، محاولًا إيقاف مشروعها الهادف إلى تحرّر الشعب من ثقافة التبعيّة والرجعيّة والإنكسار والسعيّ نحو نشر أفكار تقرير المسار والمصير بحُريّة تامة لتحقيق الطموحات والرغبات في المجالات كلّها مهما تباينت أشكالها بين الأفراد.

sarkht damir inside.indd 12 24/04/2018 03:18:11

الهُجرة

كان لانتصار حُريّة في مجمل قضاياها التي تولّتها وقعٌ إيجابيٌّ في حياتها العملية والإجتماعية... فقد نالت إحترام الصغير والكبير، لا في بلدتها ومجتمعها، بل على مساحة الوطن كافة.

قد كانت حُجّةً لكلِّ مُدافعٍ عن الحَقّ وحافزًا لكلِّ فتاةٍ تسعى إلى إثبات وجودها من خلال نجاحاتها وتحرّرها، لكن بالتأكيد من دون أن تتخلّى عن ثوابتها ومبادئها، التي تصون وجودها وشخصها الأنثوي الجميل الملطّف بالحياء.

حُريّة إنتصرت على النظرة التقليدية الدونية في المجتمع تجاه المرأة، وأثبتت أنها قادرة على خوض غمار الحياة مهما قَسَت عليها، متسلحة بالعلم والثقافة والشرف والعزّة والإباء.

فحُريّة انتصرت على ذكوريّة "متسلّط"، وتخطّت إغراءات "خطير"، فما وقفت إلى جانب الباطل في وجه الحقّ قطّ مهما تعاظمت أمامها المُغريات. نعم، حُريّة تفوقت على

sarkht damir inside.indd 13 24/04/2018 03:18:11

نفسها جرّاء مقاضاة زوجها -والد ابنها الوحيد- الذي أخِذَ بعالمِ الظلام والفساد، وكان مجرمًا استحق العقاب.

تلك هي حُريّة، قاهرة البَراثن وبطلةُ الأقدار، هي المرأة التي واجهت بَراثن الحياة الشرسة، وخاضت غمار أقدارها الصعبة بجرأة ما بعدها جرأة. فما كانت فاعلة إلّا الصواب في قولها وعملها، حتى صارت أنموذجًا وقدوةً لنجاح المرأة في المجتمع.

تتحضر حُريّة للرحيل عن الوطن، ليرافقها ولدها الذي أتمّ الخامسة من العمر، في رحلةِ إغترابٍ قالت إنّها ستكون طويلة.

إستغربت العائلة قرار الرحيل المفاجئ هذا، فما من سبب يدفع حُريّة إلى ذلك ما دامت إبنتهم سيّدة مجتمع ناجحة، وقاضية محترمة ذاع صيتها الحَسن في الوطن. وأصبحت قضيّة حُريّة وحكايتها مع طموحها على كلّ لسان وفي كلّ عقل واعٍ.

دخلت "حنونة" والدة "حُريّة" إلى غرفة الأخيرة، لتجدها توضّب حقائبها. مسحت دموعها عن خديها الهرمين، ثمّ اقتربت من إبنتها وحضنتها، قبّلتها فوق جبينها، ونظرت إلى عينيَها، ويداها تداعبان وجهها قائلة:

sarkht damir inside.indd 14 24/04/2018 03:18:12

– يا ابنتي.. أيعقل أنّ خالقي قد كتب لي العذاب والقهر؟

– أرجوك يا أمي، كلامك يعذبني، يجرحني في فؤادي. فأنت امرأة تقيّة مؤمنة، ربّت أولادها بصدق وتفانٍ، وأنت امرأة شريفة تعلّمنا منك أسرار الحياة، وكنت نبراسًا أنار لنا وجودنا، ألست ركن هذا البيت وتجمعين شمله دائما؟ لا يعقل أن يكتب الله لك العذاب والقهر وأنت سيّدة عاشت بصفات وجهها الحسن، واتبعت نهج الأمومة الصالحة! قطعا لا.

– لكنّ مصيري يثبت عكس ذلك.. وأقداري كلّها جراح براثن قد هشّمت سنوات عمري.

– أبدا يا امّاه... أرجوك لا تعمّقي جراحك، ولا تخضعي لليأس والانكسار.

– في البدء خسرتُ شقيقك "طَموح"، وهو رمز الحكمة في منزلنا وفارسه الواعد الواعي... وهاجر بعد ذلك شقيقك "جبان" بغير عودة، ولم يسأل عن أهله الّذين ربّوه ساعيًا خلف المال وحُسن الحال، ولم يتكلّف عناء حضور جنازة جديّك الّلذين –رحمهما الله– خسرنا نبضهما أيضا...

– أرجوك يا أمي، توقفي! إنني لا أريد البكاء، تقتلينني بدموعك هذه.

sarkht damir inside.indd 15 24/04/2018 03:18:12

– دعيني أكمل... لا حاجة لأذكر لك حال شقيقك "تبعيّ" فهو رَهَنَ ذاتَهُ وقدراته وحُريّة قراراته لمرجعيته، مقابل وظيفة ما دامت لغيره لتدوم له، متناسيًا أنّه وفي حال جعلَتْه من أثرياء هذا العالم، لا بُدَّ أن يحيا فقير الكرامة هزيل الوجود.

وها هو شقيقك "متعصّب"، فرغم تأثّره بقضيّة طَموح ونضاله المُحقّ، وتبعيته العمياء لزعيمه التي ما عادت عليه بفائدة البتّة، يقرر أن يبقى وفيًّا لخطٍّ سياسيّ اجتماعيّ تخلّى عنه، وما سأل عن وضعه الحياتيّ مرارًا وتكرارًا، وهو من ظلّ ثابتًا على الوفاء إليه، وما خانه بدوره يوما.

ومع أنّ في موقفه نوعًا من الشهامة والأصالة، وهي صفات تُحسب له، إلّا أنه لا يُعتبر شخصًا حُرًّا، فقد نذر روحه وعمره لخدمة مَن يعتبره الملاذ والخلاص، وحتى هذه اللحظة لم يتزوج وما أسّس عائلة وها هو قد تخطّى عقده الرابع.

أمَا أنت يا ابنتي الحبيبة، أنت من أعدت إلينا الحياة بإظهار حقيقة قضية شقيقك الراحل، وأنجبت لنا طَموح الصغير، هذا الطفل الذي رأينا فيه ضالتنا، وأدخل بوجوده الفرح بيننا من جديد، رغم ما مررنا به من عواصف هوجاء شلّعت أيّامنا.

ها أنت اليوم تقرّرين الرحيل عنّا في رحلة طويلة، وتصطحبين ابنك أيضًا! وحتى اللحظة لم نفهم سبب

sarkht damir inside.indd 16 24/04/2018 03:18:12

رحيلك. وبعد كلّ ما ذكرته لك، أتنفين بأنّ خالقي لم يكتب لي العذاب والقهر؟!

كانت حنونة تخاطب إبنتها وعيناها مغرورقتان، وتحضنها كأنها تخاف عدم رؤيتها من جديد. فأمسكت حُريّة يدَ والدتها وانحنت انحناءةً عنوانُها بِرّ الوالدين، ثمّ نظرت إليها وقالت:

- أمّاه، إنّ رؤيتي دمعة واحدة تستقرّ فوق خدّك، تشعرني أنّ الزمان توقف عن المضِيّ، وقلبي توقف عن النبض... فأنت شمس حياتنا، ورونق عمرنا، وبركة بيتنا، ولو أنّ في استطاعتي أن أحيا قربك ومعك حياتي بأكملها لما تلكأت أو تردّدت، ولما خسرت حتى هنيهة واحدة من زمان حياتي بعيدا منك.

أمّا مسألة رضى الخالق يا أمي، فأرجوك ألا تقعي في فخ تعوّد النعم فقد منحك عقلًا واعيًا، وجسدًا متعافيًا وعائلةً محترمة، وهذا ما لا يُمكِنك نِكرانه مهما قست عليكِ الأقدار وأنشبت فيك أظفارها.

فالأعمار يا والدتي الحنونة مكتوبةٌ بحبرٍ سماويّ يصفى من الشوائب، ولا يمكن لأيّ آدمي أن يمحو حرفا واحدا من مخطوطاتها.

– إنك تذكرينني دائما بشقيقك طَموح، لإيمانك بخالقك، وحكمتك في أقوالك وألفاظك. وقد صدقت حين نهيتني عن الوقوع في فخّ التعوّد، فتلك كانت لحظة تخلٍّ وضعفٍ. أتمنى أن يغفرها لي الله. لكنّك لم تقولي لي حتى الآن، ما الدافع يا ابنتي إلى رحيلك عنّا؟ أخبريني!

– جُلّ ما أستطيع إخبارك به أنّ رحلتي ملحّة جدًا، ومسألة هامة للاستمرار في رحلة نضالي الإنساني في متاهة كوننا الفاني.

– ما الذي تنوين فعله ؟ هل سيكون غيابك لسنوات؟ وأحقًّا ستتخلّين عمّا وصلت إليه في وظيفتك المرموقة؟

– أريد أن أتابع دراستي العليا، وأن أنال شهادة الدكتوراه من أفضل جامعات العالم، وتلك فرصة لا تعوّض، إنّها رحلةٌ تحتاج من أربع إلى خمس سنوات.

sarkht damir inside.indd 18 24/04/2018 03:18:13

وأرغب في أن أبتعد قليلا لأبحث عن السلام الداخلي، ولأكون أكثر صراحة وشفافية أسعى حتّى أبعد ابني قليلا فيشتدّ عوده ويصبح قادرًا على مواجهة المجتمع وحقيقة والده المشؤومة. فإن لم أبعده عن أعين الناس وألسنتهم الجارحة، فقد أفشل في تربيته. ومن الصعب على طفل في مرحلة عمر ابني طَموح أن يفهم تاريخ عائلتنا المعقّد أو أن يتحمل عواقبه الإجتماعية، أضيفي إلى أنّ تاريخ خاله طَموح كلّه نضال تضحية ودمٌ سكبَ فوق مذبح الشهادة. وحدّثي ولا حرج عن تاريخ والده المرير.. كما أخشى عليه من شهرتي ومن موقعي الوظيفيّ... لهذا أفضِل الإبتعاد فأتابع دراستي وأنصرف إلى تربية ولدي في بيئةٍ لا تعرفُه وفي بلدٍ حضاريّ يؤمّن لي مساحةً كافية كي أصنع منه إنسانًا نخبويًّا يحيا في سبيل الحقّ وينصر الخير العام والقيم الإنسانيّة والمبادئ السامية.

- صدقت يا ابنتي في كل كلمة نطقت بها، فحججك قويّة، ومن الواضح أنّك مصممة على الرحيل. وجُلّ ما أتمناه، أن يطيل الخالق رحلة العمر حتّى تكون كافية فنراك مجددًا.

- إنّ الأعمار في يده وحده، هو القاهر الجبّار، فمشيئته لا يحُدُّها زمان ولا تقتصر على مكان، هي إرادة إلهية صافية تتمّ كاملة شاملة حقيقيّة، وما علينا كبشر فانين إلا التسليم والرضى. وإنني على ثقة بأنّ خالقي لن يحرمني نورك ودفء

sarkht damir inside.indd 19 24/04/2018 03:18:13

حنانك، وسوف أعود وطَموح الشاب يرافقني، حاملةً شهادة الدكتوراه، لنُكمل ما يبقى من حياتنا سويا بهناء وراحة.

– إذًا، ما عدت قادرة على ردعك أتمنى لك رحلةً موفقة، وعسى أن يرعاك الله ويحميك من غدر الزمان يا ابنتي، وأن يَمِنّ عليّ بنعمة رؤيتك وطَموح مجددًا.

ودّعت حُريّة أهلها وأقاربها، وسافرت برفقة ولدها إلى دولة بعيدة فيها التقدم والتطوّر على كافة الأصعدة. وتسجلّت في إحدى أهم جامعاتها كما تابع طَموح دراسته، وكانت حُريّة قد سَخَّرت نفسها لعلمها وتربية ولدها. فما فتئت تزرع في أيّامه مبادئ مجتمعه التي يحمل هويته، كما وبثّت فيه حبّ الوطن، وعدم نكران الأصل، وناقشت معه أفكار خاله طَموح وفكره الإنسانيّ النضاليّ ونهجه الشريف.

فخاله قد صدح يومًا بصوته قائلا: "على الإنسان أن يحيا مساويًا الغاية مع الوسيلة، فغاية الإنسان يجب أن تكون خيّرة دائمًا تعكس نقاء جوهر روحه. وإنّ الغاية الخيّرة لا يمكن أن تتعارض مع الوسيلة المُحَقَّقَة في سبيلها. فغاية الخير لا بدّ أن تكون وسيلتها خيرًا أيضًا، ذاك من خلال صوابيّة القول والعمل، وبهذا النهج وحسب، يحقق الإنسان وجوده الحقّيقي في عالم زائل".

sarkht damir inside.indd 20 24/04/2018 03:18:13

في الغُربة

مرّت السنون، ولم تقم حُريّة بزيارة وطنها، وكانت عندما تهاتف والديها وأقاربها، تخالجها حممُ الشوق والحنين المتأجّجة من بركان عواطفها، فيحترق فؤادها من لوعة الغياب.

لكنّ أمرًّا مُهمّا حال دون عودتها إلى بلادها وإن لزيارة قصيرة. وكانت عندما تُسأل عن الأمر تردّد عبارة واحدة: «إنها مشيئة الخالق، وإنني لَمُسلّمة في قضائه وقدره».

وبعد مرور خمس سنوات على إقامتها وابنها في ذاك البلد البعيد، تلقت إتصالا من أحد مكاتب الهجرة، يطلب منها القدوم على وجه السرعة برفقة وحيدها، فما كان من حُريّة إلّا أن أكدّت له حضورها في صباح اليوم التالي.

أقفلت السّماعة ونظرت إلى طَموحها وقد صار صبيًّا يقاربها طولا فعلت وجهها ابتسامة اطمئنان، ثمّ قالت: «أعتقد أنّ وقت العودة إلى الوطن قد حان يا بني».

sarkht damir inside.indd 21 24/04/2018 03:18:13

في اليوم التالي، حضرت حُريّة إلى مكتب الهجرة برفقة طموح الصغير، فاستُقبلت بحفاوة، وأخطروها أنّ «لجنة التجنيس في انتظارها.

استغربت حُريّة الأمر، فهي لم تتقدّم بطلب من أيّ جهة رسميّة في ذاك البلد. إلا أن السيّدة التي رحّبت بحضورها أجابتها قائلة: «إنّ أمثالك يا سيّدة حُريّة تُمنح لهم الجنسية من دون أن يتقدموا حتى بطلبها». وتمنّت عليها المثول أمام اللجنة، فلم تتوانَ عن ذلك.

دخلت الأمّ وابنها أمام لجنة من ثلاثة أشخاص، تبيّن فيما بعد أن أحدهم طبيب والآخر قاض، أما المرأة فهي مشرفة اجتماعية، وبعد أن استقبلوها أفضل استقبال سألها القاضي:

– سيّدة حُريّة، هل أنت راضية عن مستوى حياتك في بلادنا وظروفها؟

– ولم البقاء هنا إن لم أكن مرتاحة؟

– جيدٌ جدا، إذا بلدنا يوفر لك الحياة التي تطلبينها لك ولابنك...

– يا حضرة القاضي وفّر لي أكثر بكثير، فمنذ أيام أنهيت دراستي ونلت شهادة الدكتوراه، وقد...

sarkht damir inside.indd 22 24/04/2018 03:18:14

- نلتها بدرجة امتياز.

- من الواضح أنكم مطّلعون جيّدا على أحوالي.

- أنت في بلدنا سعيدة وراضية منذ ما يقارب الخمس سنوات من دون إنقطاع، حتى أنك ما زرت أهلك أو وطنك الأم ولو لمرّة واحدة.

- إنّني لا أنكر أبدًا حُسن ضيافتكم، ولا ما قَدّمَه بلدكم لي من علمٍ وأفضال لا يمكن لي إيفاؤها، ولكن...

- أتقصدين مسألة شفائك..؟

- رغم أنّني ما كنت لأحبذ مناقشة هذا الأمر أمام ولدي إلا أنه صار واعيًا كفاية ليفهم حالي ووضعي فعلاجي من مرض سرطان الثديّ أثقل أيّامي وأحمد خالقي لأنّه قدّر لي الشفاء رغم نتائج العلاج القاسية.

- حسنًا. ومن الواضح أيضًا، أن بلدنا قدّم لولدك طَموح علومًا جعلت منه طالبا متفوقا في مدرسته، ما ساهم في تكوين شخصيته الفذّة.

- يا حضرة المرشدة، إنكم قد وفرّتم له الوسيلة لكنّكم ما صنعتم ما في داخله من إرادة ووعيّ. فتلك مواهب صقلها خالقه فيه. وإنّكم لم تسهروا على تحفيزه وزرع أفكار النضال

sarkht damir inside.indd 23 24/04/2018 03:18:14

والمثابرة والطموح في عقله. وهذا صلب تكوين شخصيته. فهل كافة طلاب مدارسكم متفوّقون مثله؟!

– قطعا لا، فمنهم الأذكياء وآخرون بسطاء.

– حسنًا، وكيف لذلك أن يحدث، ما دمتم تقدمون منهاجًا تربويًّا أكاديميًّا واحدًا لهم، وما بدّلتم أيًّا من الأساتذة والمحاضرين؟!

– وما قصدك يا سيّدتي ؟

– قد قدمت شكري لكم كدولة وفاء واحترامًا لاستقبالنا على أرضكم وتوفيركم الوسائل التي أحسَنّا بدورنا استخدامها في سبيل نجاحنا وتطوير ذواتنا. كلّ ما أصابنا هو من سعينا وثبات عزيمتنا وصفاء نيتنا وإيماننا بضرورة صون وجودنا نصرةً للخير.

sarkht damir inside.indd 24 24/04/2018 03:18:14

صدمت المرشدة بإجابة حُريّة، وتبينّت من كلامها مستوى ثقافتها كذلك لاحظت في حديثها الأصالة وانتمائها لوطنها الأمّ، فأخذت تفكر في طريقة لإقناعها بالبقاء، فالنظام السياسي يسعى إلى التمسك بالنخب لإعادة استثمارها في خدمة الأجيال المتلاحقة. وتابعت اللجنة المقابلة مع حُريّة وابنها، فقال الطبيب:

– بما أنّك تثقين بجهازنا الطبيّ ونظامنا الصحيّ، أكثر مما هو في بلدك، أفلا يشكل ذلك دافعا لكما للبقاء في بلدنا؟

– إنني أتيت إلى هنا حرّة، مقتنعة، مسالمة، ولو مريضة يا حضرة الطبيب. وسأرحل معافاة، ممتنة، حرّة وشاكرة. فهدف زيارتي قدّ تمّ، وأتممت معه واجباتي تجاهكم طيلة مدة إقامتي في ضيافتكم. فمهما كانت المغريات فستبقى العودة إلى ربوع وطني أمرًا ضروريًا بل حتميًّا لا مفرّ منه.

– وإذا ما عادك المرض؟

– تلك ستكون مشيئة خالقي وبها أسلّم ولا حول ولا قوّة لي حينها. فكما أصابني المرض أعفاني منه، وفي الحالتين كان خيرًا. فمرضي تجربة قاسيّة علّمتني معنى الصبر الحقّيقي، وأن أعوذ بخالقي من كلّ شرّ، فهو وحده الملاذ والمُرتجى.. فعند شفائي تعلمت الشكر والحَمد، وزاد إيماني وفرحت أكثر لبقائي إلى جانب ابني وتضاعفت فيَّ مشاعر الاشتياق لوطني وبلدتي وأهلي ومجتمعي كما هُويّتي.

sarkht damir inside.indd 25 24/04/2018 03:18:14

فإذا زار المرض جسدي الفاني مرة جديدة أيها الطبيب، فلا شكّ أنّ في الأمر خيرًا قدّره لي خالقي، وهو الذي له في خلقه شؤون، فلم وقتئذ سأخاف من عودته؟!

– حسنا، ولكننا نعرض عليك وظيفة مرموقة جدّا في إطار قضائيّ وستحاضرين في الجامعات ثمّ سوف تؤسّسين لنهضة فكريّة واعية. كما نعرض عليك تعليم ولدك بمنحة دائمة حتى انتهائه من تحصيله علومه، وزيادة نرغب في تحسين شروط سكنك وراتبك ومعيشتك. لكن طبعا شرط أن تتخلّي عن جنسيّة وطنك الأم.

ابتسمت حُريّة للّجنة، ونظرت في عيني ولدها وقالت له:

– يا بنيّ، إنّ حياة الإنسان مسرح تجارب، وهذه التجارب تُحدد مسارك ومصيرك. وقد يعتقد بعضهم بأنّ مسارَهُ أنجع ومصيره أفضل في حال كان مرتبطًا بالمال والسلطة، إلا أنه ينسى أو يتناسى أن المادة لا تشتري إلّا المادة، أما الهوية المعنوية فلا يَستحوذ عليها إلا مَن وشّى وجوده بالأخلاق والإنسانية وحفظ أصالته.

– صدقت يا أمي. تأكّدي أنّني قد فهمت مغزى كلامك، لهذا أوافقك الرأي.

– يا سيّدة حُريّة نحن في انتظار إجابة واضحة على ما عرضناه.

sarkht damir inside.indd 26 24/04/2018 03:18:14

- إنّ في إبتسامتي تكمن إجابتي. أنا وبكلّ فخر أرفض رفضًا تامًا ما سبق وعرضتموه علينا، لأننا لا نرى في بلدكم أو في أي بلاد أخرى بديلًا عن بلدنا. فلا جنسيّة توازي جنسيتنا الأمّ وأتمنى يا حضرة المرشدة أن تجيبيني عن سؤالي: هل يُبدِّل الثَّمر في هُويّة الشجر؟

- وما علاقة هذا بذاك ؟

- إنّكم تسمعون كلامي فتقرأون ظاهره ولا تحاولون فهم باطنه. سبق وقلت لكم، إنني ما أتيت إلى هنا خوفا من الموت أو هربا لأسباب اجتماعيّة أو اقتصاديّة أو حتى سياسيّة، قطعا لا... ولكنّ بَراثِن أقداري حتّمت عليّ اتخاذ قرار السفر، بهدف إعادة تنظيم حياتي من جديد. فكانت مشيئة خالقي أن أحلّ ضيفة وابني في بلدكم. رحلت عن وطني وسأعود إليه، فرحلتي رحلة اغترابٍ لا هجرة، ونحن قومٌ قد نرتحل ولكن لا نرحل أبدا عن بلادنا، مرتع أصالتنا ومرقد أجدادنا.

- إذًا فقد حسمت قرارك! ولكن ما رأي ابنك طَموح في الأمر؟ أيفضل البقاء في بلدنا أم العودة أيضًا؟

- إنّ ولدي طَموح يحمل وطنه فكرة حقيقيّة في وعيه مذ بدأ النطق والفهم... ودماؤه صافية نقيّة تجري فيها المواطنة، كما أن تاريخ عائلته بشكل عام وتاريخ خاله حَمَّلَاه واجبًا كبيرًا تجاه وطنهه، فلن يخونه ما دام حيًّا.

sarkht damir inside.indd 27 24/04/2018 03:18:14

- وهل يمكن أن نسأل طَموح عن رأيه في المسألة؟ هل تسمحين لنا الانفراد به لدقائق؟

- وهل تعتقدون أن طَموح سيخذلني في غيابي... من الواضح أنكم لا تعون أهمية التربية البيتيّة الصادقة، وزرع القيَم الأصيلة في النفوس والعقول. ولكن اسمعوا، رغم أنكم لا تملكون حقّ مقابلة ولدي منفردا، كما أنكم لا تملكون أيّ سلطة علينا. غير أنّني سأخرج فرحة حتّى تبصروا فعل التربية الصالحة من جهة، وسأخرج لأجل ولدي طَموح من جهة أخرى، كي يبدأ اختبار هذا العالم القاسي، مستلّا سيف وعيه مجابهًا براثن أقدار الحياة.

وقفت حُريّة مبتسمة وهمّت بالرحيل، إلّا أن طّموح أوقفها، وأمسك بيدها فحضنها، ونظر إلى اللجنة بعينين ثاقبتين جريئتين ثمّ قال:

- لا ترحلي يا أمي، لا تتركيني وحدي.. فما تركتني من قبل فلم الآن؟

- لا عليك يا طَموح، نريد أن نحاورك من دون أن تكون متأثرا بحضور والدتك. فما سنعرضه عليك قد يبدّل حياتك إلى الأفضل، ولسوف يُسعفك في بناء مستقبلك.

- لا قيمة لحياتي ولا مستقبل لي في غياب والدتي عنّي. أنا لا أريد منكم شيئا!

sarkht damir inside.indd 28 24/04/2018 03:18:15

- أحسنت في تربية ولدك يا سيدة حُريّة!

- يا حضرة القاضي، هذه سمة نعدّها الاستثمار الأهم في حياتنا وأعتقد أنّكم تفتقرون لها في بلادكم.

- وما هي تلك السّمة؟

- إنها تنشئة الأسرة الصالحة. نعم، هذا هو إنجازنا. لأن الأسرة الصالحة التي تقوم على مبادئ الإيمان والتقوى، وبِرّ الوالدين، والصدق في الإنتماء إلى الأرض والشعب، هي الأسرة التي تنجب نُخبا تُبقي المجتمع شامخًا في الإنسانية. فمجتمعاتكم ذهبت أكثر نحو العالم الماديّ وكسِبت مكاسب زمنيّة ماديّة وتقنية وغيرها، إلا أنكم أضعتم بوصلة الإنسانيّة والقيم الأخلاقية. أمّا نحن وإن لم نكن نضاهيكم في ما صنعتموه من إنجازات علميّة وتقنيّة متطورة، غير أنّنا ما زلنا نحيا في عالم الإنسان ولم ننتقل بعد إلى عوالم الآلات.

- ولكن هل يمكن للمثاليّة هذه أن تؤمّن لكما حياة مستقرّة وحوافز تساعدكما في بناء حياة أفضل؟

- سيدتي، ربما لم تسمعي يومًا بشقيقي طَموح، ولكنّني سأُسمعك شيئا من أقواله.

- هات ما عندك ياسيّدتي..أسمعيني

sarkht damir inside.indd 29 24/04/2018 03:18:15

– إنّي لمتيقنّة أنه لو قَدَّرَ لك الخالق أن تبصري عيني شقيقي يوما، لخجلت من نفسك. فهذا ما قاله في وجه كلّ مدعٍ مثلك ممّن كان مناظرًا ومحاججًا بأهميّة المادة ومكاسب الحياةُ الدُنيا "يخيّل للإنسان بأنّه يملك شيئًا في هذه الدنيا، لكنّه في الحقّيقة مهما امتلك، لا يملك إلّا السرّاب". فنحن يا سيدتي لا تعنينا المغريات والمكاسب الفانية بفنائنا، فجلّ ما نسعى إليه أن نبقى فكرة انسانية راقية بعد رحيلنا، تاركين الأثر الجميل لَمن سيخلفنا كما فعل أباؤنا وأجدادنا.

– يُعجبني رقي فكرك، فهنيئا لوطن فيه أمثالكم. كم نتمنى أن تبقى هذه الأفكار في بلادنا، وأن يشبّ على دراستها أولادنا، لنعود بأجيالنا من عالم الآلات إلى عالم الإنسان.

إنّ دراستنا ملفك، ويقيننا من انجازاتك وكفاءتك، وتقييمنا لك كسيّدة مجتمع متعلّمة، مثقفة، جريئة وناجحة، هي التي دفعت بحكومتنا إلى مقابلتك والإصرار على منحك جنسية بلادنا، لعلّنا نستفيد من كفاءتك وخصالك وقدراتك، فتكونين خير مثال يُحتذى به.

– يُسعدني أنك تماثلت للشفاء يا سيدة حُريّة ومن المؤكد أنّ الخطر قد زال، أنا كطبيب أعرف أنّك قرّرت وبجرأة استئصال الورم. وهذا إيمان قوّي قلّما يتمتع به الإنسان عامة.

sarkht damir inside.indd 30 24/04/2018 03:18:15

- حضرة الطبيب، إن الله هو وحده الشافي والكافي...
وكما ذكرت لكم، عانيت المرض لأمر كان فيه صالحي وما شفيت إلا لخيرٍ حلّ في وجودي. فإيماني بحقيقة السرّ الأعظم في حياتنا البشريّة الفانيّة دفعني كيلا أتعلّق بالحياة، بل كي أحيا حياتي مسلّمة بمشيئة خالقي. فنضالي في سبيل شفائي لم يكن تعلّقا بفكرة البقاء على قيد الحياة، بل كان أساسه فكرة عدم التخاذل تجاه نفسي وتجاه كلّ نفس مرتبطة بي، فأنا لا أرضاه أبدا.

ومهما كانت النتيجة إنني لأقبل بها... أمّا مسألة الجرأة في استئصال ثديي، فذاك أمر ما كان إلا لأنني أقبل الإمتحان الكونّي عن قناعة وإيمان، أمّا أنوثتي فلا تتحقّق من خلال جسدي بل بأقوالي وأفعالي أيضا.. وكلّ ما تبقى في حياتي لا يعدو كونه عارضا لا جوهرا. فأجسادنا مصيرها التحلّل تحت التراب، وكل ما نحمله في ظاهرنا لا بد وأن يفنى يوما ما، أمّا الذي يُخلّد وجودنا بعد رحيلنا، فهو ما صنعناه بصوابيّةٍ تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين.

أثارت حُريّة إعجاب اللجنة بإجابتها وثقتها بنفسها، وحسن تربيتها ولدها، وتعنُّتها لجهة إلتزامها بهويتها، وأصالتها في ما تحمل من أفكار إنسانية. وبعد تيقّن الحاضرين من استحالة تنازل حُريّة أو تخلّيها عن جنسيتها مهما كانت المغريات، توجّهت إليها المرشدة قبل إنهاء المقابلة، قائلة:

sarkht damir inside.indd 31 24/04/2018 03:18:15

– يعجز اللسان في التعبير عن مدى احترامنا لك يا سيّدة حُريّة. فعلا إنك انسانة مميزة. نرجو لك التوفيق في حياتك، ونرجو النجاح لك ولولدك طَموح. واعلمي أننا قدّمنا عرضنا هذا لكما لأننا رأينا في سيرتك واسمك وحتى في مستقبل ابنك طَموح قيمة اضافية لمجتمعنا. وإن باب بلدنا لا بد وأن يُفتح على مصراعيه مرحبًّا بكما في أي وقت أردتما العودة، وكلنا أمل أن تقدركما حكومة بلدكما كما تقدّرانها.

– نحن نؤمن بأنّ إلتزامنا تجاه الوطن لا يجب أن يكون في سبيل نيل مقابل أو مردود ماديّ أو معنويّ، بل لأنه مبدأ من مبادئ صون وجودنا وهويتنا. فالحكومات إلى زوال ليبقى الوطن بأرضه وشعبه ولو تبدلّت سلطاته السياسية. والآن اعذرانا، فقد آن وقت حزم حقائبنا، فبلدنا في انتظارنا، ولدينا أحباب تأخّرنا عن ملاقاتهم.

– مع السلامة يا ضيفينا العزيزين.. نتمنى لكما التوفيق.

أنهت حُريّة المقابلة، وكانت سعيدة لدرجة أنّ البسمة ما فارقت وجهها. وفي طريق العودة إلى منزلها، سألها ابنها عن سبب غبطتها، فنظرت إليه نِظرة حنان وامتنان وقالت:

– يا بنيّ، إنني أبتسم للقدر الذي منحني طفلًا واعيًا ذكيًا، ووفيًا لتربيتي له، وما زرعته فيه من ثقافة وقيم ومبادئ. أنت أعدت إحياء ذكرى خالك الغائب الحاضر أماميّ من جديد. لأنّك تشبهه بجوهرك وتحمل الكثير من ملامحه.

sarkht damir inside.indd 32 24/04/2018 03:18:15

– أحقًا أنت فخورة بي؟

– نعم يا بنيّ، وتذكّر أن رحلة نضالك في تحقيق وجودك لم تبدأ بعد، ولن تبدأ بعيدًا من هويتك الأصيلة، وأهلك ومَن تحمل أصلهم وأصالتهم.

– ماذا تقصدين ؟ رجاء إشرحي لي...

– يا بنيّ، إنّ البشر مخلوقات لم تولد من عدم، ولا في سبيل العدم... وما قصدته، أنّ لكلّ انسان واجبًا صريحًا، عليه تأديته خدمةً لوجوده في هذا الكون. أمّا وجود الإنسان منّا في هذا الكون فلا يمكن أن يتحقق بعيدا من الناس أو من دونهم. فالخالق متى خلقك جعل في خلقك سببًا، وإياك أن تُفسد في سبب خلقك أو أن تدنو منه شرّا. بل عِ أنّ من واجبك أن تحيا فارسا للحق وخادما للخير، وباحثا عن الحقّيقة دوما.

– وهل هكذا عاش خالي؟

– خالك يا بنيّ، كان مثاليًا بفكره ووعيه وأحلامه حتى طموحاته.

– وما قصدك بالمثالية؟

– المثاليّة يا ولدي، هي أن تطلب أو تسعى أو تحلم بأمور تتخطى مسألة تحقيقها في الواقع المعاش، هي أمور تقارب الكمال بأعين البشر، والكمال أمر غير متوفّر في هذه

sarkht damir inside.indd 33 24/04/2018 03:18:15

الدنيا الفانية، لهذا يعتبر كلّ منادٍ بالمثالية أقرب إلى الجنون منه إلى العقل والتعقل.

وحين سأل الطفل أمّه: هل كان خالي مجنونًا؟ لاحظ أنّ الدمع قد لاقى طريقه إلى خديّ والدته، فتأسّف على سؤاله لكّن حُريّة بادرت إلى القول:

- لم تُقدم على خطأ، إنّ مشاعر الحنين جعلتني أذرف دموع الاشتياق لخالك، لطلّته، وكلامه وحرصه عليّ... لأنّك صورة صغرى عنه وتشبهه. وصحيح يا ولدي كان خالك مجنونًا! قد كان صادقا، نقيًا مثاليًا، في مجتمع فاسد تشوبه النائبات والصغائر، ورغم ذلك تابع رحلة تحقيق حلمه بصوابية وما ارتكن للفساد يوما. فصدقه في واقعٍ كاذب كان جنونا يا ولدي. اليوم، جعلتني أعود بالذاكرة يا بنيّ إلى ما يقارب الخمسة وعشرين عاما وربما أكثر... حينما كانت العائلة مجتمعة قرب المدفأة، وكان خالك في مثل سنّك تقريبا آنذاك، حين دار نقاش بينه وبينهم جميعا. وحديثه يومها، كتبته جدتك حنونة على ورقة كبيرة لتذكّرنا بها في المستقبل، وكأنها كانت تعلم مسبقا أن طَموح سيحقق مراده ويحيا مبادئه التي نطق بها تلك الليلة، فيبقى كلامه دليلا على فطنته منذ الصغر.

- وماذا قال خالي تلك الليلة؟! وأين أصبحت تلك الورقة؟ إني أتحرّق شوقا لمعرفة المزيد.

sarkht damir inside.indd 34 24/04/2018 03:18:15

– مهلا يا بني سأخبرك كلّ شيء... نحن جميعا حفظنا مضمون تلك الورقة... وقد جاء فيها:"يا أهلي، أنتم تقولون إنّ السياسة ليست لهذا البيت! وإنّي لأراكم منغمسين في وحولها تعيشونها يوميًّا، لكنّكم مسيّرون لا مخيّرون. أعدكم أنّي سأبدّل الحال، ولن أرضى ما ارتضيتموه. إنّ وطني سيكون هويتي. سأناضل وأبقى أناضل لأكرّس منطق الدولة، وسأبقى أنا ورفاقي في الوطن، من كلّ الطوائف والمذاهب، متحدين متفقين على منطق الوطن الواحد الجامع. لن نرضى باستعمار كما ارتضيت يا جدّي، ولن نتقاتل في حرب أهلية دامية وننقسم على ذواتنا ودولتنا كما فعلت يا والدي. لن أهاجر قبل أن أبادر يا أخي "جبان"، ولن أعطي شرعية إلّا للدولة. والوطن وحده سيكون السعي يا أخي "تبعي". وإنّي لن أواجه أحدًا لأجل الزعيم وأقتل إنسانيتي في الصميم يا أخي "متعصب"، غير أنّي سأربي نفسي لأكون مواطنًا، وسيبقى وطني متجذّرًا في عقلي وساكنًا في قلبي. قال ذلك وختم كلامه بصوت صارخ قبل أن يغادر الغرفة دامعًا:"فلتصبحوا على حلم الوطن".

– نقشت كلامه في ذاكرتك وقد بقي خالي حيًّا فيكِ.

– نعم يا بني، إنّ ذاك لواجب، فنحن رفضنا أن نسمع هذه الكلمات في حينها، معتقدين أنّها خياليّة مثاليّة غير قابلة للتحقق..

sarkht damir inside.indd 35 24/04/2018 03:18:15

– ولماذا اختار عالم السياسة وهو عالَمٌ خطرٌ كما تقولين!؟

– إنّما اختاره له الله.

– كان خالك يردد عبارة مهمة جدًا، فيقول: "يخيّل للإنسان أنّه حرٌّ، لكنّه في الحقّيقة عبد للقدر يسعى جاهدا نحو التحرر، وما استكان للحُريّة المطلقة أبدا". ما معناه أنّ الإنسان يعتقد بأنه يتحكم في حياته لكنّ في الحقّيقة، روحه التي تقوده إلى تحقيق الأفضل لها من خلال وعي عقله.

– أميّ.. أريد أن أقول لك أمرًا مهمًا.

– وما هو يا بنيّ؟

– حقيقة لم أفهم شيئا مما قلته. وأعتقد أنّ خالي كان فعلا مجنونا.

ضحكت حُريّة وأجهشت بعدها بالبكاء شوقا... وكأن عاصفة مجنونة ساقت طيف طَموح بينهما.

– يا بنيّ، مضى زمن طويل لم أضحك فيه. لا أصدق أنك تحمل حسّ الفكاهة الذي تميّز به خالك. فربما لشدة تعلّقي به، ولإيماني بأنني لم أستطع إيفاءه حقّه عليّ، رزقني الله مَن شابهه فكرا وجوهرا حتى أردّ المعروف. فمن حقّك يا بنيّ ألا تفهم فلسفة خالك وأقواله التي يصنفها الأكثرون على أنها غريبة أو جنون. فالكبار عجزوا عن إدراك ما يقصده خالك، فكيف ستدركه أنت يا صغيري؟

sarkht damir inside.indd 36 24/04/2018 03:18:15

– حقًّا يا أمي، أريدك أن تشرحي لي كلّ شيء، أريد أن أتعرّف شخصيّة خالي، أنا أريد أن أصبح مثله.

– هذه مشيئة الله، نحن وكلّ البشر جسور عبور للحقائق عبر الأجيال. فعلى نفسك أن تختار مسارها فيقدّر الخالق لها مصيرها.

فإن طلبت الشر، قدّر لك من لدن سمائه ما نويت فعله بل أضعاف ما نويت. وإن قصدت الخير، فلا بُد وأن تلقى خيرا. فلا تقل إنك تريد أن تصبح كخالك، بل قل إنك تريد أن تقرأ مسيرة خالك، وأن تتعلّم نهجه وتفهم أفكاره، كما فعل غيرك حتّى يتسنى لعقلك أن يقرّر ماهيّة مسارك فتسعى إلى تحقيق ما تمنّيت، فما لك إلا أن تتلقّى الأقدار وقتها من خالقها. فخالقك سيحاسبك على ما نويت فعله وما صنعته، لا ما صنعه غيرك فتماثلت به. وإلا فما كان سبب خلقك؟!

– فهمتك يا أمي، تريدنني أن أتعلم من مسيرة خالي لأبني مسيرتي الخاصة.

– نعم أيها الطفل الذكي... نعم، هذا ما قصدته. بنيّ أنا أبصر في عقلك وعيًا مهما، فلا تفرّط به، ولا تقبل أن تسرقك ملذّات الدنيا، ولا تتخلَّ البتّة عن مبادئك وكرامتك وشرفك، فمتى هاجرتك تلك القيّم ما عادت أبدًا. ومن دونها لن تتعدى كونك مخلوقا فاسدا في جسد آدميّ فانٍ. إحفظ هذه الكلمات يا طَموح.

sarkht damir inside.indd 37 24/04/2018 03:18:16

- سأحفظ أمرا واحدا يا أمي...

- وما هو؟

- أنت مجنونة كما خالي يا أمي، فقد حاولت أن أفهم ما قلته إلا أنني أصبت بالدوار.

قال ذلك طَموح وضحك ضحكا شديدا، وبالطبع كان يمازح والدته. وضحكت معه حُريّة، وكان الحوار الدائر بينهما أشبه بلحظات حلم نقيّ مفعم بالفرح والأمل والسعادة. وأنهت حُريّة حوارها مع ابنها قائلة: سيأتي يوم وتفهم كلّ شيء يا ولدي..سيأتي هذا اليوم."

في رحاب الوطن

عادت حُريّة إلى ربوع الوطن برفقة ولدها المراهق وقد ظهرت عليه أمارات الشباب والذكاء. وما إن أطلّت الطائرة في سماء الوطن حتى بدأت تتراءى لحُريّة وابنها أرض الأحلام ومهد الذكريّات، وقبل أن تلامس إطاراتها مدرج المطار بسلام، لاحظ طَموح دموع أمّه كأنّها تندى لمعانًا على خديّها، ونظراتها تسافر إلى الأفق، تتأمل تراب الوطن من فوق وتشاهد شريط ذكريات حياتها يتخطّف أمام عينيها، فلا ترمش ولا يهتزّ لها جفن، وكأنها انتقلت بلحظات سريعة إلى عالم آخر... فسألها ولدها:

- أمي، أمي...

لكنّها كانت شاردة الذهن تنفصل عن واقع عالمها الآنيّ، ولم تسمع ولدها يناديها مرتين، ثمّ أمسك بيدها وقال:

- أمي... أوصلتِ قبل الطائرة إلى المطار.... أم ما زلت معي؟

إبتسمت ومسحت دموعها عن خديها، ونظرت إليه نظرة حنان وأمان وقالت بصوت يتملكه الصدق:

sarkht damir inside.indd 39 24/04/2018 03:18:16

- بنيّ، خمس سنوات مضت ونحن مغتربون عن أكثر الناس الذين أحبّونا وأحببناهم، هي خمس سنوات مريرة فرضت علينا ألا نلقى الأقربين إلى قلوبنا. وقت طويل مضى ولم أر جديّك، كما لم أقم بزيارة مرقد خالك. قد أثقلت الأيّام وطأتها وفرضت علينا أن نرتحل عن وطنٍ ما أردنا الرحيل عنه قطّ.

- ولكن لِمَ البُكاء؟

- هذه دموع الفرح يا بنيّ.

- أرجوك يا أمي، لي طلب أرجو ألا ترفضيه.

- تفضل يا بنيّ...

- أمي أريدك ألا تفرحي بعد الآن؟

- ولماذا يا بنيّ، وهل تريدني تعيسة حزينة؟!

- بل أريدك أسعد الناس، لكنّك حين تفرحين تبكين، وفي كلّ مرّة أبصر فيها دموعك أشعر بالحزن. فأنتِ كلّما فرحت أدمعت. أعتقد أنّك لا تتآلفين والفرح، ففرحك بكاء وأكثره عذاب وشقاء!

ضحكت حُريّة، وقبّلت جبين ولدها، لما يحمل من فطنة وحس فكاهة وذكاء، وقالت له:

sarkht damir inside.indd 40 24/04/2018 03:18:16

- طَموح لا أصدق كم تكثر أوجه الشبه بينك وبين خالك. فمن الواضح أنّ الخالق سمع رجائي ومنحني ولدًا يشبه شقيقي الإنسان العصامي الواعي، وها أنت تذكّرني به حتى بأسلوب كلامك... أنت يا ولدي أثمن كنوزي.

- أنا أحبك جدًا، ولن أبتعد عنك ما حييت، وسأحميك يا أمي. فبرحيل خالي ووالدي لم يتبقَّ لك رجل يحميك، ولكنّني ها هنا.

- طَموح ألم نتفق من قبل على ألّا نذكر الأموات، بل ندعوَ لهم في سرّنا... فلم ذكرتَ والدك يا بنيّ؟ فلتستكن روحه بسلام.

- أنت دوما تذكرين خالي طَموح!

- خالك كان مختلفًا، قد عاش متميزًا عن الآخرين، ورحل مغدورا، ومن واجبنا ذكرُه دومًا كيلا ننسى نضاله ورسالته. أفهمتني؟

- تردّدين الإجابة عينها وقد حفظتها... حسنا فهمت. غير أنّي أتمنى دومًا أن تحدثيني أكثر عن والدي، وأنت لا تذكرينه البتّة، بل أشعر أنك تمقتين هذا الكلام.

- طَموح، سبق وقلت لك مرارًا، والدك كان رجلا مسالمًا وأمضى حياته يعيش هانئا حتّى وافته المنيّة وتلك كانت مشيئة الخالق له ولنا، فتمنَّ لروحه السلام.

sarkht damir inside.indd 41 24/04/2018 03:18:16

– حسنًا كما تريدين... فما اعتدتُ أن أردّ لك طلبا أو رجاء. لأنك أنت أمي، قدوتي ومربيّتي.

نظرت حُريّة في عينيّ طَموح بفخر واعتزاز، شاكرة ممتنّة لما يحمل من وفاء لتربيته، ولأنها رأت فيه عنفوانًا ينضَحُ بالأصال حطّت الطائرة، فخرجا من صالة المطار الكبرى ليستقلا سيّارة أجرة فيتوجّها بها إلى البلدة. لأنّ حُريّة رغبت في أن تفاجئ أهلها، وما أرادت أن يتكبدوا عناء استقبالهما هناك.

دخلا البلدة وكان الليل الديجورُ قد شارف على الركون، وقفا أمام باب المنزل وكانت حُريّة تتأمل تفاصيله وتتذكّر أجمل أيام عمرها، فكلّ ضحكة صدحت وكل دمعة ذُرفت هنا صارا عمرًا منقوشًا عليه، وطلبت من ولدها أن يقرع الباب... اقترب منه وطرقه بيديه ثلاث مرّات. ثمّ سرعان ما سمعت أمّه خطوات تقترب من خلفه، ومع كلّ خطوة تسارعت خفقات قلبها الهائم حنينا وشوقا لملاقاة أهلها... فتحت والدتها حنونة، وما أن رأت ابنتها وحفيدها أمامها، حتى همت بحمل فؤادها قرب الباب جاثية، وشهقت باكية خافية عينيها كأنها لم تصدّق مَن رأت... جثت ابنتها قربها، واحتضنت رأسها وقبّلته، ثمّ قالت:

– أمّي، تبدّلت الأيام، وما بدّلتك... فما زلتِ كما تركناك، حنونة، مرهفة وصادقة الإحساس. قفي.. أرجوك، فقد عادت لأحضانك ابنتك الوحيدة من جديد، ومعها ولدها

sarkht damir inside.indd 42 24/04/2018 03:18:16

الشاب الأنيق الجميل الفتيّ... إنهضي، وباركينا فقد أبكانا شوقنا إليكم.

كانت حنونة لا تصدق ما تراه وما تسمعه، تنظر إليهما ولا تنطق بكلمة واحدة... تنظر باكية وصمتها فيه ألف كلمة وكلمة. اقترب منها طَموح قائلا:

- جدّتي، كنت تهاتفينني لأسمع صوتك الحنون وأنعم بدعواتك، قد أحببتك من كلّ قلبي وما رأيتك من مدّة. وها أنا اليوم بين يديك، أفلا تريدين أن تحضنيني؟

نهضت الجدّة متثاقلة من كبوة حنينها، وحضنت حفيدها وأخذت في تقبيله، واقتربت حُريّة وحضنت الاثنين معًا، فزاد بكاء الجدّة والأم وأردف طَموح:

- الآن أيقنت أنك تشبهين جدّتي، فكلاكما حين تفرحان تبكيان، يا لها من عادة غريبة ستصيبني بالجنون!

ترافق الجميع إلى غرفة الجلوس حيث ينام مستلقيا الجدّ "قاسي"، فطلبت حُريّة من طَموح أن يذهب ويوقظه ولكن بروية. ففعل طَموح، واقترب من رأس جده:

- جدّي أنا طَموح... حفيدك! قد عدت، استيقظ.. أرجوك...أرجوك لا تفرح بعودتي.

وأعاد جملته مرتين، وحنونة تتأمّله وتبتسم لفطنته، فحفيدها ينضح قلبه محبة وحنينًا.

sarkht damir inside.indd 43 24/04/2018 03:18:16

إستيقظ "قاسي" ليجد أمامه حفيده، فهو قد رآه قبل خمس سنوات طفلا يعود إليه اليوم فتيًا... جلس وأجال نظره في الغرفة كأنه لا يصدق ما يراه، ومرّ بأصابعه مرارا وتكرارا فوق جفنيه، متخوّفا من حلم سيوجعه... فقالت امرأته:

- أنت لا تحلم يا زوجي العزيز... نعم هذا حفيدك أمامك، وها هي ابنتك حُريّة قد عادت إلى رحاب منزلك العائلي.

- إشتقت إليك يا والدي، إشتقت إليك كثيرا.

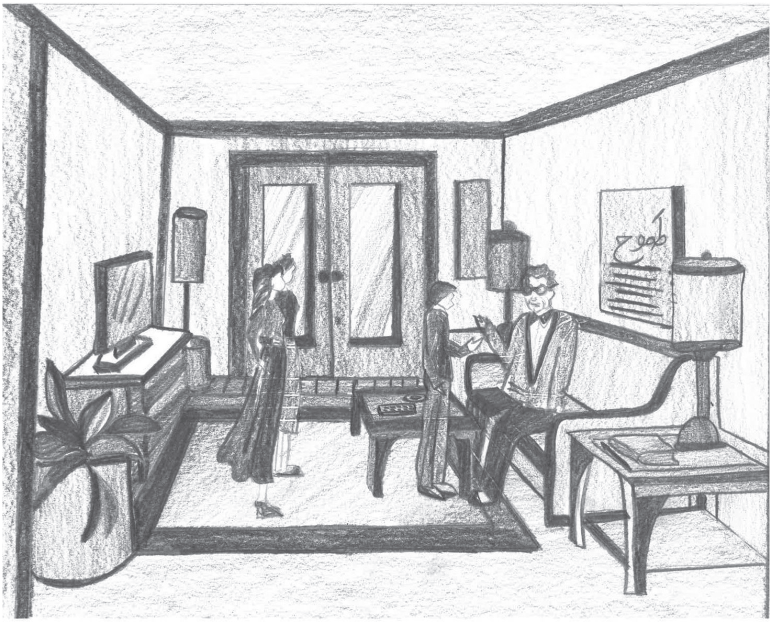

sarkht damir inside.indd 44 24/04/2018 03:18:17

وارتمت في أحضان والدها، وهو وعلى رغم جبروت قسوته لم يتمكن من حبس دموعه. فما كان من طَموح إلّا وأن اقترب من جده، فمسحها عن وجنتيه وقبّله...

- حتى أنت يا جدّي، إن فرحت بكيت...

حضن الجدّ حفيده وقبّله مرات ومرات:

- أهكذا يا ابنتي؟ أيعقل أن تحرمينا وجودك بيننا؟ كيف إستطعت أن تقسي علينا برحيلك؟ فما عهدناك إلا زهرة بيننا يعبق شذاها في المكان.

- إنه القدر الذي قسا عليّ وعليكم، وتلك كانت تجربة مريرة، وبفضل الخالق مررنا بها بسلام. فلم يكن رحيلي خيارا سهلا، بل فُرِضَ عليّ وزاد معاناتي. قد كان شوقي إليكم ورغبتي في العودة إلى أحضانكم دافعين منحاني القوّة لمواجهة كافة الصعوبات والمآسي التي مررت بها. وها أنا اليوم بينكم. فلنشكر الله على كلّ شيء، لأنه قدّر لنا عودة ميمونة، لنراكم متعافين.... لكن أين إخوتي؟

- "جبان" ما يزال مسافرا ويرفض العودة يا ابنتي، فقد أخطرني منذ أيام عبر الهاتف، أنه وبعد جهد كبير، استطاع أن ينال جنسية من البلاد التي يحيا فيها، وهو الآن مستقر وقد تأهّل من إمرأة هناك، ولا يحبّذ العودة أبدا.

sarkht damir inside.indd 45 24/04/2018 03:18:17

أمّا "تبعي" فقد تزوّج في فترة غيابك عنّا. وهو لا يعيش بيننا بل على مسافة بعيدة منّا. و"متعصب" خارج البيت الآن ولا بد أن يعود بين لحظة وأخرى.

– غدًا سنزور طَموح سويا... فممّا لا شك فيه أن روحه قد اشتاقت إلينا كما نتوق إليها بدورنا في كل هنيهة. أليس كذلك يا أمّي؟

– نعم، سنزور مثواه يا ابنتي.

– كم أنا متشوّق لأرى تلك الشجرة الكبيرة يا جدتي التي يرقد تحت ظلالها طيف خالي..

– يا بني.. غدا سنضع وردة سويًا فوق ثراه ونضيء شمعة.

– ولم الورود والشمع؟

– يا حفيدي الغالي، إنّ الوردة عربون تقدير وامتنان واحترام لروح الإنسان الذي يرقد جسده في مثواه الأخير. أمّا الشموع فترمز إلى أن الراحل قد غاب جسدا لا فكرة، وكما كان يذود بنفسه من أجلنا، هكذا سيبقى نور ذكراه الخالدة لتضيء حياتنا أملا بغد أفضل.

– حسنا يا جدتي، إذا أريد أن تعطيني شمعة خاصة بي ووردة كذلك.

sarkht damir inside.indd 46 24/04/2018 03:18:17

– سيكون لك ما طلبت يا طَموح.

– أريد أن أسألك عن أمر آخر لو سمحت...

– أطلب ما تشاء.

– أريد أن أرى الورقة التي كتبتِ عليها ما قاله خالي عندما كان في مثل سنّي في جلستكم العائلية، فقد أخبرتني عنها سابقا والدتي.

– ولماذا تهتم لتلك الورقة يا فتى!؟

– إنه لأمر غريب أن تدوّني ما قاله خالي يومها، وكأنك قرأت آخر أيّامه. فقد أخبرتني والدتي عن فحوى كلامه آنذاك، ولكن أريد أن أقرأها بنفسي.

– حسنًا يا حبيبي... حسنًا...

غابت الجدّة حنونة لدقائق، وعادت لتعطي طَموح ورقة قديمة، كانت قد وضعتها في إطار خشبي حفاظًا عليها من الإهتراء. فحملها بين يديه، ثمّ قالت له جدّته:

– وهل ستتقن قراءتها يا طَموح؟

– بالتأكيد، أمي قد أتقنت تعليمي اللغة جيدا، وأجيد لغتين إلى جانب لغتنا الأم.

– إنك حقيقة ابن حُريّة.

sarkht damir inside.indd 47 24/04/2018 03:18:17

أخذ طَموح الورقة وبدأ بقراءتها وعلامات التأثر بادية عليه:

– جميل ما هو مكتوب يا جدتي، فخالي منذ فتوّته كان جريئا، ولكن أخبريني ما الذي دفعك حتّى تدوني كلامه وتحتفظي به؟

– لا أعلم يا طَموح، شيء ما في داخلي دفعني إلى ذلك، أنا لم أره على تلك الحالة من قبل. فقد كانت عيناه تبرقان بدمع فيه صرخة ضمير. وقد كنّا جميعا ضدّ موقفه يومها، ولم نوافقه رأيه، إلّا أنّه أصرّ على فكرته وقال كلامًا ما كان ليتجرأ أن يفكر فيه رجال كبار. فنظرة واحدة من عينيه جعلت مَن يناظره يخجل من نفسه، فقد حمل في صوته الصدق، وفي عينيه القوة والجسارة، وكان ما يزال طفلًا في مثل سنك.

– كم كنت أتمنى لو أنني عرفته...

– لا داعي إلى ذلك يا بنيّ!

– ولم يا أمّي!؟

– يكفي أن تنظر إلى نفسك في المرآة في هذه اللحظة بالذات، لترى في عينيك نظراته، وتسمع في كلماتك صوته، وتدرك في حماستك حماسته... لو أنّك عرفته سابقا، ما كنت لتصدق كم أنك تشبهه بصفاته وخصاله.

sarkht damir inside.indd 48 24/04/2018 03:18:18

– صدقت يا حُرِيّة، فهذا الطفل الشاب يحمل العنفوان الذي كنت أراه في ولدي طَموح.

– إنّي أتحرّق شوقًا لزيارة مرقد خالي.

أمضت حُرِيّة الليل بكامله تخبر عن رحلتها الطويلة خارج الوطن، وكيف تحضّرت لشهادة الدكتوراه وكيف أتمتها بتميّز باهر. كذلك تحدثّت عن تميّز طَموح في مدرسته ما دفع حكومة تلك البلاد إلى أن تعرض منحهما الجنسية، وهذا ما رفضته رفضًا قاطعًا. لكنها ما أخبرتهم عن مرضها وعلاجها الطويل المضني، رغم أنّ والديها ألحّا في معرفة تعذّر زيارتها الوطن، وزادا في العتاب. لكنّها فضلت ألا تشغل بالهما وتضني تفكيرهما في ما قاسته من معاناة مع ذاك المرض.

في اليوم التالي، صحت الجدّة حنونة على صوت طَموح الشاب في المنزل يصرخ باكرًا:

– هيا إستيقظوا، هيا... فروح خالي في إنتظارنا... هيا إستيقظوا.

– ولكن يا طَموح ما زال الوقت باكرا فلم العجلة؟

– جدتي، إنني متحمس كثيرا لرؤية ذاك المكان الجميل، فهو في ذاكرتي صورة مشوّشة. كنت صغيرا جدا يوم رافقت والدتي إلى هناك، ورغم أني رأيت صورا لتلك البقعة الجميلة

sarkht damir inside.indd 49 24/04/2018 03:18:18

فوق تلّة البلدة، إلا أنني أشعر بالغرابة، كما لو أنها ستكون زيارتي الأولى. فالشغف يتملكني لأنظر إلى تلك الشجرة العملاقة وأجلس قرب مرقد خالي.

– إنّ في حماستك هذه تذكرني به... آهٍ يا حفيدي كم تشبهه، وكأن الزمان عاد بي للوراء سنين وسنين.

كانت علامات الاشتياق قد بدت على حنونة وأخذت تغرق في الذكريات...

– أرجوك يا جدتي لا تفرحي بي! لا تفرحي... لا أريد أن أرى دموعك. أنتم عائلة تبكون أكثر مما تأكلون أو تتكلمون.

ضحكت الجدّة لكلام حفيدها، وحضنته وقبّلته في جبينه:

– هيا إذهب وأيقظ خالك "متعصب" فقد عاد متأخرًا في الليل، وما أراد أن يوقظك أو يوقظ والدتك ليسلّم عليكما. فلا شكّ أنه مشتاق إليك. إذهب وأيقظه لأنه ينوي الذهاب معنا.

– حسنًا يا جدتي، سأوقظ الجميع. لا أريد أن نتأخر أبدا.

أيقظ أهل البيت كافة، وقد كان متفاجئا بخاله "متعصب"، الذي مازحه ولعب معه وشرح له كم كان مشتاقًا لرؤيته، وأنه سيرعاه حتى يكبر ليصبح رجلا يهابه الناس جميعا.

sarkht damir inside.indd 50 24/04/2018 03:18:18

ولدى جلوسهم إلى مائدة الفطور بعد لقاء حُريّة ومتعصب المؤثر قال طموح:

– أمّي، الحمد لله أننا لم نبق في تلك البلاد وحدنا، فأنا مسرور جدا لرؤية العائلة.

– تأكد يا بنيّ أنني ما كنت لأقبل أن تبقى بعيدا عمَن تحمل هويتهم وأصالتهم ودماءهم، لأنني أرى فيك امتداد عائلتنا، فمعك ستستمر مسيرتنا ولن تموت هويتنا، فتستثمرها وتنقلها بدورك إلى أولادك وأحفادك.

– وماذا عن أقاربي لجهة والدي يا أمّي؟

– بنيّ، كنت قد أخبرتك سابقا، وسأعيد كلامي للمرة الأخيرة، إنّ جديّك لجهة والدك، كان قد توفاهما الله قبل أن أتزوجه، وكان له أخ وأخت...أمّا أخته فقد تزوّجت وهاجرت مع عائلة زوجها إلى بلاد بعيدة ما عرفنا وجهتها... أمّا عمك فقد رحل منذ زمن بعيد عن هذه البلدة عندما مات والدك، وما علم أحد وجهته، وجلّ ما نعرفه أنه رحل نهائيا من دون رغبة في العودة، لأنه باع بيته وممتلكاته، وذكر للمقرّبين أنه لن يعود أبدا إلى بلدتنا.

– إذا لا أقارب لي سواكم يا أمي!؟

sarkht damir inside.indd 51 24/04/2018 03:18:18

- أولسنا قدر المقام يا أستاذ طَموح..!؟

- لا يا جدّي ما قصدت ذلك فإنني بينكم أشعر بفرح عظيم لا يضاهى، ولكنني أتبيّن هويتي، كما كانت تقول لي أمي دائما، إنّ مَن لا هويّة له... لا وجود له. فأنا أحاول أن أعرف هويتي.

- ما أشد ذكاءك يا فتى!

- إنّ والدتي حُريّة هي المحامية اللامعة والقاضية الفطنة يا خالي، هي السيّدة الناجحة التي تردّد اسمها على كلّ شفة، وأنا فلذتها.

- وهل لقنته كلّ تلك الكلمات يا شقيقتي...؟ عجبًا، لو أنني كنت مغمضًا العينين وسمعت ما قاله، لحسبتُ أنّ رجلا يحادثني.

- ألا يذكّرك بأحدهم؟

- أخاف أن أنكأ جراحكم وأزرع الحزن في نفوسكم.. إني أقسم أنّني شبّهته بخاله، لكنني بدلّت رأيي وما ذكرت ذلك حرصا على مشاعر الوالدين وخوفا من تأثرهما.

- لا تخف يا بنيّ، فما لاحظته أنت اليوم، كنَا قد لاحظناه أمس، ولا عجب، فحُريّة عاشت حياتها متأثرة بنضال طَموح وأفكاره، حتى أنها نذرت نفسها وخاطرت

بحياتها ومستقبلها حتى كشفت حقيقة قضيّة الغدر به، وليس غريبًا أن يمنحها الله ابنًا يشابه مَن يتخبط فؤادها بحبّه، ولا يرتاح عقلها من التفكير فيه.

– صدقت يا أمي... ومن الواضح أن الخالق حرمنا طَموح الشقيق ليعوّض علينا بطَموح الحفيد فهو يحمل صفاته ووعيه وفطنته وتميّز شخصيته.

– ومما لا شك فيه، أن عائلتنا لا تكتمل بلا طموحٍ يشعّ أملا بحياة فضلى. قال قاسي.

– والآن هيا بنا إلى زيارة الراحل في مثواه، هل أنت مستعد يا طَموح. قالت حُريّة.

– نعم، هيا بنا.

sarkht damir inside.indd 53 24/04/2018 03:18:18

sarkht damir inside.indd 54 24/04/2018 03:18:18

ذاكرةُ التراب

توجهّت العائلة إلى مرقد طَموح، حاملين الشموع والورود، وما إن وصلوا إلى تلك التلّة، حتى بانت عليهم تلك الشجرة العملاقة التي كبرت مع الزمن، وأصبحت علامة فارقة في تلك البقعة.

إقتربوا من مثوى طَموح، فركعت حُريّة إلى جانب مرقده، دامعة وصوتها يتملكه الشوق والحنين:

- لقد طال غيابي عنك يا غالي، أعذرني. لقد إشتقت إليك.

إقتربت حنونة من إبنتها وحضنتها ووضعت الورد:

- طَموح معنا يا ابنتي، ولم يفارقنا. هو يسمعنا، يحرسنا، ويوجهنا من علو سماء الخالق.

وقف الطفل طَموح متأثرا، فللمكان هيبة ورهبة. فها هو يزور خاله متأملا الشجرة الكبيرة وخطر لباله ألف سؤال وسؤال. أسئلة عن ماهية الحياة والموت، وجدوى العيش ما دامت النهاية محتمة. وكيف لبطل كخاله، كان قد سمع عنه الكثير، أن يلقى

sarkht damir inside.indd 55 24/04/2018 03:18:18

حتفه وتنتهي حياته. ولكن ما هي إلا لحظات حتى سمع والدته تناديه ليلقي الوردة فوق المثوى. فاقترب بخطوات هادئة متأملا من حوله... وما أن وضع وردته، أغمض عينيه وحملت نسمات الهواء حفيف أوراق الشجرة العملاقة وداعب وجهه وصار يتطاير شعره من فوق جبينه، فتنهّد:

- ما هذا؟... لا أصدق...

- ما بك يا بنيّ؟

- أميّ من أين يأتي الهواء والطقس هادئ مشمس؟

- نحن على قمة جبل يا طَموح، وفي ظلّ شجرة عملاقة كهذه، لا بدّ أن تتغلغل في المكان نسمات هواء عليل.

sarkht damir inside.indd 56 24/04/2018 03:18:19

– لكنني شعرت شعورا غريبا وكأنّها تغلغلت داخلي يا أمّي. أعجز عن الوصف والبوح.

– ذاك لما يحمله هذا المكان. ففي هذه البقعة تمامًا، تجتمع النوايا الصافية، ومحبّة أهل البلدة لخالك الراقد هاهنا.

– إنني فعلا أشعر بتلك الرهبة يا أمّي.. ولا أعلم إن كنت ستحسبينني مجنونا، ولكنني شعرت بأن خالي يناديني، ويتلمّس وجهي.

– تلك حقيقة تعرفها القوّة الخياليّة ولا يقبلها الوعي. فلشدّة تأثر الإنسان وتخبّط مشاعر شوقه وحنينه لشخص يحبه ويحترمه بصدق، لا بُدّ أن يفعل الخيال فعله ويحوّر كلّ مادة موجودة إلى أفكار تحاكي الحقّيقة في وعي الإنسان من أجل إشباع رغبة الشوق والحنين الكامنة في قلبه. إنّك تتخيّل مناداة خالك لك لأنّك تحبّه محبة صادقة.

– أمّي أريد أن أكون كما كان خالي طَموح، وأن أشبهه في كلّ شيء وليس في الاسم وحسب.

– إنّ ذلك الأمر رهنُ مشيئة الخالق. ولكن في حال أردت أن تكون ناجحا كما كان خالك، فما عليك إلا أن تكون إنسانًا صالحًا، وتسعى إلى نصرة الحقّ، وتبحث عن الحقّيقة ما بقيت، وألّا تساوم على أفكارك وقناعاتك، ولسوف يتسنّى لك أن تكون أفضل من خالك.

sarkht damir inside.indd 57 24/04/2018 03:18:19

– كيف يمكن للإنسان أن يُذكَر ويُقدّر ولو بعد وفاته؟ فها أنتم تزورون مرقد خالي، وتتذكرونه وتتحدّثون عنه دائما وهو ميت. فكيف ذلك؟

– لا يكون الموت برحيل الجسد يا طَموح.

– وكيف ذلك يا جدّي؟

– إنّ الموت الحقّيقي يكون عندما يحيا الإنسان غير مكترث لأمر الآخرين.

– وهل من واجب كلّ إنسان أن يكترث لهم؟

– وما قيمة الحياة يا طَموح، إنّ لم تكرّس مواهبك وطاقتك في خدمتهم؟ فمَن لم يكن فيه نفع لغيره ما كان فيه نفع لنفسه.

– لم أفهم!

– سأشرح لك وسأُسمعك كلامًا دوّنه خالك في وصيته وكنت قد ألقيته بعد رحيله:

"يغيّب الجسد في التراب مدفونا، والروح للأوفياء تبقى حنونة. ضجيج الوطنية يُعزَف حياةً ولحنَ حُريّة وإن كان الموت سكونًا..."

– هذا صعب يا أمي! إشرحي لي ما قلته.. لو سمحت.

sarkht damir inside.indd 58 24/04/2018 03:18:19

- بنيّ ما قصده أنّ موت الجسد لا يمثّل النهاية، فالروح تبقى إلى جانب مَن تحب. وفي الشقّ الآخر اعتبر أنّ مَن كان مواطنا صالحًا، عاش مخلّدا بأفكاره التي تعزف ألحان حُريّة ولو مات ودفن جسده. وقد اخترت لك هذا الكلام لأوضح لك وأزيدك علمًا ويقينًا. فقد كان خالك يسعى إلى الخير والصواب دائما مناصرًا الحقّ معتبرا أنّ ذاك النهج لا يمكن أن يموت في حال مات الجسد. وقد كان محقّا. والدليل ما تراه وتسمعه أنت الآن.

- ولكن ما فائدة عيش الأفكار الجيدّة، إن كان مصير صاحبها الموت؟

- وهل هنالك إنسان يخلّد يا طَموح؟ فكل الأنام إلى زوال، ولكن بفارق الزمن والطريقة وحسب. فخالك كان يفضّل دوما أن يحيا قناعات يقولها ويكتبها، وحتّى لو أنّه رحل باكرا، فإنه كان واثقا من خلود أفكاره وهذا ما حصل. وتذكر أيضا أن الثروة الحقّيقية التي قد يحصل عليها الإنسان، هي طيبُ الأثر الذي يتركه الإنسان بعد رحيله، فذاك طريق الخلود في عقول الناس يا طَموح، وتلك مكانةٌ لا يمكن أن تشتريها بالمال.

- ولكن ألا يجب الإنتقام ممَن غدروا بخالي يا أمي، حتى ولو خلّدت أفكاره ونهجه!؟

- بنيّ، إنّ الإنتقام ضعف في الإنسان وليس مكمن قوّة فيه.

sarkht damir inside.indd 59 24/04/2018 03:18:19

– وكيف ذلك؟

– مَن ينتقم يكن ضعيف الإيمان بخالقه، وإنّ الخالق ترك حُريّة الإنتقام للإنسان بهدف إختبار إرادته في درء الخطيئة عنه. فإذا انتقمنا بماذا نختلف عن القاتل وقتئذ!؟ يمكنك أن تحاول كشف الحقّيقة.. نعم، كما فعلت أنا في قضية خالك وكشفت القاتل وقد نال عقابه بالقانون. لكن ليس من واجبنا أبدا أن نقتل او نقتنص من حياة أي إنسان بحجة الإنتقام.

– وهل كان هذا رأي خالي؟

– هذا ما علّمنا إيّاه. سأخبرك أمرا مهما يا طَموح وللمرّة الأولى. أتعلم أن خالك يوم غدر به القاتل، وقع من سيارته، وكان نبض عروقه نبضًا خافتا، وقبل أن يسلم الروح، كتب بدمائه على الأرض عبارات مهمة.

– أتعنين أن المجرم ترك خالي حيًّا وهرب؟

– المجرم أطلق طلقاته الثلاث الغادرة، وما كان يعلم أن خالك ما لفظ أنفاسه الأخيرة بعد.

– إذا استطاع أن يفضح القاتل! أليس هذا ما حصل؟

– رغم أنّ خالك كان يملك الوقت الكافي ليكتب اسم قاتله، لكنّه فضّل ترك رسالة إنسانيّة، وما دوّن اسم من غدر به. وفي ذلك شهامة كبرى ورسالة حياتية عظيمة. فقد عَلِم أنّه، في

sarkht damir inside.indd 60 24/04/2018 03:18:19

حال دوّن الاسم، فلا بُدَّ أن تجهد العائلة للأخذ بالثأر، إلّا أنّه عندما صار الدم مداد حبر خطّ به رسالة أخيرة:

"ما عددت حياتي بأيامي بل حوار أوراقي وأقلامي... قـناعاتي كتبتها فعشتها حقيقةً تخطّت كلّ أحلامي..."

وكأنّه قال لا يهمنّي كم أحيا من سنين لكنّ الأهم أنني عشت عمري كاملا حرّا فتذكّروا واذكروا أنني عشت أطبّق ما كتبته وما قلته.

– ألم يكن يخاف الموت يا جدتي؟

– قطعًا لا. وسأقصّ عليك ما قاله لي، يوم دخلت أوقظه لآخر مرّة. تورّد خدّا الجدّة وقد همى الدمع فوقهما.

– أرجوك يا جدّتي لا تبكي، أخبريني ما قاله لك خالي يومها، كيف لم يخَفِ الموت؟

– أتذكّر بأنني أيقظته من كابوس، فنهض ليقول لي جملة لن أنساها: "أمّي، ما أجمل أن ينتهي كابوسي حين أسمع صوتك الحنون! أتمنّى لحظة عبوري إلى دنيا الفناء والسكون، أن أنام وصورة وجهك الملائكي ملء عينيّ والجفون".

ولم أدرك أنّها إشارة منه وأنّ تلك كانت ليلته الأخيرة في المنزل وسأوقظه للمرة الأخيرة من نومه. أتذكّر ذلك اليوم جيدا، شعرت بالخوف عليه كم هو صعب أن أخسره يا بنيّ. فهو من

sarkht damir inside.indd 61 24/04/2018 03:18:20

ردّد على مسامعي: "إسمعيني يا أمّي...كلّ ما في هذه الدنيا له بداية وله نهاية إلّا القادر القدير. فالموت علينا حقّ وأنا لا أخافه. هو عندي مجرّد فكرة لا أكثر، فروحي حظيت بأروع عائلة وأجمل بيت، فلماذا على الانسان الخوف والامتعاض من فكرة الرحيل"؟

- إنه فعلا شجاع!

- من ذا الذي قال اسمي؟

إلتفت الجميع إلى الخلف فرأوا "شجاع" ابن عم طَموح ورفيق عمره. فركضت حُريّة وعانقته عناق الأخت المشتاقة لأخيها. وأشارت إلى ابنها تعرفّه به وما إن رآه حتّى شعر بالغرابة..

- أكاد لا أصدق، كأنّني أرى طَموح أمامي... طفلٌ فطِنٌ ذكيّ الكلام. قد حملت اسم خالك، ولكن هل تحمل صفاته أيضا؟

- إنتظر لتراني أكبر أمامك، فأصبح كخالي تمامًا.

- تُشبهه في لهجتك الواثقة وعنفوانك الثائر... ما هذا يا فتى؟ قد أعدتني إلى أيام طفولتي بسرعة البرق. إنّك حقًّا نسخة منه.

- هذا ما لاحظناه جميعنا يا ابن عمي.

- إذًا، لم أكن وحدي مَن لاحظ ذلك يا "متعصب".

sarkht damir inside.indd 62 24/04/2018 03:18:20

– قطعا لا. وهذه نعمة الخالق علينا، فما حرمني من ولدي إلا ورزقني بحفيد يشبهه.

– إنتظري ليكبر يا أمّي، فكلما كبر زاد الشبه بينهما. وها قد بدأ يتأثّر به وهو في العاشرة من عمره.

مضى الوقت، والعائلة قرب الضريح تتناقش وتتحاور بصفات ذلك الراحل الخالد. إنتهت الزيارة وعادوا جميعًا إلى المنزل وكان الطفل طَموح مأخوذا بما شاهده وما سمعه، وقد ضجّت أسئلة كثيرة في رأسه.

وحين وصولهم إلى البيت، تهافت الأقارب من كلّ حدب وصوب، ليهنئوا حُريّة بعودتها سالمة، وليتعرفوا إلى طفلها طَموح. فحضر الخال "وفيّ" برفقة زوجته، وكان الجيران يفدون تباعًا.

تبادلوا الأحاديث في المسائل كلّها وأخذت حُريّة تقصّ عليهم أحداث غربتها، لكنّ الخال "وفيّ" كان قد أفصح عن عتابه وامتعاضه منها. ومتى رحل الضيوف سألته حُريّة:

– ما بك يا خالي، لِمَ تبدو منزعجًا؟ وهذا ما لا يمكنني تقبّله. كنت المفضّل لدى طَموح، ولا يمكننا أن نتغاضى عن أي أمر يزعجك.

– إذا سألتك هل ستجيبينني بصدق؟

sarkht damir inside.indd 63 24/04/2018 03:18:20

– الصدق حقّ، ونحن لا نحيا بلا حقّ. وهل نسيت أنني تتلمذت على فكر!؟ أرجوك لك ما تريده.

– لم رحلت عنّا مع ابنك الوحيد لخمس سنين من دون أدنى زيارة. فما عهدناك قاسية القلب.

– تجرحني بكلامك هذا.

– إنّك حُريّة حبيبتنا، أنت الزهرة التي فاح منها أريج الحقّ في عائلتنا. إنتصرنا بوجودك وبك... فكيف تحرميننا منك؟ وإن كنت لن توضحي سبب ابتعادك، فإننا قطعًا سنعتبر أنك لا تقيمي لنا أيّ قيمة.

– حاشى يا خالي، فالعين لا تعلو فوق الحاجب أبدا، وسؤالك واجب علي إظهار إجابته. أنا أؤمن بما علّمني إيّاه شقيقي "إنّ لا قيمة لأيّ امرئ ولا هوية له، بعيدا ممَّن يستمّد منهم أصالة وجوده". لهذا سأجيبك ولك قبل ذلك... يا "متعصّب" إنّك تريد أن تأخذ طَموح في زيارة ليتعرّف معالم البلدة.. فلا تخلف وعدك له والتزم بكلامك.

– حسنًا يا حُريّة فهمتك إلى اللقاء جميعكم. دمتم بخير. هيا أيها المشاغب الصغير.

– أمي، خالي، وجميعكم.. الآن سأخبركم سبب عزلتي عنكم وتأكّدوا أنني ما عانيت وقاسيت في هذه الدنيا أكثر من معاناة غربتي عنكم وما حصل معي. فعندما تسلمّت القضية

sarkht damir inside.indd 64 24/04/2018 03:18:20

وأعدت فتح الملف ودراسته، بدأت تتكشف أمامي الحقّائق، وراحت الشكوك تراودني حول زوجي "متعالي"، وصرت أشعر بآلام تنخر عظام جسدي كلّه. ما ارتحت في نومي يومًا، وقد حملت طفله في أحشائي، وهذا ما دفعني إلى الجنون ووددت لو انتحر في حال تأكّدت شكوكي. وكنت كلّما شعرت بالانهزام أعود لأتذكر طَموح ونضاله وصدقه وقضيته المحقّة، التي كنت أراها أسمى من حياتي وظروفي، فهو كان دائما إلى جانبي في أحلك الظروف.

– وما علاقة قضيّة طَموح وما قاسيته وقتها، بمسألة رحيلك عن الوطن؟

– ما أحاول قوله إنّني كنت أشعر بآلام غريبة تختال في جسدي الواهن، وكنت أعتقد أنّها مضاعفات قلّة النوم وكثرة التفكير في جوانب القضيّة المختلفة. لكن بعد انتهاء قضيتي وانتصار الحقّ وتبيان الحقّيقة، قرّرت أن أعرف سبب الألم الذي أشعر به.

– حسنا، وماذا فعلت يا حُريّة؟

– فعلت ما يفعله كلّ مريض يا أمي... ذهبت إلى المشتشفى وخضعت لصور وتحاليل طبيّة، وكانت نتيجتها مرّة كالعلقم فظهور ورم خبيث في صدري أنهكني وخضّ كياني. لكنّني أحمد الله فأنا اليوم بينكم معافاة. حين علمت بالنتيجة،

sarkht damir inside.indd 65 24/04/2018 03:18:20

كان طموح قد بلغ العامين، وكانت الأحداث أثقل من أن يحملها طفل وأنتم أدرى بـ"متعالي" وأثره. لهذا قررت أن أتواصل مع مركز خاص لرعاية من يعانون الأورام والأمراض الخبيثة خارج البلاد، وذاك لأسباب عدّة.

فلم يكن مرضي ما يعذبني ويقلقني، لكن أقلقتني ردّة فعل والديّ في حال عرفا الأمر، وخشيت أن أسبّب أزمة صحيّة لهما، كما أنّ هذا النوع من الأمراض لا يُضني صاحبه بل كلّ مَن هم حوله.

لهذا عقدت العزم على الرحيل، وبدأت التواصل مع مراكز ومستشفيات من مختلف البلدان، حتى وفِقّت بأحد أهمّها. فراسلتهم واتّفقت معهم، وأرسلت إليهم كل الأوراق المطلوبة، بالإضافة إلى أنني حاولت ألا أخسر الوقت في انتظار العلاج لهذا تسجلّت في إحدى الجامعات هناك حتّى وصلت بي الحال إلى ما أنا عليه اليوم.

- أيا ابنتي، قد عانيت كلّ ذلك وحدك. ولكن لماذا لم تخبرينا ولم تخبريني أنا أمك لأكون عضدًا لك في محنتك؟

- أرجوك لا تبكي، فما تحملّت مرارة الغربة إلّا لكي أصونك من مآسي الحزن. لهذا، قرّرت أن أرحل من دون أن أخبر أحدًا عن سبب رحيلي الحقّيقي. فمن جهة سأتعالج من مرضي، ومن جهة أخرى سأربّي ولدي حتى يشتدّ عوده بعيدًا

sarkht damir inside.indd 66 24/04/2018 03:18:20

من ضغوطات المجتمع وانعكاسات ماضي والده عليه. فربّ ضارة كانت نافعة يا خالي "وفيّ". أليس كذلك؟

- أعتذر يا حُريّة لسوء ظنّي بك... أعذريني يا غالية.

- لا داعي للاعتذار يا خالي، فما سألتني إلا لحرصك عليّ.

- ولكن يا ابنتي، أما خشيت أن يصيبك أمر فتتركي ولدك خارج البلاد وحده؟

- لا يا والدي، وهل يعقل أن أغفل عن هذا الأمر، فذاك أمر تحضّرت له جيدا. كنت قد أعطيت شجاع عنواني الكامل هناك، وأمّنت له تأشيرة زيارة دائمة، أضف إلى أن صديقتي وزميلتي في الجامعة، كانت قد استقرّت هناك بعد أن تزوّجت، وهي دائمة الحضور معنا وبيننا، فطَموح كان مصونًا محميًّا في حضوري وفي غيابي.

- آه يا ابنتي قلبي يحترق حزنا، كم قاسيت في كل ذلك وحدك.

- لم أكن وحدي يا أمي... فطَموح شقيقي لم يتركني، فطيف روحه وأفكاره وكلامه لم تغب عنّي ففي آخر عبارة أملاها على مسامعي قال: "ستبقى الأمور بخير ما دمت أعلم أنّك سليمة معافاة. إهتمّي بالوالدين.. أحبك يا أختاه وأشكر

sarkht damir inside.indd 67 24/04/2018 03:18:20

الله على وجودك". كنت أتذكر هذه العبارة دومًا، وأشعر بأنّه يجب عليّ أن أقاوم مرضي كيلا أخذله. حملت مسؤولية ولدي، فواجب عليّ تربيته والإهتمام به وهذا كان دافعا رئيسًا كي أقاوم واناضل في سبيل معافاتي.

- وهل شفيتِ تمامًا!؟

- نعم يا زوجة خالي، لقد خضعت لعملية فاستأصلت ثدييّ. وهذه مشيئة خالقي، فما عليّ إلا الرضى والتسليم. فكما ذكرت لكم آنفا، ما قدّر القادر أمرًا لنا إلا وكان فيه خيرنا ومصلحتنا، حتى المرض هو اختبار العزيمة والإرادة والثبات على الإيمان.

- وهل تأقلمت مع وضعك الحاليّ؟

- ولم هذه الأسئلة يا امرأة؟ أسكتي.

- لا تسكتها يا خالي، دعها تسأل، فما سألت إلا لهاجسها ولحرصها عليّ... فيا زوجة خالي سأشرح لك كيف رأيت في مرضي خيرًا قدّره لي خالقي. إنّ الإنسان في طبيعته مأخوذ في حياته الدنيا، بالتالي ترينه في معظم الأحيان ينسى أو يتناسى خالقه، أو حتى نِعمه عليه وأولها عافية بدنه، فهو يراها أمرًا عاديًا. أمّا أنا فقد أتاني المرض رغم أنني لم أكن بعيدة عن ذكر خالقي وإيماني بقدرته، وذاك أمر ترعرعنا وربينا عليه. إلّا أنني أدركت وجود خالقي وعظمته في أحلك الظروف. أدركت كم كنت بعيدة عن

sarkht damir inside.indd 68 24/04/2018 03:18:20

فهم نِعمه... لأنّني أمضيت حياتي قبل المرض، أصحو من النوم من دون أن أقول كلمة حمد واحدة على وهبه لي يوما جديدا، كي أحياه بين أهلي في وطني. ولأنني كنت أتمتع بالقوة لأدرس وقد منحني وعيا كافيا طيلة حياتي. فهو منحني القوّة لأقود سيارتي ولأترافع وأدافع عن المظلومين. ومنحني حواسّ كاملة من دون أي نقصان، فتلك نعمٌ نتعوّدها، ونتناسى مع الوقت أنها لا تقدر بثمن.

فهكذا صبرت على أوجاعي، وما وجدت في مرضي إلّا إمتحانا لرسوخ إيماني به. فنفسي ما اشتريتها ولا استعرتها، بل الخالق هو خالقها، فكيف أدّعي امتلاكها وأخشى فقدانها وأنا لا سلطان لي عليها.

- يا إلهي يا حُريّة، أشعر بالخجل أمام عظمة كلامك.

- إنها مجرّد كلمات صادقة، لا قيمة لها لو لم تكن تخدم غاية واحدة، وهي تصالح النفس البشرية التي نحملها في أجسادنا الفانية مع عظمة مكوّن الأكوان وقدسيّة مشيئته. ولأجل كلّ ما سبق وذكرته لك، إنّي لأرى في مرضي، خيرا لي لا سوءًا. وتلك محنة أو تجربة مريرة صعبة، عسى أن يبعدها القادر العليّ عنكم يا أهلي جميعا. لكنّ الإنسان، أيّ إنسان منّا، لو أنّه يضع نصب عينيه، مسألة هشاشة وجوده الماديّ الفاني، لما تعلّق بأي أمر زمنّي، وما تناسى نِعَم العليم العليّ عليه مهما كانت صغيرة. فما حصل لجسدي إنني لأراه إضافة جماليّة قيّمة.. فتلك بينّة على

sarkht damir inside.indd 69 24/04/2018 03:18:20

مقاومتي لداء مميت، ودليل واضح على محبّة خالقي لي ومنحي مساحة من العمر تطول كي أستطيع أن أربيّ ولدي وأنعم برؤيتكم مرة جديدة يا أحبائي، وإنّ للخالق في خلقه شؤونًا.

- حُريّة... أخجلت عنفواني، فلا اعتذار ولا أعذار تفيك حقّك، فكلماتنا تقف حائرة عاجزة أمام عصاميتك وجرأتك وإيمانك وأخلاقك. أنت كنز في عائلتنا وشمعة ذابت في سبيل إضاءة دروب الآخرين.

- لا حاجة للإعتذار يا خالي، فإستفهامك محق، ومن حقك أن تتقصّى عن سبب غربتي. وبما أنني قد تخطيّت هذه الأزمة متعافية بعون الخالق، فقد أصبح البحث فيها مجرّد نقاش.

- يا إبنتي، هل تقبلين إعتذاري؟

- ولم الاعتذار يا أبي؟

- يا ابنتي، يوم ولدتِ شعرتُ بالحزن، لأنني ذكوريّ الفكر والاعتقاد، فرغم إحترامي المرأة بشكل عام، إلا أنني ما كنت لأؤمن بوعي النساء ولم أثق بقدراتهنّ. لهذا لم أنصفك من بين إخوتك، فقد كنت قاسيا معك وعليك طيلة حياتك. حتى بعد رحيل شقيقك طَموح، ما كنت لأعتقد بأنك ستنجحين وتواجهين وتبرعين، فذاك موقف كان فيه نقص مني وضعف في وعيي أنا... حتى أنك واجهت زوجك في قوس المحكمة، وأدنته... فاللواتي يقدرنَ على تخطي عواطفهنّ من أجل نصرة

sarkht damir inside.indd 70 24/04/2018 03:18:21

الحقّ قليلات، وأعتقد أن قلّة من الرجال تقدر على صنع ما صنعته. وقد أتاكِ هذا المرض الخبيث لتنتصري عليه، والمفارقة أنك كنت وحدك بلا مساعدة، وها أنت تفوّقت في دراساتك العليا ونلت شهادتك وأتقنت تربية ولدك.. آه، كم أفتخر بك... ما أعظمك ابنة!

- والدي العزيز، إن كنت قد قسوت علينا، إلا أننا لا ننكر تربيتك لنا على القيم والمبادئ، ولا ننسى إصرارك على تعليمنا، وخوفك علينا وتأمين مستلزماتنا. فقد كنت نعم الأب... ولا وجود لإنسان كامل في هذه الدنيا، فلكلّ منّا عيوبه كذلك مميزاته. وأنت كنت نعم الوالد.

إقتربت حُريّة وحضنت والدها وألقت برأسها على صدره، لتخبره كم تحبه وتحترمه. ومضى الوقت وحلّ الليل والعائلة مجتمعة بوجود الخال وفيّ وزوجته في حضرة شجاع بعد عودة متعصب وطَموح إلى البيت.

sarkht damir inside.indd 71 24/04/2018 03:18:21

خبرٌ من الماضي

في اليوم التالي، صحت حُريّة لتجد والديها في انتظارها على الفطور، بحضور طَموح الذي كان يخبرهم متحمسا عن الوقت الذي أمضاه أمس في البلدة مع خاله. ألقت السلام عليهم، قبلت جبين والديها ووجنة طفلها، وجلست إلى المائدة، فسألتها أمّها:

- ما خطتك لهذا اليوم ؟

- سأزور الجيران والأقارب وبعض الأصدقاء الذين انقطعت عنهم فترة طويلة، فقد إشتقت كثيرا إلى جميلة، إشتقت لمجالستها وتبادل الأحاديث معها عن شقيقي الراحل، ولا شكّ أن كثرًا من الأصدقاء قد حاولوا التواصل معي وما تمكّنوا أو أنهم قد أتوا للبيت بحثا عني فما وجدوني.

- يا ابنتي، الآن تذكرت... هنالك مَن سأل عنك.

- شخص واحد! توقعت أن يسأل عني كثيرون. من الواضح أنّ الناس وقعت في تيهٍ عن الحُريّة.

- أبدًا، فقد صدقت في ما قلت، كثر كانوا قد سألوا عنك، لكن الآنسة التي أقصدها، لم تكن إحدى الصديقات،

sarkht damir inside.indd 73 24/04/2018 03:18:21

وقد كانت جدّ مهتمّة بلقائك والحديث معك، وقد زارتنا مرارا وتكرارا، حتى حاولت أن تطلب رقم هاتفك ولكن ما أعطيتها إياه نزولا عند رغبتك، كما أوصيتني.

- ومَن تلك الآنسة؟ ولِمَ تريد مقابلتي؟ هل علمت اسمها؟

- اسمها ضَمير..

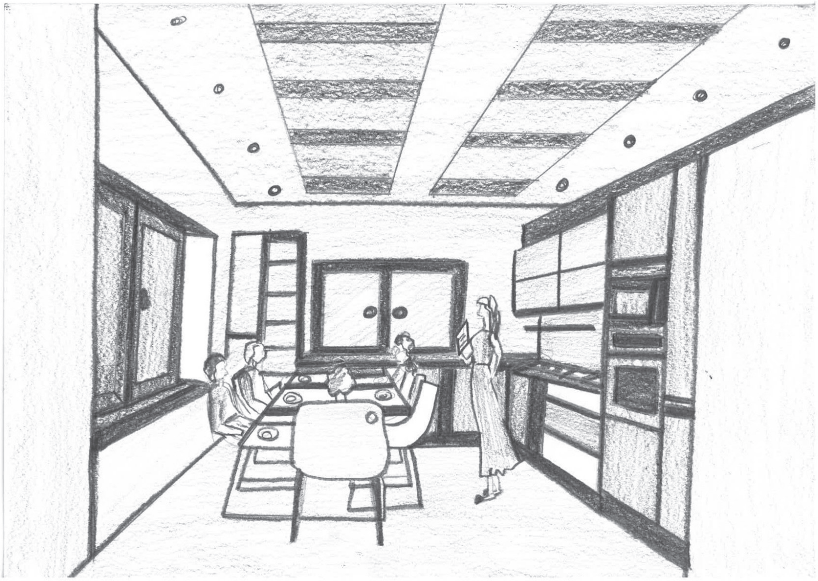

وما إن ذكرت حنونة هذا الاسم المميز، تخطّفت أمام عينيها مشاهد ولحظات من الذاكرة عادت بها إلى زيارتها الأخيرة

sarkht damir inside.indd 74 24/04/2018 03:18:21

ضريح طَموح بعد إنتصار قضيته وتبيان حقيقة غدره، فوقفت على الشرفة متأملة في الأفق، وكأنّ صوتًا صارخا من وعي عقلها وقع صداه في قلبها، ينذرها بأمر مهم. وتابعت الأمّ كلامها:

- نعم، ورافقها رجل اسمه "موثوق"، وعندما سألتها عن غايتها لم تجب أو توضح. إنّما طلبت منّي أن أبلغك جملة واحدة

- هيّا أخبريني.. يتملكني الفضول!

- "لا نفع في حُريّة لا تنصرُ الضَمير في خدمة الطّموح".

وقفت حُريّة غاضبة معاتبة والدتها لإخفائها زمنًا طويلًا مسألة ضَمير تلك، وفطنت حُريّة لتلك الشابة جيدًا، وتذكّرت أن هذه الأخيرة كانت قدّمت لها ظرفا فيه رسالة قبل سنين قرب مرقد شقيقها، وتذكّر أنها قرأتها ولم تعرها أيّ اهتمام، كما أنّ الرسالة التي نقلتها لها والدتها أشعلت نار العزّة في نفسها، وذهبت مسرعة إلى مكتبها فحصلت على رسالة ضَمير التي كانت قد سلمتها إليها ذاك النهار. وقبل فتح الرسالة تذكّرت الحوار الذي دار بينهما يوم خجلت بَراثن الأقدار من أن تنشب في إرادة حُريّة التواقة إلى الحقّيقة. ذاك النهار سألت حُريّة تلك المرأة الغريبة التي حملت إليها مظروفا مغلقا:

- هل يُمكن أن أتشرف بمعرفتك؟!

sarkht damir inside.indd 75 24/04/2018 03:18:21

- اسمي ضَمير.

- هي حروف في اسمك، تتعانق لترسم لوحة وجودية، لوحة تاه بعض البشر عن صدق مضمونها، لوحة افتقر بعضهم حقيقة جوهرها... هو اسمٌ يتوّجه العزّ ليُلبس الإنسانية ثوبها الموشّى فهنيئا لك باسمك. كيف لي أن أخدمك يا سيدتي؟

- قد سمعت حكاية شقيقك الطَّموح وتابعت عن كثب قضيتك الحرّة. وأنا هنا اليوم لأسلّمك أمانة حتّى يتحقّق اسمي مع ثنايا إسمك في كنف طيف شقيقك.

- وكيف للاسمين أن يتحققا سويًّا!؟

- وهل هنالك أفضل من أن يحيا الضَمير في حُريّة، أو أن تتجسّد الحُريّة في ضَمير؟!

- ما أرقى هذه الكلمات! لكنّك ذكرت شيئًا عن أمانةٍ ما، فما هي؟!

- هي طلب وليست أمرًا، هي أمانة جريئة. هي في صالح الخير ولكن قد يتأتّى منها بعض الشرّ.

- أوضحي قصدك، فقد زدتني قلقًا...

- لا داعي للقلق، ولا داعي لأن أشرح، فهذا الظرف، منّي لك. إفتحيه واقرئيه، وتمعّني في مضمونه... فكّري، ثمّ

sarkht damir inside.indd 76 24/04/2018 03:18:22

قرّري، ومتى حسمت خيارك بالقبول فلا بد أن تعرف الحُريّة طريقها إلى الضَمير... والآن الى اللقاء.

تذكرّت حُريّة ذاك النقاش كاملًا تمامًا وكأنه حصل البارحة، وتذكّرت تلك الآنسة الغامضة حين لمع في عينيها بريق الشجاعة... فلم يسبق لحُريّة أن رأت مثله. وتذكّرت ذاك المغلف، الذي قرأت فيه رسالة صغيرة لم تعرها أيّ انتباه حينها، مقتنعة أن لا قيمة لها. لأنّها كانت مأخوذة في التحضير للسفر من أجل المعالجة، فصراعها مع المرض قد صار مُسيّرًا حياتها، كذلك مسألة تربية ولدها ومتابعة دراساتها العليا، لهذا لم تجد في رسالة ضَمير الأمر المهم.

وبعد حين عادت لتفتح المغلف مرّة جديدة حتّى تقرأ مضمون الرسالة للمرّة الثانية:

"يولد الإنسان مقيّدًا لا حرَا، ومع الوقت يولد في وعيه الطموح، وفي الطموح يكمن إكسير الحياة. أمّا حياة الإنسان فإلى زوال، ولكن ماذا عن الطموح؟ فهل يموت بموتِ حامله، في حال كان هذا الأخير يحمل ضَميره بحُريّة؟! إنها ليست أحجيّة، بل بادرة خلاص النفوس الحرّة، ولنصرة الحقّ وإحياء فكرة الطموح المُحقّ. برأيّي يا حُريّة أنّ شقيقك لم يمت، بل خالد خلود الحقّيقة في العقول الواعية... فماذا لو أتيحت لك فرصة للمساهمة في تخليد أثر

sarkht damir inside.indd 77 24/04/2018 03:18:22

شقيقك للأجيال؟ فماذا ستفعلين؟سأعاود التواصل معك قريبا. فكّري ثمّ قرّري".

قرأت حُريّة الرسالة مرات عدّة، وأعادت التمعّن فيها وبمعانيها، محاولة إدراك مغزى كاتبتها.. فقد كانت الكلمات تلك، كفيلة أن تُشعل في قلب حُريّة لهيبا ونارا، وذلك لشدّة شوقها وحنينها لشقيقها من ناحية، ولشعورها بالتقصير جرّاء إهمال رسالة ضَمير وابتعادها عن الوطن لسنين. وهذا ما لا يمكن لها أن تقبله البتّة. فكيف لضَمير أن تشكك في قدرة حُريّة وإرادتها وهي الساعية دومًا إلى تحقيق المستحيل...؟ فقد خاطرت وضحّت بحياتها الزوجيّة وتحدّت وواجهت وحيدة أخطارا جمّة، في سبيل تبيان العدالة وجلاء الحقّيقة في ما يخصّ قضية شقيقها المغدور... فعن أيّ فرصة تراها تتحدث الآنسة "ضَمير"؟!

قررت حُريّة الوصول إليها مهما كلّف الأمر، فعمدت ومنذ صباح اليوم التالي إلى البحث عنها، وخاصة أنّها لم تترك لها رقم هاتف أو عنوانًا في رسالتها أو مع والدتها، وهذا ما أربكها.

خطرت لها فكرة التواصل وصديقها القديم المحقّق "إلتزام"، لتبلغه عن عودتها فتطمئن إليه كذلك، وهو صديق أخيها ومن له الدور الأبرز في كشف حقيقة الاغتيال. اتّصلت بمركز عمله القديم حتى تسأل عنه، فأبلغوها أنّه تبوّأ منصب

sarkht damir inside.indd 78 24/04/2018 03:18:22

قائد القوات الأمنيّة. فسُرَّت جدًا لما سمعته، واستطاعت أن تتحصل على رقم مكتبه الجديد في مركز القيادة فتواصلت معهم. وما هي إلا دقائق حتى رنّ هاتف حُريّة الخاص من رقم محجوب، فعلمت أنّه "إلتزام":

– مبارك منصبك الجديد حضرة القائد العام.

– ونحن نبارك بدورنا للبلاد، بعودة النائب العام، القاضية الفذّة نصيرة الحقّ والحقّيقة من غربتها الطويلة.

– ولكنني ما عدت نائبا عاما ولا... أنا الآن مواطنة عاطلة عن العمل.

– وهل من يعمل في مضمار العدالة والخير يكُون عاطلا عن العمل يا حُريّة؟ فهل ينتهي العمل في سبيل بلوغ الخير وإحقاق العدالة؟!

– قطعا لا.

– إذا العمل ينتظر عودتك إلينا بفارغ الصبر.

– دُمت خلوقًا ومواطنًا أصيلًا ناجحًا كما عهدتك يا صديقي، أنت أيها الأمين المحترم. قد سُررت جدا لما سمعته عن الترقية التي نلتها في عملك. فمبارك لك ما صَنعته بكفاءتك.

– شكرا لك. فوعيُّ أمثالك هو الزاد الذي يقتات منه فرسان الحقّ في بلادنا.

sarkht damir inside.indd 79 24/04/2018 03:18:22

- لا بُدّ لي من زيارتك في أقرب وقت حضرة القائد، فلدينا الكثير لنتباحث فيه.

- طبعا، وأنا أتوق لأسمع منك أخبارك وسبب غربتك الطويلةِ عنّا.

- هي حكايةُ كفاحٍ طويلةٍ سأقُصُّها لك حين نجتمع. ولكنني أقصدك في طلب لعلّك تساعدني!

- لك ما ترغبين فيه!

- قبل سفري، وفي أثناء زيارتنا مَرقد شقيقي بعد فترة من جلاء ملابسات قضيته، صادفت شابة قدّمت لي ظرفًا فيه رسالة تتعلّق بشقيقي ومسألة علينا إتمامها. وقد زارتني تلك الآنسة في منزلي في غيابي مرّات عدّة للتحدّث معي.. وما وجدتني. والغريب أنها لم تترك لها أثرًا أو عنوانًا كي أكلّمها... قد زادت فضولي وأنهكتني.

- ومَا اسم تلك الآنسة؟!

- "ضَمير"... لكنّي لا أملك تفاصيل عنها. فجُلّ ما في يدي رسالة كتبتها بخطّ يدها قالت فيها أمورا عن إرتباط الحُريّة بالطموح من خلال إنتصار الضَمير، ولمّحت إلى أنه فيها تكمن مسؤوليتي لناحية إحياء أفكار شقيقي. فهي تقول إنّها مقتنعة بأنّ شقيقي لم يمُتْ بموت جسده.

sarkht damir inside.indd 80 24/04/2018 03:18:22

- إذا فقد زارتك ضَمير...

- حضرة القائد... هل تعرفها؟

- قبل أن أجيبك، أريدك أن تتوقفي عن منادتي "قائد"، فنحن صديقان ولا ألقاب تفصل بيننا، فتلك ليست إلا مجرّد رتبٍ تزول بزوال الوظيفة، أمّا الألقاب الحقّيقيّة فهي تلك المرتبطة بهويتنا الإنسانية الصادقة التي نحملها تجاه بعضِنا البعض.

- عهدتك أصيلًا، وأعلم أنّك ما بدلّت في أصالتك وإنسانيتك. فمَن زاد في تواضعه ترفّع في منزلته بين الناس وأمام ربّ الأنام أجمعين. ولكن أحسبك تعرفها... أمخطئة في ظنّي؟

- لا... حدسك صحيح... سمعت بها وقابلتها وحقّقت معها أيضًا كما أنّني أوقفتها مرارًا على ذمّة التحقيق.

- أهي مجرمة!؟

- أبدًا! لكن من الصائب قولنا إنّها متحمسة ومندفعة إلى حدّ الطيش. فنحن وصلتنا تقارير استخباراتية عديدة عنها، خاصة بعد مشاركتها في مظاهرات عامة عديدة، معظمها لم تعطه الحكومة ترخيصًا رسميًّا... وقد أكدت التقارير أنّها تحثّ

sarkht damir inside.indd 81 24/04/2018 03:18:22

الناس على تغيير النظام السياسيّ في البلاد، كما تحضّر أفلاما قصيرة وتكتب مقالات مناهضة للسلطة ما يشكل خطرًا على أمن البلاد واستقرارها.

– وهل تنتمي بدورها إلى أيّ حزب أو تجمع سياسيّ معارض للسلطة؟

– البتّة... هي ناشطة من صلب المجتمع المدني وحسب.

– وهل ثبتت عليها إحدى التّهم؟

– لم يظهر لنا أي تحريض على العنف ولا أيّ مخالفة للقانون، ولكن خطاباتها ومقالاتها تحضّ فيهم الشعب على الثورة في سبيل نيل أفضل حقوقهم عبر إقامة تظاهرات سلميّة. ولكن في أغلب الأحيان تستفيد طوابير الشرّ من هذه التحركات لتنشر الرعب والأذى بين المواطنين، فنعجز عن التفريق بين الصالح والطالح أثناء تحركاتهم، ما يدعونا إلى كيل الجميع بمكيال واحد وازن لصعوبة التمييز بين الأخيار والأشرار.

– أتبيّن أنّها إمرأة متحرّرة مواطنة وليست مجرمة خطيرة، فحتّى لو أنّ وسائلها المعتمدة ستجلب بعض الانعكاسات السلبية في الواقع، وهذا طبعا غير مقبول ما دام بالإمكان تفاديه، فهي ولا شك من نُخب مجتمعنا.

sarkht damir inside.indd 82 24/04/2018 03:18:22

– نعم صدقتِ، وهذا هو رأيي تماما بها، لهذا كنت دائما أتعاطف معها.

– ما هو مجال عملها؟

– درست الإعلام وتخرجت متفوقة من جامعتها خارج البلاد، وعادت لتبدأ حياتها المهنيّة كصحافية وهي اليوم مخرجةُ أفلامٍ قصيرة أيضًا، ومعظم أعمالها تحثّ على الثورة والتحرّر.

– يا صديقي العزيز، أرغب في الحصول على رقم هاتفها؟

– بالطبع يا حُريّة لكن أرجوك توخيّ الحذر معها، فنحن لم نتبيّن حقيقة غاياتها كافة، ولا نعلم كلّ شيء عنها.

– لا تخف، حدسي ينبئني بأنّ أيامًا صعبة تلوح في الأفق.

– هذا ما كنت أخشاه، فحُريّة وحدها قلبت الأقدار وقلّمت بَراثِن الغدر التي تنشُب فيها، فماذا لو اجتمعت مع ضَمير! فلنكن في رعاية الخالق مما سيتأتى علينا من هاتين القوّتين الأنثويتين!

sarkht damir inside.indd 83 24/04/2018 03:18:22

sarkht damir inside.indd 84 24/04/2018 03:18:22

لقاءٌ منتظر

فضلّت حُريّة الذهاب لزيارة ضَمير في منزلها، فهي تريد أن تتبيّن حقيقتها وغايتها وسماع مبتغاها.

ولكن قبل تلك الزيارة، قرّرت حُريّة مزاولة المحاماة وهي الأحبّ إلى قلبها فعاودت فتح مكتبها ثمّ ذهبت للقاء ضَمير يرافقها إبن عمّها شجاع. وبعد مسير طويل نحو مدينة تبعد ساعتين من بلدتهما، وصلا إلى العنوان المنشود.

هو بيت قديم، تحيطه الأشجار من كلّ حدبٍ وصوب، من طابقٍ واحد وفوق سقفه قرميدٌ عتيق، وأمامه حديقة صغيرة يتوسّطها كرسيّ رجل كهل راح يرتشف القهوة وحيدًا.

sarkht damir inside.indd 85 24/04/2018 03:18:23

إقتربت حُريّة منه، وألقت عليه التحيّة فالتفت ذاك الرجل وقال بصوت خافت:

- أعشق الأرض، وأحترم الطبيعة، وأحيا الحقّيقة التي أراها في وجوه الناس. ثمّ رفع رأسه ولم ينظر إلى ضيفيه وأبقى عينيه شاخصتين نحو الأرض... إستغرب شجاع ردّة فعله وهمس لحُريّة:

- ماذا الذي أصاب هذا الرجل؟ أهو مجنون؟ قد ألقينا عليه التحية وما ردّ علينا بمثلها.

- وهل تعتقد أيها الضيّف الكريم أنّ الجنون علّة؟ قد سمعتك حقًّا...وإنّ مَن يُصغي إلى ترددات موسيقى الكون فلا بُدّ أن تصادق الريح مسامعه، ويصغي قلبه ويسعى عقله خلف الهمسات الإنسيّة الكائنة في ذبذبات الترددات الصوتيّة الزمانيّة.

- والله ما فهمت شيئًا، هل كنت تحادثنا؟ حقًّا، لا أعرف ما نفع زيارتنا يا ابنة عمي.

- شجاع لا تتسّرع في الأحكام دائما! ولا تحكم مسبقًا على رجل إلتقيته الآن... لا شكّ أن في كلامه حكمة وإلّا لما نطق. فعلى عكسك تمامًا، إنّي قد إستشففت في كلماته غموضًا

sarkht damir inside.indd 86 24/04/2018 03:18:23

يختزن حكمة. فمَا خلق الخالق للإنسان أثمن الأشياء إلّا وقد جعلها مخفيّة عنه وصعبة المنال. أعذر تطفلنا يا عمّ، فقد أتينا بلا موعد مسبق وأقلقنا سكون جلستك وسلامها. واعذر ابن عمّي، فما كان قاصدًا الإهانة. أنا حُريّة وهذا ابن عمّي شجاع.

– كلام فيه من الصدق عذوبة.... فأهلا وسهلا بكل نفس صادقة. أهلا بك يا مَن حملت في الاسم حدودًا لا تنتهي. أهلا بك يا حُريّة وبمَن رافقك في منزلٍ لست بمالكه إنّما شاءت الأيّام أن أسكن فيه.. اسمي "متنوّر"، كيف أخدمك؟

– إن لم تكن صاحب البيت يا عمّ متنوّر، فمن يستضيفنا؟

– إنكما ضيفًا مَن يستضيفني..

– ومَن المستضيفُ؟ ما به هذا الرجل؟ ألا يكفينا يا حُريّة فيلسوف واحد حتّى يُزاد شقاؤنا في فلسفة إضافية؟

– قد سمعتك للمرّة الثانية، فدعك من الهمس وتحدّث علانيّة بحقيقةٍ ما يخالج عقلك. وكنّ صريحًا دومًا، فالصراحة تجلب الراحة. كما إنّ المعرفة ليست فلسفة، والفلسفة ليست حقائق ثابتة، وجلّ ما نَبتغيه كبشر باحثين عن الحقّيقة هو طرح الجدليّات والإشكاليّات لنقترب من الحقّ المطلق يا بنيّ، ولن تأتنا معرفة المطلق أبدًا إن دمنا في هذا العالم الماديّ مدنّسين.

sarkht damir inside.indd 87 24/04/2018 03:18:23

- أقسم بأنني جَنيْتُ على نفسي بهذه الزيارة، أشعر بالدوار!

وسارعت حُريّة إلى التدخّل وفي صوتها أناقة كلاميّة..

- أيا عمُّ نحن غير قادرين على مجارة كلامك فهو يصعب علينا وما جئنا هذه الدار لإزعاجك. لكنّنا نسألك أن تمنحنا بعض الوقت في ضيافتك لعلنا ننهل من معين حكمتك.

- لستما في ضيافتي، فنحن سويا في ضيافة مالك هذا البيت.

- عرّفنا بمالك هذا البيت لنشكر له حسن ضيافته!

- الآن فهمت وأدركت ما تسعى إليه.. فسبحانه قادنا إلى معرفتك، وهو القادر على كلّ حركة وسكون.

- أنت شابة امرأة مدركة وواعيةٌ. والآن أرحّب بكما.. تفضّلا.

وقف متنوّر وأشار إليهما بالجلوس إلى جانبه في الحديقة.

ولم كلّ هذه الفلسفة في الترحيب؟ يمكنه أن يجيبنا بكلمات قليلة نفهمها فنطبقها... فلم العناء؟

- يا بني لا تتسرّع في حياتك فالكون أسرع. تمهّل في تفكيرك وقولك ثمّ فعلك. تأنَّ، ففي التأنّي سلامة. لا تتعجّل

sarkht damir inside.indd 88 24/04/2018 03:18:23

الأحكام، فالعجلة تخدم الشيطان. أنظر، راقب، حلل، فسّر، أحكم، فتكلم ثمّ إفعل. وإلّا ستقود نفسك إلى الهاوية لا محالة.

- يا عمّ تُخجلني حكمتك وفلسفتك. إنّي أشعر بأنني أمام رجل استثنائي.

- وما الإستثناء إلّا لله القدير على كلّ شيء يا ابنتي، أما نحن فلسنا سوى كائنات ناطقة لا تتخطى كونها نطفة لا تضاهي عظمة الكون وشمولية علومه وخباياه. ومهما علِمنا نبقى جاهلين بالحقّيقة التامّة التي لم ولن نعرفها في زماننا الفانيّ أبدا.

- يا إلهي، لا أصدق. أظنّ أنني أسمع أفكار شقيقي الراحل طَموح.

- طَموح؟

- نعم.. أتعرفه؟

- وهل تتنكّر الشجرة لثمارها!؟ قد كان تلميذي في الجامعة لثلاث سنوات متتالية.

- آه إنّه أنت. أنت معلمنا متنوّر الذي درسنا في صفه أنا وابن عمي. قد مرّ زمن طويل وقد تغيرت كثيرا... كيف لم أعرفك منذ البداية؟

– قد مرّ زمن طويل ولم تتغير أنت أيضًا يا شجاع. قد عرفتك من صوتك من دون النظر إليك، وتأكّدت هُويتك لسماعي أسلوب كلامك. ولكنّ الغريب أنّني شككت في علاقة قربى تجمع حُريّة بطَموح وقد أصبت، ذاك ليس لأنها ترافقك.. بل لما تحمله في نفسها من هدوء ورزانة وثبات قولا وفعلًا.

– شكرا لشهادتك الراقية! أثرت دهشتي.

– لا تتفاجئي يا حُريّة، فما أراده الله بمشيئته ما بدّل فيه إنسان أيَّ تبديل. فلقائي بك ليس مصادفة بل قدرًا محتومًا سنحقّقه ونفهمه بعد أن يحين أوانه.

– ولكن أين كنت طيلة هذا الوقت يا معلّم؟ فما سمعنا عنك شيئا منذ تركنا الجامعة. كما أذكر أن ابن عميّ طَموح حاول أن يلقاك ويطمئن إليك، فلم يجدك، حتى الجامعة لم تعرف لك سبيلا بعد أن رحلت عنها.

– لقد هاجرت بعد تخرجّكم إلى بلاد بعيدة، حتى أنني علمت بمأساة الغدر في أثناء سفري، وأصبت بخيبة أملٍ كبيرة، لأنّني رأيت في طموح أملًا بتحقيق مستقبل واعد للوطن وشعبه. ومنذ ستّ أو سبع سنوات تقريبا، عدت وحفيدتي لنستقرّ في وطننا، فقد أبت أن تتركني وحدي. تخلّت عن حياتها بين أهلها وأصدقائها وقرّرت أن تعود معي وتهتمّ بي بعد وفاة

sarkht damir inside.indd 90 24/04/2018 03:18:23

جدّتها، فعشقها الكبير لوطنها يشدّها إليه. لكنّي حتى هذه اللحظة لم أعرف ما سبب زيارتكما.

– لقد أتينا لنلتقي "ضَمير". فقد أرشدونا إلى عنوانها هاهنا. وأحسبها حفيدتك التي حدثتنا عنها.

– صدقت، هي حفيدتي الغالية وتعيش معي.

– أتسمح لنا بلقائها؟

– لقد شارفت على إنهاء دوام عملها وستصل في وقت قصير جدًا.

ولم يمض إلا وقت قليل حتى ركنت ضَمير سيارتها يرافقها صديقها، إقتربت من الجميع سائلة عن الضيفين:

– أنا حُريّة.. هل نسيتني؟ وهذا ابن عمي شجاع.

– آه قد تغيرّت كثيرا مذ رأيتك للمرة الأخيرة قبل سبع سنوات، تبدلّت ملامحك وشعرك صار أقصر مما كان عليه.

– ومن لا يتغيّر والكون في حركة وتبدّل دائمين؟!

– هذه هي حُريّة التي أبهرتني كلماتها من قبل. نعم، هذه هي الشابة الجريئة التي تعي ما تقوله وتقول ما تفكر فيه. نعم أنت هي، فأسلوبك يميّزك عن غيرك من الناس أما نظرتك الثاقبة الحرّة، فما رأيت لها مثيلا.

sarkht damir inside.indd 91 24/04/2018 03:18:24

- أشكر إطراءك، وأعتقد أنك منحتني أكثر مما أستحقه. لقد علمت من والدتي أنك سألت عنّي كثيرًا خلال غربتي الطويلة، كما أنني قرأت رسالتك رغم أن نسيت أمرها لظروف قاهرة. فهل يمكننا التحدث في بعض الأمور قليلا؟

- بالطبع... بالطبع. أعتذر لم أعرّفكم بصديقي. هذا موثوق. إنّه أول مَن تعرّفت إليه واتخذته صديقا منذ أن وطأت قدماي أرض الوطن، وإنّي لأثق به ثقة عمياء.

- تشرفنا. وهذا ابن عمّي شجاع.

- الشرف لنا يا سيدة حُريّة. تشرفنا يا سيّد شجاع.

- أهلا وسهلا بكم جميعًا، إنكم تفرحون قلب كهلٍ أضناه الحزن على وطنه. أنتم الأمل الجديد!

- ضَمير، كتبتِ إليّ رسالة فلسفية معبّرة تناولتِ فيها أهميّة الطموح وضرورة صونه واستمرارية أثره. وأوردت فيها "ماذا لو أتيحت لك فرصة المساهمة في تخليد أثر شقيقك للأجيال... فماذا ستفعلين؟"...وهل يراودك شكّ في أنني مستعدة للتضحية بحياتي ووقتي وعملي وفاء لشقيقي الراحل وتخليد نضاله الإنسانيّ المحقّ؟

- كانت مجرّد عبارة أراد كاتبها تحفيزك وحثّك على لقاء تأخّر سبع سنوات.

sarkht damir inside.indd 92 24/04/2018 03:18:24

- ألست من كتبت الرسالة؟ وإن لم تكوني أنت فَمن خطّ تلك الكلمات؟

وصارت تتّضح الصورة رويدًا رويدًا.. راحت حُريّة تتأمّل السماء، في حين ارتشف متنوّر قهوته ولم يتكلم.

- ضَمير لم تكتب الرسالة.. هي أوصلتها إليّ ولأنّ كلامها مزيّا بالفلسفة والحكمة فما من شكّ أنّها كلام من أتقن سبر أغوار هذه الدنيا الفانية.. فسبب عودة المعلّم هو علمه بجلاء الحقّيقة في قضية شقيقي. عاد إليه الأمل عندها تشجع على حثّ حفيدته إلى العودة وكان يخطّط للقائي بها حتى قبل قدومه إلى الوطن. أصحيح ما ذكرته يا معلّم متنوّر؟

كان الجميع مدهوشًا لفطنة حُريّة، وكيف تسرد الأفكار بانسيابية وبمنطق رشيد. وكانت ضَمير تهزّ رأسها متبسّمة في أثناء كلام حُريّة وتنظر إلى موثوق، وكأنها تقول له "هذه هي حُريّة التي حدثتك عنها". أمّا المعلم متنوّر، وعند إنتهاء حُريّة من كلامها لشجاع، فوقف ليقطف وردة مزهوّة بالألوان قربه، وإقترب من حُريّة وقدّمها إليها ونظر في عينيها قائلًا:

- هذه عربون احترام لما يختزنه عقلك من وعيّ وذكاء... أمّا وقد نظرت في عينيك، لا لشيء، بل لأنني أرى طَموح يسكن فيهما هادئا يتّقد في بريقٍ ما أدركته في عيون غيره من تلامذتي. أنت هي حُريّة التي كان طَموح دائم الحديث

sarkht damir inside.indd 93 24/04/2018 03:18:24

عنها، نعم لا شكّ أنه فخور بك من علياء مسكنه. تتحدثين مثله، تتأمّلين مثله، وأنت فطنة كما كان هو. أحترم تفكيرك وتحليلك، وكلّ ما سبق وذكرته صحيح يا حُريّة. تلك كلماتي في الرسالة، وبالرغم من أنك تأخرت بالقدوم إلينا لكن ها أنت معنا وأمامنا الآن، فكم كنت أخشى الرحيل عن هذا العالم القاسي قبل أن تتحقق أمنيتي بلقائك، إلّا أن الله قدّر لي من لُدنه تحقيق أمنيتي قبل موتي.

قبِلَت حُريّة الوردة، بعد أن وقفت وانحنت إجلالا أمام مواطنة المعلّم متنوّر وإنسانيته، واعتذرت عن تأخرها عن تلبية الدعوة حينها. وقالت:

– يا معلّم، إنّ ظروفًا قاهرة دفعتني إلى الرحيل في غربة طويلة عن بلادي، وأشكر خالقي أنه أعادني سالمة إلى الوطن، واعلم أنني مستعدة لأيّ أمر قد تشعر أنّه يخدم قضيّة الوطنيّة والإنسانيّة لطَموحنا الغالي، وأن يساهم في تخليدها.

– إذا أمامنا مشوارٌ طويل، عليك أن تتحضّري له جيدا، وسأترك لحفيدتي ضَمير أن تشرح لك كلّ شيء.

– حُريّة، تأكّدي، ولمجرّد ثقة جدّي بشخصٍ وعيك وكفاءتك، أنّ هذا يعني أنك استحصلت على ثقتي المطلقة تمامًا. ومنذ هذه اللحظة يمكنك اعتباري صديقة صدوقة وأختا وفيّة في خدمتك.

sarkht damir inside.indd 94 24/04/2018 03:18:24

– شكرا لك، إنّني فعلًا أشعر بالإمتنان لمعرفتكم، ولكن أريدك أن تفصحي عن مكنوناتك.

– أولا أريدك أن تعلمي أنّ ما سأقوله أمر مهمٌ جدًا، وفيه من الخطر ما يكفي كيلا يكون بيننا شخص غير موثوق به.

– إنّ ابن عميّ هو نفسي، وقد ربينا سويا، هو رفيق عمر شقيقي الراحل، إنّه لمؤتمِنٌ على حياتي ولا أخفي عنه أيّ شيء أبدًا.

– كذلك هو موثوق، فهو صديقي الأعزّ. عرفته منذ زمن بعيد، وقدّم لي الدعم والعون أكثر من مرّة، حتى أنه في إحدى المظاهرات تلقّى ضربات القوى الأمنية عنّي، وقد كانت ضربات كفيلة بالقضاء عليّ. ونحن نعمل سويا، وأثق به كلّ الثقة.

– إسمعي، كنتِ قد أصبت في تحليلك قبل قليل، فجدّي حين سماعه أنك أحققت الحقّ في قضيّة شقيقك، قال لي يومها عبارة لم ولن أنساها: "قد عاد الأمل إلى الوطن". ومنذ تلك اللحظة وهو يفكر في العودة وكيف يقرّبني إليك لنعمل سويا في خدمة بلادنا.

– أشكر ثقتكما بي، وإني لفاعلة المستحيل كيلا أخيّب أملكما. ولكن إلى الآن لم أفهم جوهر فكرتك، وكيف تريدين أن نعمل سويا؟!

sarkht damir inside.indd 95 24/04/2018 03:18:24

- إنني مخرجة أفلام قصيرة، صحافية، وناشطة في المجتمع المدنّي، وأسعى إلى محاربة الفساد في السلطة والمؤسسات الوطنية.

- حسنًا، وما الذي يخطر لبالك؟

- لقد كانت فكرة جدّي أن أعمل على إنتاج فيلم قصير عن حياة طَموح وإخراجه، يمكّننا من الإضاءة على قضية نضاله وتحرّره وتضحياته، وكيف عاش حرًّا ومات في سبيل حريّته وعيش قناعاته. ولكن كي يتمّ هذا المشروع، من الضروري أن نجمع معلومات دقيقة ومفصلّة عن حياةِ طَموح، وأنت الأجدى بإستلام هذه المسؤولية.

- إنني لجاهزة! ولكن بربِّك أين الخطر المحدق؟ ذاك حقّنا، فلم القلق؟

- إذا أردنا الأمر قانونًا، فقد أصبت. ولكن مهلك، فلنكن واقعيين، ولنأخذ في الاعتبار واقع النظام السياسي الحالي، وواقع أهل السلطة المتجذّرين في الحكم. فرئيس البلاد "مُتحَكِّم" وأعوانه لن يتركونا بسلام. بما أنّ هذا المشروع سيؤلّب الرأي العام عليهم، ويظهر عيوب سلطانهم. "فالحقّ وإن ظهر، عاب الباطل وأضناه، ولو لم يواجهه". أليست تلك مقولتك يا جدّي؟

sarkht damir inside.indd 96 24/04/2018 03:18:24

– نعم، فإن كنتم من أنصار الحقّ وتعيشون في سبيله، فلا شكّ بأنّ أهل الظلمة والظلاميين سيحاولون الإقتصاص منكم، حتى لو لم تقارعوهم بفسادهم وأخطائهم.

– ونحن جاهزون للمواجهة يا ضَمير. وسنكون عضدًا لك يا حُريّة.

– نعم يا ابنة عمّي أؤيد كلام موثوق... فكما كنت إلى جانبك دوما سأقف داعمًا في هذه المهمة أيضًا ولا سيّما أنّ فيها وفاءً لطَموح الغالي.

– أشكر القادر أنه أمَنَّ لي نعمة العيش حتى هذه اللحظة، كي أسمعَ وأرَى أمامي جيلا نخبويًّا من الطاقات الشبابيّة القادرة والطامحة إلى التغيير، هو جيلٌ يستحق وصفه بجيل الأمل. الأمل ببقاء هويتنا وأرضنا فوطننا. أنتم وأمثالكم تجسّدون سرّ وجودنا وبقائنا يا أبنائي.

وكان المعلّم متنوّر يتحدث إليهم وقد أشرق وجهه فرحا وأملا. إنتهى اللقاء في داره بين الحاضرين بعد أن إتفقوا جميعًا على الإلتقاء في اليوم التالي من أجل وضع خطّة لإنجاح مشروع ضَمير عنوانه "حكاية طَموح".

sarkht damir inside.indd 97 24/04/2018 03:18:24

مواقفٌ وقناعات

رافق موثوق ضَمير في زيارتها إلى مكتب حُريّة وما إن دخلا حتّى تبعهما شاب وسيم المظهر متأنق، فرحبت حُريّة بضيفيها، ودعتهما إلى الجلوس فقالت ضَمير:

– أمس كان اللقاء مميزا مع جديّ متنوّر. ولكن قبل الدخول في تفاصيل مشروعنا والتحضير له... من واجبي أن أعرّفكم بصديقي الفنان موهوب. هو من سيجسّد دور شقيقك طَموح في مشروعنا يا حُريّة.

– حسنًا إذا، تشرّفنا يا سيّد موهوب. أتمنى أن ننجح سويا في إعادة تجسيد عمر شقيقي في حكايةٍ مصورّة، نُلبسها ثوب الوجود الحقّيقي حتّى يُمكننا تخلّيده فكرةً حقّة في أوطان العقول الواعية والصادقة.

– إنّه لشرف لي يا سيدتي أن أجسّد هذا الدور ففيه أمانة ومسؤولية تتخطى حدود مهنتي المتواضعة. كما إنّه لشرف لي أن ألتقيك، وأنت المحامية والقاضية الذائعة الصيت، الناطقة بالحقّ وأيقونة الخير وفارسة العدالة.

sarkht damir inside.indd 99 24/04/2018 03:18:24

– شكرًا على الإطراء، ومما لا شكّ فيه أنّ ما ذكرته من كلام، قد كان إنعكاسا لما تحمله من أخلاق سامية وسماتِ نفسٍ أصيلة.

– هل أديّت أيّ دورٍ تمثيليّ من قبل؟!

– نعم يا شجاع، فموهوب عرفته صديقًا وزميلا في بلاد الإغتراب، وقد درسنا سويا الإخراج والتمثيل، وقد أدّى أدوارًا رئيسة في مشاريع عدّيدة هناك، ولا عجب أنك لا تعرفه لأنه عاد منذ فترة قصيرة جدًا.كما أنّ موهوب قد جالس جديّ متنوّر وأخبره الكثير عن طَموح، وكان متحمسا جدًا للفكرة، لتأثره بما سمعه عن شاب عصامي مواطن ومناضل حقيقي لم يعتمد إلّا الصوابية والخير في قوله وعمله.

– أرجوكم خذوا في الإعتبار، أنني شاب أخاف على وطني أيضا، وأحمل هواجس عدّة تدفعني إلى تأدية هذه المسؤولية على أكمل وجه. فطَموح كان مثاليًا من كلّ النواحي. وإذا ما أردنا أن يستفيد مجتمعنا من مشروعنا، فعلينا طرح القضايا بأقصى حدود المثاليّة، حتى يتسنّى للناس أن يستشفّوا منها قدر المستطاع متى إستطاعوا إلى ذلك سبيلَا.

– لقد أعجبتني مقاربتك لمسألة المثاليّة تلك!

– شكرًا سيّدتي. والآن يا ضَمير، من أين تبدأ الحكاية؟

sarkht damir inside.indd 100 24/04/2018 03:18:24

– تبدأ من هذا الإجتماع، ولن تعرف النهاية أبدا ما دامت الأرض موجودة بوجود قاطنيها.

– هات ما عندك يا ضَمير، فنحن متشوقون للسماع.

– حسنًا... طَموح عاش حكاية نضال حقيقية في سبيل تحقيق المواطنة الحقّة، ونحن راغبون في تخليد فكرة مواطنته الصادقة تلك، والتي فداها بروحه وما بدّل عن الحقّ، كي نثبت نموذجيته للأجيال القادمة. فيكون لهم قدوة صالحة ومثالا يستحقُ أن يحتذى به.

– ستطلقين على مشروعك عنوان "حكاية طَموح"، فلِم هذا العنوان يا ضَمير؟

– إنّ ذكر اسم طَموح في عنوان المشروع أمر ضروري، من أجل حثّ الناس على المتابعة، بالإضافة إلى تبويب المشروع بشذرات صفات بطله. أما إستخدامنا لمفهوم الحكاية، فبهدف إضفاء قيمة معنوية فنيّة تاريخية على المشروع. فالحكاية تأتينا من الماضي، لكنّها حيّة حقيقية بحقيقة تلاوتها وتواترها في واقعنا وحاضرنا. وذلك كافٍ لنؤكّد أن طَموح عاش الماضي ولكنّه لم يوار الثرى بل استمر بوجوده خالدًا حتى وقتنا هذا وإلى ما شاء القدير، كفكرة صافية نضالية وطنية نقيّة. فما رأيكم بما ذكرته للتوّ؟

– إنني لأجد في تبريرك هذا، قرينةً دامغة لحسن اختيارك للعنوان. أؤيدك تمامًا.

sarkht damir inside.indd 101 24/04/2018 03:18:24

- شكرا يا حُريّة، فموقفك يشجّعني على المضيّ قدمًا. وماذا عن البقية؟

- لقد تناقشنا في هذا الأمر سابقا وإني أوافقك تماما يا صديقتي.

- نعم يا موهوب صدقت، كما أنّ موثوق قد أيّد فكرة العنوان مع المضمون تماما، فلم يتبقّ إلّا أن نسمع رأي شجاع.

- وما الجدوى من رأيّي وقيمته، ما دمتم جميعا متفقين؟

- لو لم يكن لرأيك قيمة لما طالبناك. أمّا لجهة جدواه، فدائما تأتي الإستشارة الإضافية بالإيجاب لا بالسلب، فمتى تعددت الآراء في جوّ من التآلف والصدق، فلا شكّ أن النتائج ستكون فضلى. كما أنني أريدك ألا تنسى يا شجاع، بأنك أحد أهم أركان نجاح مشروعنا!

- لماذا؟

- لأنك رفيق درب طَموح وصديق عمره. وأعتقد أنّ رأيك لا يقلّ أهمية عن رأي شقيقته. ما قولك يا حُريّة؟

- أوافقك تماما. شجاع كان إضافة قيّمة لشقيقي الراحل في حياته وحتى لعائلتنام ن بعد رحيله.وبالنسبة إلي أعتبره أخًا وأثق به حتى الموت.

sarkht damir inside.indd 102 24/04/2018 03:18:25

– والآن لنعد إلى مشروعنا، هل كان لك رأي آخر في ما خصّ العنوان يا شجاع؟

– أبدا، أخاله مناسبا جدًا.

– فلنضع خطة عمل واضحة لمشروعنا. علينا أن نتفق أولا أنّ كلّ ما يدور في ما بيننا من نقاشات وأفكار وحتى أحداث لا يجب أن يخرج للعلن، وذلك لأسباب عدّة. فمشروعنا يتناول حياة طموح، ولا بُد أن يقُضّ مضاجِع الفاسدين والمُفسدين في السلطة، الّذين يتبوؤن أعلى المناصب من رأس الهرم حتى أسفله. بالتالي سيفعلون المستحيل لإيقافنا أو إفشال مشروعِنا. وقد يترتب على ذلك مخاطر جمّة. أتوقع أن تضايقنا قوى الأمن، وبالطبع يجب الحذر منهم وعدم التراجع متى فُرضت علينا مواجهتهم.

– لا أوافقك في موضوع مواجهة قوى الأمن يا ضَمير... حتى لو كانت سلميّة؟

– ولماذا ؟

– إنّ أي تحرّك أو نشاط مدنّي أراد مواطن ما أو المجتمع القيام به، فمن الأولى والأجدى أن يأخذ في المعادلة الصورة الكبرى والأكثر شمولية لحراكه، لا صورة مقزّمة صغيرة عن الأحداث.

– حقيقة لم أفهم!

sarkht damir inside.indd 103 24/04/2018 03:18:25

– ما قصدته يا موثوق، أنّه لا يجب أبدا مواجهة رجال الأمن ولو كانت مواجهة سلميّة. ذلك لأنّ أولئك الرجال يفعلون ما تأمرهم به السلطة السياسية، فرجال الأمن ليسوا سوى موظفين في دوائر الدولة ليطبقوا القوانين، ملتزمين بهرمية الوظيفة الإدارية ووتوجيهات قياداتهم. عدا أنهم في نهاية المطاف مواطنون حقيقيون، لديهم هواجس وطموحات لوطنهم مثلنا تماما، ولديولهم عائلات يعيلونها. فمقاربة أمر مقارعتهم يجب أن تتم بوعي ومسؤولية.

– لكنّ السلطة محكمة قبضتها يا حُريّة، والتحرّك في الشارع أحيانا قد يكون ضرورة.

– أفهم صرختك يا ضَمير، فهي صرخة محقّة وواقعية أيضا. ولكن بين السيئ والأسوأ، لا بُد لنا أن نختار الأقل سوءًا. فمتى كانت السلطة فاسدة وجب مواجهتها في ملعبها لا في ملاعب الآخرين.

– وعن أيّ ملاعب تتحدثين يا حُريّة؟ فإذا كانت السلطة فاسدة، فلا شكّ أنّ قوى أمنها التي تحميها لا تقل فسادًا عنها. فالخير لا يحمي الباطل. والفساد يحميه فساد يشابهه.

– لا أقبل بهذا الكلام، وإذا أصررتم على موقفكم، أتمنى أن تعذروني في حال تخليّت عن المشروع كاملا، وليسامحني شقيقي حيث ترقد روحه الطاهرة.

sarkht damir inside.indd 104 24/04/2018 03:18:25

- إنني لا أصدق ما سمعته!

- وما الذي لا تصدقه يا سيّد موثوق؟

وقد صارت ملامح الجدّ والغضب ترتسم على جبين حُريّة، وضَمير تتأمّل الحاضرين محاولة أن تفهم موقفها، فتابع موثوق كلامه قائلًا:

- ما لا أصدقه وقوفك في صفّ قوى الأمن، وهم رجال السلطة الفاسدة وأدواتها. أولئك الرجال هم الّذين اعتدوا علينا بالضرب في الساحات العامة. وكانت لي ولضَمير حصّة كبيرة من وحشيتهم. فأنا أكرههم. فإما أنت ملتزمة معهم في مصلحة ما، أمّ أنك تخافين منهم!

sarkht damir inside.indd 105 24/04/2018 03:18:25

– ما الذي تقوله؟ صنْ كلامك يا هذا! ألا تعرف من تكلّم؟! هذه حُريّة التي قاضت زوجها، ونصرت شقيقها فأظهرت حقيقة مقتله بعد عشرة أعوام. أين كنت يوم واجهت قوى الظلام وحدها!؟ إنتبه إلى كلامك مع ابنة عمّي وإلّا!

همّ شجاع لمواجهة موثوق محاولا الإقتراب منه مستعدا لطرده من المكتب. فسارعت حُريّة وأوقفته قائلة:

– مهلك يا شجاع، من الواضح أن موثوق لم يقصد ما قاله للتوّ.

– وكيف تبرئينه من وقاحة كلامه يا ابنة عمّي، فأمثاله لا يجب أن يكونوا في حضرتك. وأنت الأرفع اسما ونهجا وعملا منه ومن أمثاله. إعتذر... هيّا.

– رويدك يا شجاع، رويدك. لم نعتد إهانة الضيوف في دارنا، فتلك ليست من شيمنا ولا من مبادئنا. إهدأ لو سمحت يا ابن عميّ.

حينها قرّر موثوق الخروج من مكتب حُريّة، فأوقفته قائلة:

– سيّد موثوق، تعرّفنا إليك البارحة، إلا أننا لا نعرفك. فشتّان بين ظاهر الإنسان وباطن وعيه، والحال طبعًا سيّان بيننا وبينك. فقد قلت ما عندك، والآن تقع عليك مسؤولية

sarkht damir inside.indd 106 24/04/2018 03:18:25

الاستماع إلى ردّنا عليك. لذا تلطّف علينا بكلامك، واجلس لو سمحت، فلم أشرح موقفي تماما بعد، ولك حُريّة الرحيل متى أنهيت كلامي. وتذكر هذه العبارة المهمّة جدًا: "كلام الملوك، ملوك الكلام".

– حُريّة أرجوك أعذري موثوق، فما قصد الإهانة البتّة، وجُلّ ما في الأمر، أنّه لا يثق بقوى الأمن لأنهم أهانوننا ولم يحترموا حقوقنا. وقد عانَى كثيرا من مواجهتهم، وأوقف أكثر من مرّة توقيفات إحتياطية إعتباطية، فقط للحدّ من جموح نشاطه وثورة أفكاره.

– في ما خصّ قوى الأمن، ومما لا شكّ فيه أنّني أحترم مؤسساتهم كافة بمختلف أجهزتها. ولتعلموا أن المؤسّسات الوطنيّة تختلف كثيرًا عمَن يديرها أو يعمل لحسابها. فشتّان بين الشخصيات المعنوية والشخصيات الطبيعية.

– إشرحي لنا قصدك لو سمحتِ!

– إعلمي يا ضَمير أنّ الفارق شاسع بين الشخصيتين. فالشخصيّة المعنوية منها ليست حقيقية، بل تكستب شرعيتها لما تمثّله من هيبة وأنظمة وقوانين، ناهيك عن دورها في إدارة شؤون البلاد. أمّا الطبيعيّة منها، فنحن نتحدّث عن المسؤولين والموظفين الّذين يشغلون المناصب فيها.

sarkht damir inside.indd 107 24/04/2018 03:18:26

– حسنا وماذا بعد؟

– إن دولتنا لا يمكن أن تستمر بلا هذه المؤسسات الأمنية وغيرها من إدارية وقضائية وإلى ما شابه ذلك. فحتى وإن فسدت السلطة، هذا لا يعني فساد المؤسّسات فيها بل فساد أشخاصٍ يَشغلونها. وهنا تكمن المعضلة أو الآفة!

– وعن أي معضلة تتحدثين؟

– المعضلة يا موثوق، تتمثّل بأن معظم فئات الشعب تختلط عليهم الأمور فيقتادون بالعاطفة. فمواجهة السلطة الفاسدة، لا توجب مواجهة المؤسّسات وتعطيل الإدارات، بل يجب مواجهتها بالأطر القانونيّة والدستورية، من خلال إقناع الشعب بصوابيّة الأفكار والمسار.

– لكنّ الشعب مغلوب على أمره، وأغلب فئاته جاهلة. لهذا واجب على النُخب المواجهة مهما كلّف الأمر.

– أرفض منطقك الإستعلائي هذا يا موثوق. ومن الواضح أنك عدائي. سبق أن طلبت منك أن تتلطف علينا بكلامك ومواقفك، وأن تسمع ما أردنا قوله لو سمحت!

– يا رجل لم لا تتقن فنّ الإستماع؟ لم تتصرف وكأنك رجل عسكريّ لا يعرف إلّا التمرين والقهر والعذاب في حياته. رويدك. فمتى أسمعتَ وجِبَ أن تَسْمَع.

sarkht damir inside.indd 108 24/04/2018 03:18:26

- لا تقل إنّني عسكري! قلت لك إنني لا أحب قوى الأمن والعسكريين، أقلّه أنا لا أطيق التعايش معهم. فحذار من كلامك معي.

- تمهّلا، تلك ليست طريقة نقاش سليمة ولن تسهم في إنجاح مشروعنا. أرجوكما توقفا عن الجدال والحوارات الجانبية، ولنَصُبَّ جام سعينا في محورٍ واحد، كما أنكما لم تسمحا لحُريّة بمتابعة كلامها. فلتركنا معًا إلى لغة الصمت. تابعي يا حُريّة.

- سيّد موثوق. شعبنا ليس جاهلًا، فالله قد أبدع في خلق الكون وخَلق الإنسان بعد ذلك، وقدّر أن تتمايز العقول والنفوس، وأن تتعدّد المواهب والصنعات والرغبات وحتى المستويات الفكريّة، و تلك حكمة دفعت البشر نحو التطور، ولولا ذلك لكان العالم ساكنًا ساكتًا لا حكمة فيه ولا جدوى من بدايته حتى نهايته وقت يحين الأجل.

- أخجلتني بعظمة كلماتك، إنّي أعتذر لِمَا بَدَرَ مِنّي سابقًا، ولكنّني لا أطيق فعلًا موقف مؤيدين قوى الأمن الّذين يقمعون الناس العُزَّل المُسالمين، ودفاعهم عن سلطةٍ فاسدة لا تستحق البقاء للحظة في سدّة الحُكم.

- يا سيّد موثوق، أتفهم موقفك وأفهم ردّة فعلك، ولكن أرجوك لا تطلق الأحكام عشواء في حق الآخرين.

sarkht damir inside.indd 109 24/04/2018 03:18:26

– أكرر إعتذاري يا سيدتي، ولك منّي كلّ احترام وتقدير. وأعي أن لإنفعالي نتائج تؤذيني شخصيًّا قبل الآخرين. وما قصدت أن أنقص منكم شيئًا، وأنتم المترفِّعون عن الشوائب.

– دعني أكمل كلامي، فلم أنته بعد. وإنّ ما ذكرته من فارق بين المؤسّسات الرسميّة، الأمنيّة منها أو غيرها، ومَن يَشغلها من الناس الطبيعيين، كان لإثبات فكرة واحدة. الإستمرارية يا ضَمير. فكرة الإستمرارية، فالمؤسسات الرسميّة تمثّل شعبها في كافة الدول، حتى ولو كانت على رأسها سلطة فاسدة. والأجدى بالشعب محاولة التغيير عبر نُخَبِه لجهة تمثيل عامة الناس في السلطة، لا مواجهة السلطويين الفاسدين في الشارع. فالشارع سيف ذو حدّين.

أمّا حدّه الأول فهو توفير مساحة ديمقراطية للتعبير عن الآراء الكامنة في أعمق عقول الناس الواعية المتحررة من دون قيود الأنظمة وجمود قوانينها، وذاك لأمر فيه حقّ تكفله شرعة حقوق الإنسان وكافة دساتير دول العالم القائمة على منطق الديمقراطية. وهو حدّ إيجابيّ. أمّا حدّه الثاني فهو سلبيّ وعنوانه الفوضى العارمة، وهي المترتبة عن مشاركة طوابير الفِتَن، والمُندفعين بالعاطِفة، كذلك الناس اليائسين المقهورين أولئك الجاهزين لإفتعال أيّ إشكال مع أيّ جهة من دون التنبّه إلى خطورة أفعالهم ونتائجها على المصلحة

sarkht damir inside.indd 110 24/04/2018 03:18:26

العامة. فالشارع لا يمكن ضبطه يا أصدقائي، لأنّ فيه الشيء ونقيضه. فيه الديمقراطية وفيه الغوغائية. فكيف تقبلوا بمساحة تعبير تكون غير منضبطة وغير صحيّة. هذا ما قد يغرق مركب الوطن في هوّة سحيقة... وتذكروا متى ذهب الوطن نحو الهاوية، تهاوت معه أعمدة تكوينه من شعب وأرض وسلطة. لهذا قلت لكم يجب أن نتفادى الحراك في الشارع قدر المستطاع حتى نفاذ كافة الوسائل. وكي أكون صريحة معكم، لا أرى في حراك الشارع ضرورة وحاجة إلّا في وجه محتل أرضنا أو غاصب قرار سيادتنا وحريتنا أو من غرباء عن مجتمعنا حيثما وجدوا، وما تبقّى واجب علينا أن نصونه بالأطر والوسائل المؤسساتية وحسب.

– لقد أوضحت موقفك يا حُريّة، ولكن كيف للنخب أن تواجه بطريقة مغايرة عن الشارع؟ ما السبيل إلى التغيير الحقّيقي إن لم يكن من خلال مواجهة السلطة الحاكمة وأدواتها الفاسدة بمعظمها!؟

– لقد سبق وذكرت يا ضَمير، إنّ الوسيلة الوحيدة تكمن في الدخول إلى وعي الناس عبر أفكار منطقية ممنهجة تقنعهم بالتغيير في السلطة من خلال حسن اختيار ممثليهم لا الممثلين عليهم.

sarkht damir inside.indd 111 24/04/2018 03:18:26

– وماذا لو لم يترك أسياد السلطة المساحة للناس بحُريّة الإختيار؟ فيأخذون بالسيطرة على قرارهم وبالتسلط على مصادر رزقهم، حتّى يقمعوا حريتهم... وبالتالي لن يقدروا على حسن الإختيار، إبّان لجم ضمائرهم عن الصراخ للحُريّة!

– هنا تكمن مسؤولية النُخب.

– وكيف ذلك؟

– مسؤولية النُخب من الناس أمثالك يا سيّد موثوق، عليهم أن يعملوا بأرقى الوسائل، في سبيل إقناع عامة الشعب بفكرة التضحية والنضال في سبيل بناء مستقبل أفضل، فإن لم يكن لهم، فمن أجل أبنائهم من بعدهم. فها هنا تكمن جوهرة الفصل بين النخب والجماهير. ودور النخب يتمثّل في إيصال صورة الحقّ وإيضاحها. ويجب في سبيل ذلك أن "تتآلف الغاية مع الوسيلة" – كما كان يقول شقيقي طَموح– فمتى كانت غايتنا التغيير للأفضل، وجِبَ علينا اعتماد الصوابية في القول والعمل تماشيًا مع نقاوة الغاية وصُدقيتها. بالتالي لا يجب إعتماد العنف، أو مواجهة المؤسسات الرسميّة، ولا بعث الفوضى في الشوارع، ولا إقلاق أمن الناس وأمانهم. بل علينا الإنتظار حتى تحين ساعة تطبيق الأفكار والبرامج المُحقّة. أمّا في حال بقي الحال رتيبًا، فاعلموا عندها أنّ الناس لم تعد جاهزة بعد. وبقاوِها على ما هي عليه أمرٌ يتواءَم مع ما يخالجهم في جوهر نفوسهم ووعي عقولهم.

sarkht damir inside.indd 112 24/04/2018 03:18:26

– من الواضح أنك امرأة مسالمة يا حُريّة، تسبقيننا بفعل مواطنتك وجُرأتكِ وصمودك. أخطأت في حقك خطأً جسيمًا.

– لا عليك يا صديقي أتفهّم موقفك. ولكنّني سأسألك سؤالًا آخر بعد. هلّا سمحت لي؟

– نعم تفضلي. أرجوك إسألي ما شئت!

– حسنًا، في حال كان والدك ظالمًا في حقّك وحقّ والدتك وإخوتك، فماذا ستفعل؟!

– أتحاور معه وأحاول حثّه على تغيير أسلوبه.

– وفي حال لم يفعل؟ ماذا ستفعل لوالدك؟

–سأبقى أحاول لأنه والدي ولا يمكنني أن أثور ثائرتي عليه أو توجيه الإساءة إليه!

– حسنا، وما رأيك لو نصحتك بالعمل على تفكيك العائلة، فتأخذ والدتك مع إخوتك ممَن أراد إتّباع خُطاك منهم، فترحلوا بعد تدمير العائلة، لا لشيء بل عقابًا لوالدك على ظلمه وتعبيرا منك على سخطك منه ومن إخوانك الّذين ساندوه بموقفه وبقوا معه.

– وكيف سأقدم على هذا الإثم المشين، فذلك والدي. ومهما كان ظالما، يبقى الإحترام لرابط الدمّ، فمنزلنا ملجأنا

وهُوية عائلتنا، كيف لي أن أسعى إلى تدميره!؟ فما سألتني فعله، هو المحال عينه!

– جميل ما قلته للتوّ، فهو أصالة متجذّرة في وعي عقلك. والآن سأشرح لك ما قصدته. إنّ والدك الظالم يمثل السلطة السياسيّة الفاسدة، أمّا إخوتك الّذين ساندوه مكرهين فهم القوى الأمنية التي تحمي السلطة تلك، ومنزلك ما هو إلا وطنك. فإن كنت لا تستطيع فعلًا تدمير منزلك معتبرًا أنّه ملجأك وهويتك، كذلك هو حال وطنك الذي يحوي شعبا بمقام إخوتك في الهويّة. فرغم ظلم السلطة السياسية، تبقى تربطك بدولتك علاقة قربى لجهة الهويّة الوطنية. وفي حال خاصمتها في الرأي، إلّا أنه لا يمكنك إلغاؤها. هل فهمت قصدي جيدا يا موثوق؟

– حُريّة، لقد أخجلتني حكمتك فعلا. وقد تبيّنت مأربك في ما ذكرته. قد تسرّعت في الحكم عليك. أكرّر إعتذاري.

– أحسنت صنعا يا موثوق، فالعودة عن الخطأ فيها شيء من الفضيلة.

– صدقت يا شجاع، وأنا أعتذر إليك أيضا.

– حسنا يا أصدقاء، أتمنى أن يكون ما حصل غيمة سوداء مرّت وأخذت معها كلّ ضغينة وفتن. فلنعد إلى مشروعنا. وأنا أقرّ بأنني أوافق حُريّة بعدم مواجهة قوى الأمن في الشارع مهما كلّف الأمر. ولتكن وسائلنا صائبة قولا وفعلا.

sarkht damir inside.indd 114 24/04/2018 03:18:26

– ما دمنا متفقين على ما مرّ... فلنتابع.

– لدينا مشكلة تمويل المشروع يا ضَمير، فهل فكرّت في الأمر؟

– هذا أمر أردت مناقشته مع حُريّة أيضا.

– وماذا تقترحين؟

– إنّ مشروعنا يتطلب تمويلا جديًّا وليس قليلا. لا أعتقد أننا قادرون معك على تغطيته كاملا، لهذا نحن بحاجة إلى مساعدة أصحاب رؤوس المال!

– لماذا لا نقترح المسألة على "متموّل" ؟ أعتقد أنّه سيتبنّى فكرة المشروع ويسير بها حتى النهاية.

– لا تكن متفائلا جدا يا ابن عمي! فمتموّل ابن بلدتنا قضى عمره في جمع ثروته، وما إكترث قطّ للسياسة أو الإهتمام في شؤونها. وحسب ما أسمع، إنه يكره هذا المجال كثيرا.

– ومَن هو متموّل؟

– إنه رجل من بلدتنا يا موثوق، يملك المال الوفير لدرجة أنّه يستطيع أن يتدفأ على جزء كبير منه في حال شعر بالبرد، ولن يمسّه الفقر يومًا أو يقربه.

– أيعقل أن يكون ثريًّا إلى هذه الدرجة ولا يقبل تمويل مشروع لا يبغي الربح بل هدفه توعية المجتمع ونصرة الأفكار الخيّرة!؟ لا أصدق ذلك.

sarkht damir inside.indd 115 24/04/2018 03:18:26

– هذه حقيقة الأمور.

– حسنًا يا شجاع، وما رأيكم في أن نزوره في أقرب وقت. لعلّنا نقنعه بتمويل المشروع، فنسمع ما يسرّ خاطرنا.

– لا أستطيع الذهاب معكم. فلتذهبوا وحدكم في حال كنتم مصرّين على زيارته، رغم يقيني من النتيجة مسبقًا.

– ولماذا لا ترافقيننا يا حُريّة!؟ فهو ابن بلدتكم.

– لأنه كان صديقا مقرّبا من زوجي متعالي. ولم يساندني في قضية تحقيق عدالة طموح، وقد كان على خصام مباشر مع شقيقي الراحل عن غير حقّ.

– من البداهة إذا ألا تقومي بزيارته! وماذا عنك يا شجاع؟

– لن أترككم وحدكم، سأرافقكم وسأحاول جاهدا إقناعه، فأنا متمحسّ جدًا لإنجاح مشروع "حكاية طَموح"، لأنني أرغب في أن أردّ لابن عميّ جزءًا من حقّه علينا.

– حسنا، ملتقانا في الغد.

– إتفقنا.

– ضَمير، غدًا عندما تعودين من زيارة متموّل، سأصطحبك في زيارة صديقة عزيزة عليّ، وكانت مقرّبة جدًا من طَموح. إنها جميلة، صديقته وزميلته في الجامعة.

sarkht damir inside.indd 116 24/04/2018 03:18:26

– غدًا يوم حافل يا أصدقاء. وأشعر أنّ دربنا شاق بعض الشيء لكنّه جميلٌ وحقيقيّ في آن واحد.

لقد كان لموقف حُريّة الجريء في وجه موثوق في ما خص مواجهة المؤسسات الرسمية بشكل عام والمؤسسات الأمنية بشكل خاص تأثير كبير على مجريات الأحداث، لتنير بذلك مصير مشروع "حكاية طَموح". أنهوا لقاءهم التحضيري الأول بوضع خطّة عملانية لتجميع المعلومات من الناس وكلّ مَن عرف طَموح، بعد أن اتفقوا على عنوان المشروع ومضمونه، وكيفيّة إطلاقه للرأي العام. كما اتّفقوا على خطوات متتالية كان أولها لقاء متموّل بهدف حثّه على تقديم المساعدة لناحية إنتاج هذا العمل على أكمل وجه.

sarkht damir inside.indd 117 24/04/2018 03:18:27

sarkht damir inside.indd 118 24/04/2018 03:18:27

تحذيرٌ مريب

وصلت حُريّة إلى المنزل في المساء، لتجلس مع العائلة وتقصّ عليهم ما حدث معها، وخاصة لولدها طَموح. فقد تعودت دائما أن تطلعه على مجريات حياتها بأغلب تفاصيلها، لا لشيء، بل للحفاظ على التواصل وإكتساب ثقته ودفعه أكثر نحو تحمل مسؤولية والدته والعائلة كافة. فقد كانت على ثقة أنّ إطّلاع طَموح على ما يحدث معها لهو عامل رئيس في بناء شخصيته وجعله شخصا أقوى.

وبينما هي تخبرهم عن مشروع ضَمير لتخليد حياة طَموح بما حملت من إنجازات ونضالات وأفكار وطنية إنسانية محقّة، رنّ هاتفها، فلاحظت أنّ المتصل هو إلتزام. إستغربت في بادئ الأمر إتصاله، وتيقّنت من إحساس غريب تملّكها، فردّت على الإتصال قائلة:

– قد شعرت بذبذبات أقلقتني. أتمنّى أن أكون مخطئة.

– صديقتي العزيزة، مساء الخير.

– وبالتحيّة المُعَطّرة نرد سلامكم حضرة القائد إلتزام. ما سبب اتصالكم في هذا الوقت المتأخر؟

sarkht damir inside.indd 119 24/04/2018 03:18:27

– حُريّة، نحن صديقان وتجمعنا المحبة والوفاء. فمنذ أن التقيتك للمرة الأولى وعرفت فيها أنك شقيقة طَموح، لم أكترث لمنصب النائب العام، وما بنيت علاقتي معك ومع عائلتك إلّا على قواعد الصدق والإحترام. فأتمنّى أن نبقى على هذه الحال.

– كيف كان يومك؟

– كان يوما عاديًّا في مكتبي إستقبلت فيه وكلاء وأصدقاء.

– حسنًا، وهل هنالك شيء مهم تريدين إخباري به أو تعتقدين أنّه يمكنني مساعدتك لإتمامه؟

– إلتزام، إسمعني يا صديقي. لا أرتاح لأدائك دور المحقق معي. فإذا كنت تريد أن تستوضح أمرًا ما، فلتكن واضحا ومباشرًا.

– حسنًا... أنت تعلمين احترامي ومودتي لك يا حُريّة، وما هاتفتك في هذا الوقت إلا لخوفي عليك.

– لا داعي للخوف والقلق، فأنت تريد أن تسأل عن إجتماعي بضَمير اليوم. وأعتقد أنّ معلومة وصلتك بأنّ ضَمير تحضّر لمشروع ما مع حُريّة شقيقة طَموح، وما كان إتصالك إلا لتحصل على صورة أكثر وضوحًا وإجابة شافية كافية لما حدث في إجتماعنا اليوم... هل أنا مخطئة؟ أخبرني!

sarkht damir inside.indd 120 24/04/2018 03:18:27

– صحيح أدركتِ غايتي...

– إذًا، ما دمت تعلم بالإجتماع فما حاجتك إلى الاتصال!؟ ماذا تريد أن تعرف؟

– حُريّة، ترويّ في أي مشروع تريدين القيام به مع ضَمير ورفاقها. إنهم مجموعة من أشخاص نراقبهم، ونتابع تحركاتهم عن كثب ولا نثق بهم أبدا. فنحن نشعر بأنّهم لا يكترثون للوطن ولا يحسبون أي حساب لنتائج تحركاتهم الغوغائية.

– أتمنّى منك ألا تظلمهم ولا تكن جائرًا بحكمك عليهم. فهم نُخبة متعلّمة ومُثقفة واعية، وهم يتمتعون بحسّ المواطنة بشكل جليّ. ورغم أنهم يتبعون في بعض الأحيان نشاطات وتحركات قد تؤدي إلى شغب عام، لكنّهم لا يقصدون الشرّ البتّة، بل جُلّ ما يقدمون عليه من شدّة يَأسهم وإفتقادهم وسائل التعبير والتغيير الديمقراطي في ظلّ حكم نظامِ سلطةٍ فاسدة جائرة.

– أرجوك لا تحدثيني في مسألة النظام أو السطلة السياسية، ولا تنسي أنني موظف في مؤسسة رسمية أمنية. وما كان إتصالي بك لمناقشة النظام السياسي الحالي في البلاد، أو حتى لبحث في أيّ مسألة وطنيّة عامة، بل إتصلت لأحذّرك من الآنسة ضَمير وأفكارها الثورويّة. فقبل مغادرتي المكتب مباشرة، وصلتني برقية مفادها أن ضَمير تعقد اجتماعات

sarkht damir inside.indd 121 24/04/2018 03:18:27

تحضيرية لإطلاق عمل سياسيّ يُناهض السُلطة الحاليّة ويَفضَحُ فَسَادَها، وما كانت آخر لقاءاتها تلك إلّا في مكتبك وفي حضرة أشخاص آخرين.

– أمران أساسيّان ذكرتهما يا إلتزام. الأول عندما ذكرت أنّ مشروع ضَمير هو لمواجهة السلطة الفاسدة، وهذا إقرار منك بفساد رؤسائك. وفي خطوة ضَمير تلك نضال محقّ ومشروع، وهو واجب محتّم على كلّ مَن يحمل شرارة المواطنة في فؤاده أو في وعي عقله.

أمّا الأمر الثاني فهو موضوع البرقية المخابراتية تلك. فيا صديقي العزيز، أنا لا أعلم مصدرها أو غايتها، لكنّني أعلم أنّني سأقاضي كلّ مَن يتجرّأ ويتجسّس عليّ كائنًا مَن كان، فأنت تعلم مَن هي حُريّة يا إلتزام وحتى لو كان المراقبون من أجهزة أمنيّة. فالأجهزة الأمنية مهمتها الأولى حماية الشعب لا ترهيبه وقمعه. أمّا في ما خصّ ضَمير فلا أعتقد بأنها تقوم بعمل يمسّ أمن الدولة واستقرار الوطن، فقد إطّلعت منها على جوهر مشروعها، وهو صائب إنسانيّ وطنيّ بإمتياز.

– ضَمير أرجوك لا تظلميني بكلامك. أولًا لم أقل إنّ السلطة فاسدة، بل قلت إنّ ما تحيكه ضَمير يرزح تحت هذا العنوان. أمّا موضوع المتابعة والمراقبة، فواجبنا كأجهزة أمنية أن تبقى عيوننا ساهرة على أمن البلاد، فنكافئ ونحمي الأخيار

sarkht damir inside.indd 122 24/04/2018 03:18:27

ونعاقب الأشرار. ومنذ المكالمة الأولى أخبرتك ولم يكن في الأمر سرّ أننا لم نتأكد خبايا نوايا ضَمير ومن يرافقها بعد، طلبت منك أن تحذري منها. أليس كذلك؟

– صحيح... لكنّي وجدت ضَمير شابة وطنية متحررة توّاقة إلى الحُريّة ومناضلة في سبيل كبح جموح الفساد المتفشّي في البلاد. و بعد أن تعرفت إليها شعرت بأنها إنسانة تستحق التقدير، وخاصة أنها تركت عائلتها في الغربة، وعادت إلى الوطن لتهتم بجدّها متنوّر وتعمل لخير بلادها ومجتمعها.

– حُريّة أنا لا أثق بها أبدا، فأمثالها ممَن لا حدود لأفكارهم لا يعون مخاطر تحركاتهم العشوائية غير المنضبطة على البلاد كافة، فنبقى على موقف الحيطة منهم.

– أعتقد بأنك ستغيّر رأيك ساعة ينتهي مشروعها وتطلقه للعلن.

– إذا تصرّين على مساعدتها؟!

– بالطبع.

– لكنني أخشى عليك!

– ممّ تخشى عليّ؟

– أخاف عليك من ظُلم مسؤولي السلطة، فرئيس البلاد "مُتحَكِّم" لا يقبل بهذه المبادرات حتى لو لم تطاله شخصيًّا، وأخشى أن يتعرضوا لكم.

sarkht damir inside.indd 123 24/04/2018 03:18:27

- لا تخشَ شيئا، ما دمنا نحيا في سبيل الحقّ ونَنْطِقُ به فلا خوف علينا أبدا. إنّ كل المخاطر تسقط أمام خطر خسارة الحُريّة وعيش القناعات الشخصيّة. بالمناسبة هل علمت مضمون مشروع ضَمير أو رسالته!؟

- أتقصدين مشروع "حكاية طَموح"!؟

- رويدك يا صديقي! لقد اعتقدت أن أعينكم ساهرة تراقب من الخارج ولم أخل أنكم كنتم جالسين بيننا! فكيف علمتم بعنوان المشروع وقد قررناه نحن اليوم!؟ لا شكّ أنّ مَن ذكره لك كان بيننا ومعنا.

- حُريّة، لقد قلت لك إنني قرأت برقية قبل مغادرتي مكتبي وكانت برقية مفصّلة. كما أنني لا أناقش تفاصيل عملي أبدًا. وجلّ ما أردته من هذا الإتصال هو تحذيرك وقد فعلت. والآن لقد تأخر الوقت بعض الشيء ولا أريد إزعاجك أكثر. لا بُدَّ وأننا سنتحدث لاحقًا، وتأكّدي أنني أحميك دومًا، كما كنت أفعل سابقا، وسأحيا عضدًا لك في حياتك وفق كلّ الظروف.

- أشكرك يا صديقي العزيز، حقًّا إنني محظوظة جدًا لوجود أمثالك في حياتي، وبالتأكيد ستكون لنا لقاءات وحوارات مطولة فيما بعد. فإلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

sarkht damir inside.indd 124 24/04/2018 03:18:27

أقفلت حُريّة هاتفها وسافرت في بحر أفكارها، تائهةً بين أمواج الشكّ العاتية متسائلة كيف للقوى الأمنية أن تعي عنوان المشروع الذي أقرّوه قبل ساعات قليلة من إتصال القائد إلتزام. فأخذت تشكّ في ضَمير أولا، مسائلة نفسها: "هل هي صادقة في مهمتها أمّ أنها تلعب لعبة مزدوجة بين الناس وبين السلطة لمساعدة المسؤولين في تفادي غضب الشعب من خلال خطوات استباقيّة؟" كذلك خطر لبالها شجاع، وسألت نفسها إن كان قد تغيّر مع الزمن. وفي حال أصبحت له علاقات مع السلطة دفعت به

sarkht damir inside.indd 125 24/04/2018 03:18:28

إلى الكشف عن اللقاء، لكنها سرعان ما ألغت هذه الفكرة من رأسها، وتذكّرت كلام شقيقها الراحل طَموح قبل رحيله يوم قال لها: "في حال قُتِلَ شخص الثِقة في مهده أمامك يا حُريّة، إيّاك وأن تفقدي ثقتك بشجاع. لأنّني أعرفه أتمّ معرفة، فهو أمين وصادق ولن يخونني حتى بعد موتي، فقد تركتك أمانةً بين يديه".

وقد تنبّهت إلى أمر مهم، هو أنّ إلتزام كشف لها في إتصاله، عن إجتماعات عدّة تعقدها ضَمير كان آخرها لقاءهم في مكتبها، أيّ أنّ المستهدف هي ضَمير ونشاطها مع رفاقها، ذاك في حال كان الأمر حقيقيًّا، بدليل أنّ البرقية ذكرت لقاءات سابقة لم تكن حُريّة وشجاع معها فيها. لهذا أبقت ضَمير وموثوق مع موهوب في دائرة الشكّ، وصمّمت على معرفة الواشي. لكنها قرّرت ألا تفصح لأحد عما تفكّر فيه إلى حين جلاء الحقّيقة التي ستظهر عاجلًا أم آجلًا.

عائقٌ جديد

وصلت ضَمير في اليوم التالي إلى منزل شجاع برفقة موثوق وموهوب، وتوجهوا مباشرة إلى دارة متموّل، وقد أخطره شجاع قبل يوم بالزيارة فكان في إنتظارهم. وما إن وصلوا إلى القصر الكبير، حتى إستقبلهم مدبّره وإستضافهم في صالة كبرى موّشاة بثراء فاحش من أثاث وتحف وتماثيل ومجسّمات أغلبها من ذهب. وما هي إلّا لحظات، حتى أطلّ عليهم «متموّل» حاملًا سيجاره مرتديًا ثوبًا من فرو، مزركِشًا يَديه بخواتمَ تَلمَع باللؤلؤ والماس. فقال مُرّحِبا:

– أهلًا وسهلًا بكم في قصري. بنيته ليستحق عالمي.

– أمّا نحن فنعي تماما أنّنا لسنا من عالمكم يا سيّد متموّل، ولكننا طامعون بأن تزورونا في عالمنا.

– ومَن تكونين يا آنسة؟!

– إسمي ضَمير، هذا صديقي موثوق، وهو الفنان موهوب، أمّا شجاع فهو إبن بلدتك ولا حاجة لأن نعرّفك به.

sarkht damir inside.indd 127 24/04/2018 03:18:28

- ولِمَ قلتِ إنكم لستم من عالمي؟

- عالمكم مخمليّ أما عالمنا فمتواضع طبيعيّ.

وراح متمول يتحدث بنبرة متعالية، وقد بدت عليه معالم التكبّر أمام ضيوفه. لكنّه رغب في أن يتابع اكتشاف سبب زيارتهم إليه.

- لقد أعلمتك البارحة يا عمّ متمول بقدوم ضَمير وأصدقائها، وبأن لديها مشروعًا تبحث له عن جهّة منتجة تموله.

- نعم يا شجاع، ولكن لم تسرد لي أيًّا من التفاصيل التي أحتاج إلى معرفتها. لهذا أنتظر من الآنسة ضَمير أن تطلعني على تفاصيل مشروعها من كافة جوانبه.

- لقد درست الإعلام والإخراج وكنت أنتظر فرصة لأحقّق رغبة دفينة تقضّ مضجعي، وبيننا ممثّل حاضر ليكون خير سند لنا في سعينا... ومشروعنا لن يتعدّى كونه فيلمًا يتناول حكاية شابٍ بطل من بلدتكم.

- إذا تريدين إنتاج فيلم... حسنا، ومَن البطل الذي تتحدّثين عنه؟

- إنّه طَموح...

sarkht damir inside.indd 128 24/04/2018 03:18:28

– طَموح، رحمه الله. حقيقةً، ورغم إحترامي لشخصه وعائلته، مَن قال لك إنني أهتم لتمويل مشروع مشابه. ومِن المؤكّد ستكون له تبعات سلبية على كلّ مَن يشارك ويساهم في إنتاجه.

– لم لا تتفاءل بالخير؟ خاصة أنّ المشروع يتناول فارسا إنسانيًّا عاش ومات في سبيل الخير والحقّ.

– لأنّ حياة طَموح وخاصة في شقّها السياسي الإجتماعي، لا بدّ وأن تُعيب فساد كثيرين.

– وهل هذا سبب كافٍ لإيقاف المشروع أو التخلّي عن تمويله؟

– بالطبع، لأنّ أغلب مَن في السلطة قد أدركهم الفساد، ومنهم أصحاب قرار ونفوذ، وأنا ليَ مصالحي الخاصة ولا أريد أن أفتعل مشاكل مع أحد.

– وبماذا ستنفعك مصالحك في حال تخلّيت عن الخير ومبادئ الحقّ؟ فهل تختصر قيمة وجودك بوجود مصالحك، أمّ أن وجودك مقرون بالعزّة والكرامة والشهامة؟

– إحذري أن تدخلي دائرة المحظور يا آنسة، فمن الواضح أنك فرسٌ جامحة تطلق الكلام بغير حدود.

– أرجوك حافظ على أسلوب اللّطافة والإحترام.

sarkht damir inside.indd 129 24/04/2018 03:18:28

غضب شجاع لأسلوب كلام ابن بلدته مع ضَمير، وقد بدا جليًّا إهتمام شجاع لأمرها. وتابع متموّل قائلا:

– لم أخطئ في حقّها بعد!

– وهل تريد ذلك؟

– لن أصل إلى مرحلة إهانة ضيفي يا سيّد موثوق، ولكنه سيعي متى يحين وقت رحيله في حال أخطأ معي.

– سيّد متموّل... لقد حمّلني أحد الأشخاص رسالة إليك، وقال لي إنّه يتوقع موقفًا سلبيًا منك، وطلب منّي أن أستأذنك لإلقائها على مسامعك.

– من هو؟ وما مضمون رسالته؟!

– لقد قال إنك ستعرفه متى سمعت كلماته: "إنّ الكون عظيم، والقادر عليم، والعقل حليم، والزمن أليم. فالإنسان رميم، جسده عديم، جديده قديم، قديمه سقيم، وثروته هشيم. فمَن ملك من الدنيا فمُلكُه سراب، ومَن عيّب الناس فمن مرآته استعاب، ومَن ظلَم الناس فقد عاش في ارتياب، ومَن تخلّف عن الخير كُفِّر بالحقّ وما تاب".

لم يستطع الزمن أن يمحو صورة "متنوّر" رفيق عمره وصديق دراسته. وفي تلك اللحظات أطفأ متموّل سيجاره في حضرة الجميع إحترامًا لصديقه، وكان قد بدا عليه التأثر جدًا. فسأله شجاع:

sarkht damir inside.indd 130 24/04/2018 03:18:28

- إذًا أنت صديق المعلم متنوّر؟!

- لقد كُنّا أعزّ صديقين...

- هل وقع خلاف بينكما؟

- أنا لا أعرف، وكي أكون صريحة أكثر معك، قد سألت جدي عن العلاقة التي تجمعه بك، فرفض أن يصارحني وقال: "إنّ الشخص الذي تريدون زيارته يا ضَمير،كان قد غرق منذ زمن بعيد في مستنقع الزمنيّة، ولكم أن تُدركوا بعدها إن كان قد نجا منه".

- ولكن ما الّذي يجمعُكِ به؟

- إنّه جدي.

- جدّك! إذًا لا عجب من حدة ذكائك وحماستك وثورتك.. ذاك لأنّك على منواله وتنتهجين نهجه. فمن الواضح أنك تعيشين معه، وقد عمل على تربيتك جيّدًا. فمعالم فِكره واضحة في نظراتك الثاقبة وكلماتك الجريئة الواعية.

- شكرا لك على هذا الإطراء يا سيّدي، ولكن أرغب في أن أسألك عن الخلاف الذي نشب بينكما، وخاصة أنكما كنتما صديقين مقرّبين؟!

- إسمعوني جيدا يا أبنائي، سأقصّ عليكم حكايةً قصيرة حصلت معي منذ زمن مضى. سابقًا لم أكن لأؤمن بالعلم كقوة

sarkht damir inside.indd 131 24/04/2018 03:18:28

تغييريّة في حياة الإنسان، وما كنت لأرى فيه سببًا فعليًّا للاغتناء. وضعتُ المال نُصب عينيي هادفًا نحو الثراء، وما كان يعنيني العلم بجوهره، بل كنت أرى فيه مرحلة مفروضة عليّ حتى أحقق مآربي وأهدافي. لهذا لم تكُن نتائجي الأكاديمية مقبولة البتّة، وقد كنت على شفير الطرد من الجامعة. إلى أن تعرّفت إلى طالبٍ قدّم لي العون، وأنار دربي وساعدني حتى أنهيت بنجاحٍ إختصاصي، ومُنذ ذلك الحين صرنا صديقين حتى وقع ما لم يكنٍ في الحسبان!

– هو جديّ متنوّر.. أليس صحيحًا؟ ولكن ما الذي حصل بينكما حتى خسرت أعزّ صديق؟ وهل من الممكن للمرء أن يخسر صديقا مُفضِلًا؟ ولأيّ سبب؟!

– قد حمل أفكارًا تعارض أفكاري. ففي حين عرفت أنّ المال جوهر رئيس، ومن دونه لا يمكن للمرء أن يثبت وجوده ويكسب احترامه في المجتمع. هو أدرك أنّ في الثروة عاملَ ضعفٍ لا قوة، وسببًا لفساد روح المرء وابتعاده عن الحقّيقة المطلقة لسببية وجود الإنسان على الأرض.

– وهل ذلك سبب كاف لهدم أركان صداقتكما؟

– لا شكّ أنّ التناقض والتعارض الفكري بين الأصدقاء صارا علّة الجفاء والإفتراق. فالنار لا تصادق الماء أبدا، وعندما يتصادفان لا بدّ لعنصر منهما أن يلغي الآخر. بعد تخرّجنا بقينا صديقين، وقد اختار متابعة دراسته لنيل شهادات عليا تمكّنه من الحصول على منصب محاضر في الجامعة الوطنية فهذا أشرف

sarkht damir inside.indd 132 24/04/2018 03:18:28

منصب إنسانيّ يسمح له بنقل بمعارفه إلى الأجيال، وحثّهم على فعل الخير والصواب.

أما أنا فكنتُ قد حصلت على وظيفة جيّدة في إحدى إدارات وزارة التعليم، وتطورّت بسرعة حتى تسلّمت منصب المدير العام. وكان متنوّر قد بدأ عمله في الجامعة كما تمنّى. بدأنا في تحقيق ما نصبو إليه. فثروتي صارت في تزايد مستمر، ولمع اسمه في مجال التعليم وما عادت تسَعُ قاعات محاضراته عدد الطلاب المسجل في صفوفه.

زرته ذات يوم وأعلمته، أن هنالك قرارًا يقضي بتعيينه في منصب رئيس الجامعة، نتيجة إنجازاته وثقافته الواسعة. وأنني طرحت اسمه لدى الوزير فنقله بدوره إلى الحكومة. سألني بعدها إذا ترشّح أحد غيره، فأجبت له أنّه الوحيد. حينئذ قبل بما عرضته.

– إذا ساهمت في تعيينه رئيسا. فلم تخلّى عنك؟ فالمعلم متنوّر رصين رزين وفيّ ومن المستحيل أن يخون عهد الوفاء.

– أنت محقّ يا أستاذ موهوب، ومن الواضح أنك تعرفه جيدا.

– لكنّه ما خان العهد، بل أنا.

– أيعقل هذا؟

– ألم يقل لك جدّك يا آنسة ضَمير أنني غرقت في مستنقع الزمنيّة؟ وهذا ما حصل. فبعد أن عيّن جدّك رئيسا للجامعة

sarkht damir inside.indd 133 24/04/2018 03:18:29

أتيت إليه بعد فترة حاملا معي فكرة مشروع ترميم الجامعة بآلات علميّة حديثة وتجهيزها، وطلبت أن يحضّر دراسة كاملة تساهم في تطويرها وجعلها من الصروح الرائدة في العالم من خلال تحديد الاحتياجات والنواقص. وعندما رغب في معرفة السبب، أجبته أنّ جهات دوليّة ستموّل مشروع الترميم، كما تعرض علينا تجهيز الجامعة الوطنية، لكنّنا بحاجة إلى دراسة وافية تعدّها. فأنت المسؤول عن هذا الصرح الأكاديمي الوطني حتّى نستكمل كافة الإجراءات. واستفسر عن تلك الخطوة إن كان لها أيّ أعباء مالية على القطاع العام بشكل خاص أو على الدولة بشكل عام، فأجبته بالنفي.

لأنّه أكّد أن الجامعة تسير وفق خطى ثابتة وأنّ التطوير ليس أولوية وأنه لا يقبل بأيّ خطوة قد تؤثر في رواتب الأساتذة المحاضرين أو المسؤولين في الجامعة. ولا حاجة لتحميل الدولة الأعباء المادية في حين أن الجامعة تستطيع القيام بدورها في الحالة التي هي عليها. أوضحت له أن ذاك المشروع منحة لا أكثر ولا أقل. فما كان منه إلا أن حضّر الدراسة تلك ومهرها بختمه وسلّمني الأوراق بعد أيام. لكن ما أستطيع قوله إنّ ذاك العمل كان منافيا للأخلاق ولم يتحمّل نتيجته، فاستقال من منصبه ثمّ غادر البلاد.

- أراد جديّ فعلا التأكّد من انهزاميتك، وعدم جرأتك على قول الحقّيقة كاملة لهذا أحسبه لم يخبرني، غير أنّني استنتجت

sarkht damir inside.indd 134 24/04/2018 03:18:29

ما حصل بينكما. جديّ رجل مبادئ، والصداقة تعني له الكثير، وكان يثق بأصدقائه، ومن الواضح أن تلك الإتفاقية لم تكن شفافة كما ذكرت بل كانت صفقة، عادت على القيّمين عليها بنفع كبير، ومردود ماديّ جيّد كعلاوة على المساهمة في إتمامها. كل هذا يصنّفه جدي خيانة عظمى.

كان متمول يتمشّى في الغرفة متحدّثا إلى ضيوفه وفي صوته غصّة تأنيب لخسارة إنسانية لا تعوّض. فمن الواضح أنّه يحترم متنوّر جدّا وهو حزين لخسارة صداقته. فتابعت ضَمير قائلة:

- ويبقى السؤال الأهم، هل تملك الجرأة يا سيدي، بأن تقول لنا تفاصيل تلك الصفقة التي دفعت جدّي إلى الاستقالة من منصبه ومغادرة الوطن؟ فلا شك أنّها كانت خيبة أمل كبيرة جدا.

- سأبوح بالأمر لعلّني أريح ضَميري بعض الشيء، ولو أنني لن ألتقيه لأنني حاولت سابقا بعد معرفتي بعودته وقد رفض.

sarkht damir inside.indd 135 24/04/2018 03:18:29

قلت لكم، إنّني كنت أرى العالم من زاوية مادية، وأعتبر المال أهمّ ما فيه. تلك الصفقة ما كانت إلا لعبة وزير ومعاونه، وكنت أنا مَن طرح الفكرة عليهما. قد جمعتني بالوزير معرفة قوية، عاونته في كثير من الأمور في الوزارة والإدارات. فأتى ذات يوم إلى مكتبي مع معاونه، وسألني إن كانت تحتاج إدارتي إلى شيء ما، فقلت له إنّ الإدارة لا تحتاج أما نحن فبلى. فضحك وأبلغته حاجتنا إلى المال. فردّ متلهّفًا يفرك يديه حبورًا: وكيف السبيل إلى ذلك؟

قلت له، إنّ جهات دولية سوف تموّل وتجهّز صروحًا تربوية، وما علينا إلا أن نرفع طلبا باسم حكومتنا لتلك الجهات، لتعطينا قروضا ميّسرة طويلة الأمد بفوائد متأخرة لسدّ حاجتنا. فسألني: وهل نستفيد نحن من ذلك؟ قلت، إنّنا نستفيد من كافة الجوانب. نطرح الفكرة مسبقا مع بعض الشركات المتعهدة والجاهزة للعمل في كافة المجالات، ونخبرها أنّنا في صدد تقديم دفاتر شروط، ولكننا لن نطلعها على خباياها إلا في حال أدّت قسطها لنا من عمولة نحدّدها نحن.

- وهذا يكفل أن تشتري به عداء جدّي، لا أن تخسر صداقته فحسب.

- نعم يا ضَمير!

- أكمل أرجوك، أريد أن أعرف المزيد منك، فتلك أحداث تفيدني في تأدية عملي.

sarkht damir inside.indd 136 24/04/2018 03:18:29

– سأخبرك يا أستاذ موهوب، لعلّك ذات يوم تؤدّي دور متنوّر لا دوري، فتنصر الصواب في عملك وتظهر الباطل.

– حسنا أخبرنا أرجوك!

– لقد كان الوزير متحمّسا لفكرة العمولة، وبحكم العلاقة الوطيدة التي تجمعه برئيس السلطة آنذاك، وهو صاحب التوقيع النهائي، ضَمِن تحقيق مبتغانا. فطلب توضيح بعض التفاصيل، فقلت له: نحن نحدّد احتياجات الجامعة من خلال دراسة يعدّها رئيسها، وحين أراد تبيُّنَ موقفه وإن كان سيشكّل عائقا أمامنا، قلت له إنّه صديق يثق بي بما لا حدّ له، ولن يبحث في خبايا نوايانا. وبعد أن تصبح الدراسة كاملة بين أيدينا، وقبل تقديمها إلى السلطة، نتابع مع أصحاب الشركات والمتعهدين شأن عمولتنا، والمبالغ التي نريدها. فمتى تأكّدنا منهم وتمّ إتفاقنا كما نبتغي معهم، نطرح المشروع أمام السلطة، وهنا يأتي دورك بالضغط عليهم للموافقة على التمويل من خلال مصاريف الموازنة العامة. ومتى تأمّنت الأموال، نطرح دفتر الشروط الذي سنطلع عليه أصدقاءنا المتعهدين، فنضمن تفوّقهم على منافسيهم وحصولهم على تعهّد السلطة. ثمّ سيحصلون على ما يشاؤون ونحصل نحن على عمولتنا. ومن ناحية أخرى نكون قد قدّمنا خدمة للأجيال بتطوير الصرح الجامعي الوطني الأوّل.

sarkht damir inside.indd 137 24/04/2018 03:18:29

- لكنني وكما أرى أنّ الصرح لم يتطوّر كفاية كما خططتم يا سيد متمول.

- نعم... فرغم صرف القسم الأكبر من الأموال للمتعهّدين وحصولنا على عمولتنا إلا أنّ المشروع لم يكتمل. لأّن حكومتنا لم تقدر على دفع الديون المانحين الدوليين، ورزحت الخزينة تحت أعباء مادية كثيرة منذ السنة الأولى، فما أكمل المتعهّد عمله، وإضطرت بعد ذلك حكومتنا لإيقاف المشروع. وعمدت إلى إقتطاع ضرائب وأجزاء من رواتب الموظفين لسدّ العجز.

- إذا ها هي الحقّيقة تنجلي وها هنا يكمن السبب الرئيس خلف عداء جدي لك...

- بعد عام، فضح الأمر، فوقع ما حذّرني منه متنوّر، وما لا يمكن له أن يقبله، لناحية تحميل موظفين الجامعة أعباء مالية لسد العجز المترتّب عن المشروع. وخاصة بعد علمه أنّ الجهات المانحة الدولية كانت تقرض حكومتنا الأموال مقابل فوائد مالية. وذلك أغضبه جدا، واعتبر أنه يتحمّل مسؤولية ما حدث، فإستقال وهاجر.

- ولكنّ المعلم متنوّر لم يكن يعلم خبايا تخطيطكم وما فعلتم به وبالجامعة، فلم تكبّد عناء فشلكم وفسادكم؟

- لأن في قلبه ضَميرا ينبض...

sarkht damir inside.indd 138 24/04/2018 03:18:30

– الآن فهمت لماذا كان جدّي دائم الحزن في غربته، ولم يكن الأمر هجره الوطن الذي أحبّه، إنّما لأنه اعتبر نفسه مسؤولا عما حصل لموظفي الجامعة والخسارة التي تكبّدها الصرح الوطني جرّاء تحضيره دراسة ترميم وتجهيز كان قد طلبها منه "متمول". حقا قد خنت...والخيانة ذلّ وعار.

– لا توجّهي الإهانات يا ضَمير، فقد كنت صريحًا معك لأنصف جدّك أمامك محاولا تخفيف عبء عمل فاسد اقترفته منذ زمن.

– من حقّ جديّ أن يغضب منك ويتخلّى عن صداقته لك، وصرت أكثر إدراكًا لمسأله هجرته لأنّه صادق في مواطنته، وما حسب نفسه يوما قادرا على خذل الخير العام.

– حسنا وبالعودة إلى مشروعنا "حكاية طَموح"، فما العمل؟

– موهوب لا داعي لسؤالك هذا، فقد قال السيّد متمول بوضوح أنه يخشى على مصالحه، لهذا أعتقد بأنّ زيارتنا إنتهت، فهيّا بنا.

– مهلك يا ضَمير... مهلك.

حاول متمول حثّ ضَمير على البقاء وعدم المغادرة، فمن الواضح أن موقفه قد تبدّل بعد ما دار بينه وبين حفيدة

sarkht damir inside.indd 139 24/04/2018 03:18:30

صديقه القديم، وقد تبدّلت أيضًا ملامح وجهه نحو القبول والتواضع، فقالت ضَمير:

– وما الذي يدفعني إلى البقاء وقد أوضحت موقفك ورأيك من المشروع.

– وهل فكّرت في أنني قد أكون بدّلت رأيي عندما علمت هُويتك.

– أحقًّا قرّرت تمويل المشروع؟ هل أعد نفسي بالعمل؟

– وهل ما يعنيك هو العمل وتقاضي المال يا موهوب؟

– ليس تماما يا شجاع لكنّني فرحت لتبديل السيّد متمول موقفه من المشروع.

– من الواضح أن لك شروطًا مقابل تمويلك مشروعنا!

– لي في الحقّيقة عندكم طلبان.

– علمًا أنّني لا أحبذ أن يشترط عليّ أحد في عملي، ولكنني سأتكبّد عناء سماع مطالبك. فهات ما عندك.

– بداية أمّني لي مقابلة مع جدك متنوّر، فلعلني أستعيد صداقته وثقته. وتاليًا أريد ألّا يظهر اسمي للعلن وخاصة للأجهزة الأمنية لأنّ لي مصالحَ مع كبار مسؤولي الدولة، ولا أقبل بخسارتها. كما ان هذا المشروع سيجلب العداوة لكلّ مَن يعمل في سبيله مع معظم السلطويين.

sarkht damir inside.indd 140 24/04/2018 03:18:30

– حتّى أكون أكثر وضوحًا معك في ما خصّ جدي تأكّد أنني سأنقل رغبتك له في مقابلته. لكنّني لا أضمن لك موافقته على لقياك. لأن جدّي حاله حال إبريق الفخار متى كسر لا يعود إلى سابق عهده بل يبقى الجرح نازفًا فيه... وخيانتك له لم تكن بالأمر السهل، خاصة أنها تعاكس قناعاته وأفكاره. أما في ما خص طلبك الثاني فأضمن لك أنّنا لن نفضح مشاركتك معنا ما دمت طلبتَ ذلك وسنحترم رغبتك رغم أنها مشاركة واجب أن تشعرك بالفخر والإمتنان.

– أتركي لي مسألة الفخر، فانا أعلم جيدا بما سأفتخر. وهل تتوقّعون نجاح مشروعكم؟

– سأعيد على مسامعك ما قاله لي طَموح يوما، عندما قرّر دخول عالم السياسة:

– إنّ الذي يعيش على التوقعات يتقهقر في حياته ولن يحصد ثمار أحلامه. فنحن علينا الحلم والسعي وتبقى للقدر الكلمة الحقّة".

– قاده حلمه إلى الموت، وقتل في سبيله، أهكذا تكون الأحلام حتّى نموت في سبيلها؟

– طَموح فضّل أن يحيا ساعيا خلف تحقيق أفكاره وعيش قناعاته، فهو القائل: "ما قيمة الحياة إن عشت فيها مهزومًا مسلوب القرار والخيار؟ قد تبقى أفكارنا سجينة العقول.

sarkht damir inside.indd 141 24/04/2018 03:18:30

فلماذا نحيا في هذه الدنيا إن كنّا سنحياها خلافًا لقناعاتنا وطَموحاتنا؟" فلا قيمة للإنسان مهما جمع من مال وسلطة إن كان يحيا مغبونا خلافا لقناعاته ومبادئه.

هذه الكلمات تحاكي واقعنا اليوم عامّة وهذا اللقاء خاصّة، أليس كذلك يا متموّل؟

– فهمت قصدك! ولكن أخبروني، هل تعتقدون أن للفقير دورًا في عالم السياسة؟ هو عالم يتطلّب مالا وفيرا، وعلاقات واسعة. ففي السياسة لا حاجة للعلم متى توفّر المال.

– أتعلم أنّك جرّاء ما تقوله تستحضر أمامي طَموح وكلماته. فكأنّه زرع فيّ إجابات عن كل ما تسأله.

– وكيف ذلك يا شجاع؟

– قد قال حرفيا: "من قال إنّ السياسة لأهل المال والأعمال؟ كيف لأناس لم يشعروا بالفقر يومًا أن يكافحوه؟ كيف لهم أيضًا أن يؤمّنوا فرص عمل للفقراء، وهم لم يتعلّموا ليعملوا؟ كيف سيُؤمِنون بالكفاءة معيارًا وهم من جعلوا الوساطة محور حياتهم؟"

– والآن ما الخطوة التالية؟

– الآن سنذهب لمقابلة حُريّة لنخبرها أنّنا حصلنا على دعم السيّد متموّل، حتّى تتهيّأ للخطوة التالية.

sarkht damir inside.indd 142 24/04/2018 03:18:30

– لكن أتمنّى ألا تنسوا ما طلبته منكم، وفي حال لم تلتزموا، فسأتراجع عن دعم مشروعكم.

– كنتَ صريحًا معنا، ونحن ممتنون لك. وقد قرأت في عينيك حنينا لصداقة جدي، فرغم كلّ ما اقترفته في حقّه إلا أنّك تُقدّر صداقتكما كثيرًا.

– لو أمكنني إعادة عقارب الزمان للوراء، فلن أقدم على ما اقترفته في حقّ جدّك، لأن نبله جعلني أشعر بالخزي والعار طيلة حياتي رغم أنه لم يوجّه إليّ إهانة واحدة.

كان في استطاعته متابعة حياته العملية والبقاء في وطنه لأنّه لم يكن صاحب الفكرة ولا تقع مسؤولية الفشل عليه، إلا أن صوت الضّمير كان صارخا في أعماقه، ومبادئُه الحقّة دفعته إلى التضحية. لقّنني درسا لن أنساه مدى حياتي.

– والآن قبل رحيلنا، أوصاني جدي وصية وحمّلني رسالة أخرى أرادني أن أسلّمها إليك، ولكنك تنالها في حال سمعتُ في كلماتك صوت الندم، بعد أن تسرد حقيقة ما حصل بينكما.

أخذ متموّل رسالته صديقه القديم متأثرا، وعيناه تبحثان عن كلمات تسرّه ويكون فيها من المسامحة ما يثلج قلبه، فقرأ فيها:

sarkht damir inside.indd 143 24/04/2018 03:18:30

"الإنسان كائن عاطفي بطبيعته، فقد ميّزه القدير عن باقي خلقه بالمشاعر إلى جانب غريزته ومنّ عليه بنعمة العقل. وميزة المشاعر تلك، تفرض على مَن يعرف قيمتها ألا يحيا خلافها. لقد كنّا صديقين، والصديق لا يخون. وأنت خنتني، وقد جعلتني أعيش بؤسا وحزنا لا مثيل لهما، حين خسارة ثقتي بك. إلّا أنّ مشاعر الصداقة كانت صادقة بيننا، ويستحيل أن تموت رغم كبوتها. نحن جميعا معرّضون للخطأ، ونسأل الله المسامحة، وما دام فعل المسامحة يسكن في علياء السماء، فكيف لنا نحن مخلوقات الله الضعيفة ألا نسامح بعضنا بعضًا؟ لذا أتمنّى أن تجد السلام في حياتك يا صديقي متموّل، وفي حال كنت تقرأ هذه الكلمات، فهذا يعني أن حفيدتي قد وثقت بك، لا تغدر بها أو تخُن عهدك لها... وإنني سأسرّ للقياك مجددا يا صديقي. فإلى اللقاء في حال أراد لنا خالقنا أن نلتقي يوما ما في هذا العالم الفاني الهزيل".

وقد كانت ضَمير متيقنة أنّ رسالة جدّها ستبدّل مواقف صديقه القديم، لجهة دعم مشروع "حكاية طَموح". كما علمت أن جدّها كان محقًّا عندما توقّع ردّة فعل متموّل.

إنتهى اللقاء، ورحلت ضَمير من قصر متموّل مع أصدقائها والأمل يملأ قلبها لإحتمال نجاح مشروعها، وكانت تتوق لتخبر حُريّة عما حصل معهم، وبأنه وافق على تمويل المشروع. وخاصة بعد تعهّده بأنه لن يخذلها كما خذل جدّها متنوّر سابقًا، وبأنّه سيفعل المستحيل لمساعدتهم.

sarkht damir inside.indd 144 24/04/2018 03:18:30

ترصّد الحقّيقة

في اليوم التالي هاتفت ضَمير حُريّة لتخبرها بما جرى معها، لناحية قبول متموّل تمويل مشروعهم، فسمعت في صوتها قلقا غريبا، فسألتها :

– حُريّة، خلتُ أنك ستفرحين لهذا الخبر، فما الذي أصابك؟

– قد أخبرني شجاع عما جرى معكم في حضرة متموّل، لكنني شككت في أن الأمور ستتغير، حتى أدركت هذا الصباح أمرًا غريبًا. ضَمير أنا أثق بك، وأثق بخبايا نواياك تجاه التزامك قضيّة شقيقي الراحل الوطنية والإنسانيّة، لكنّني لا أثق بواقع الحال... فتسارُع الأحداث التي نعيشها منذ أن قرّرنا العمل على مشروع حكاية طَموح تُشعرني أنّنا أيقظنا الوحش من سباته.

– وعن أي وحش تتحدّثين؟

– وحش الفساد... وحش الظلام...

– وما الذي تريدين التأكّد منه؟

sarkht damir inside.indd 145 24/04/2018 03:18:30

– كلّ شيء، كلّ شيء... ضَمير لا تلوميني، هي حياة شقيقي وتفاصيلها هي صلب مشروعك. ولا أريد أن يصيبه الفشل بعد رحيله فإذا لم تكن النتائج مضمونة فلنتوقف عند هذا الحدّ.

– إسمعي يا حُريّة، قد تكونين شقيقته، لكنّك لا تملكين البتّة حقوق فكره وذكراه. طموح عاش في سبيل الوطن ولخدمة خير الناس، ولهم كافة حقّ ملكية أفكاره ونضالاته التي ضحّى بحياته في سبيلها. فإن كنت تريدين التراجع فذاك قرارك رغم أنني سأشعر بالأسى، لكن تأكّدي أنني مستمرة وسأنجح ولن أخاف الآن في هذه المرحلة. فمِن حقّ الوطن والمجتمع أن يتذكرا وألّا ينسيا طموح، الفكرة والنهج لا الشخص.

– كلامك هذا أعطاني دفعة ثقة بك أكثر، وما أردت إلا التأكّد من صلابة عزيمتك وصدق إرادتك في إتمام المشروع. والآن سأصارحك، وتأكّدي أنّني سأكون معك وإلى جانبك دوما، وليس في مشروع "حكاية طَموح" وحسب.

– إذا أنت تخفين عني أمرا ما... فما هو؟

– بعد لقائنا في مكتبي مع موثوق وموهوب وشجاع، تلقيت إتصالا غريبا في مساء ذلك اليوم، ولم يكن غير قائد القوى الأمنيّة.

– أتعنين القائد إلتزام؟

sarkht damir inside.indd 146 24/04/2018 03:18:30

– نعم... هو عينه.

– وهل تعرفينه؟

– هو صديق مُقرّب. فقد كان زميل شقيقي في الجامعة، وقد تعرّفت إليه عندما كان يترأّس قسم الشرطة في العاصمة عند محاولتي إعادة فتح ملف قضية الاغتيال.. وقد كان له الدور الأبرز في مساعدتي لكشف الحقّيقة.

– وما كان سبب إتّصاله؟

– لقد حذّرني منك، وطلب منّي أن أبتعد عنك، ثمّ سألني عن سبب الإجتماع في مكتبي.. هذا الأمر نزل عليّ كالصاعقة، فما تعوّدت أن أكون مراقبة أو ملاحقة.

– لا تخافي... هذا إجراء عاديّ، هم قصدوا مراقبتي أنا.

– في لقائنا الأول طلبت منّي ألا أخاف، وها أنت تكررينها الآن. يا صديقتي إنّ مَن واجهت ألم موت أحبائها وما أرهبها أي تهديد أو وعيد، ولا خطر مرضها، وإيمانها بالقدير الجبار، لن تعرف الخوف أبدا.

– آسفة ما قصدت كلامي...

– لا عليك، ولكن لم يكن موضوع مراقبة القوى الأمنية ما يشغلني ويقلقني، إنّما هو معرفتهم موضوع اللقاء ومضمون الحوار الذي دار بيننا، كما عنوان المشروع. وأنا

sarkht damir inside.indd 147 24/04/2018 03:18:30

أذكر أنّنا قرّرنا العنوان يومها، فكيف لقوى الأمن أن تعرفه في اليوم عينه؟

– أتقصدين...

– نعم... هنالك خائن بيننا!

– لا أصدق، جميعنا أهل ثقة ونهتم للمشروع.

– إذًا، ماذا رأيك في ما يقوم به موثوق؟ أهو محطّ شكّ؟

– أبدا يا حُريّة لا أشك فيه البتّة، أتعلمين أن موثوق دافع عني لدرجة أنه خاطر بحياته أكثر من مرّة في مظاهرات عدّة؟ كما أنّه مؤتمن على أسراري وأفكاري، ولو أراد أن يضر بي لفعل منذ زمن... جدّي يثق به كلّ الثقة، فهو على معرفة به وبعائلته.

– وماذا عن موهوب؟

– موهوب عاد إلى الوطن منذ فترة قصيرة، ولا أعتقد أنه استطاع التآلف مع القوى الأمنية بهذه السرعة، كما أنه زميلي وصديقي منذ أيّام الجامعة، ولن يخونني أبدا. ولكنك تسألين عن أصدقائي، فلم لا أسألك عن شجاع؟ وقد قلت إنّ إلتزام كان زميل طَموح في الجامعة، فلم لا يكون هو مَن أخبر إلتزام؟

– لقد ذكر إلتزام أنّ تقريرا وصل إلى مكتبه عن إجتماعنا قبل خروجه من المكتب، فشجاع باستطاعته مكالمته وليس

sarkht damir inside.indd 148 24/04/2018 03:18:30

بالضرورة أن يكتب تقريرا. كما أنك تتحدّثين عن شقيق طَموح روحًا وفكرًا، ورفيق دربه والمؤتمن على أسراره ورحلة نضاله. أمنّه عليّ أنا شخصيا، وطيلة فترة غياب شقيقي عنّا لم يخطئ شجاع ولو لمرة واحدة في حقنا... لا أشك أبدا فيه...

– هو الحال عينه مع أصدقائي، فأنا أثق بهم تماما.

– إذا كيف عرفوا باللقاء الذي جمعنا في مكتبي؟ أمس أيضا علمت الجهّات الأمنية بلقائكم مع متموّل وبموافقته على تمويل المشروع. ومن البديهيّ أن يتراجع عن دعمه لنا...

– يا إلهي، لقد إشترط عليّ شرطين للتمويل، وأحدهما هو عدم معرفة أي جهة رسمية بتبنيه مشروع "حكاية طَموح" وخاصة الأمنية منها، متخوّفا على مصالحه مع رجال السلطة في حال علموا. فهو متيقن مسبقًا من إنزعاج أهل الفساد من نتائج ما نقوم به عليهم ومدى الإحراج الذي سنسبّبه لهم أمام الرأي العام.

– إذا توقّعي إتّصاله وعزوفه عن الدعم.

– لقد إتصل بالفعل وطلب لقائي اليوم في حضرة جدّي متنوّر.

– على الأرجح خجل من أن يبلغك قراره عبر الهاتف فقرّر زيارتك.

sarkht damir inside.indd 149 24/04/2018 03:18:31

– ولكن كيف علمت قوى الأمن فحوى لقائنا مع متموّل؟ حتى لو علموا زمن اللقاء فمن الغريب أن يعلموا تفاصيله.

– هذا سبب إنزعاجي يا صديقتي، وسبب شكوكي في مدى إلتزامك متابعة المشروع.

– الآن أصبحت أكثر إصرارًا على إتمام مشروعنا، فنحن لا نقترف أيّ ذنب، كما أننا لا نخالف القانون، ولن ننزعج من قوى الأمن ومراقبتهم لنا، فهم يقومون بواجبهم.. وهذا ضروري لضمان الأمن والأمان في الوطن، حتى لو كنّا نحن مواطنين صالحين صادقين فمن واجبهم التأكّد.

– هذا ما قلته أيضا للقائد فإننا نتفهّم حرصهم ومتابعتهم... حتى أنّه أبلغني أنّه يحترم نضالك لكن يخشى من نتائج حماستك وانفعالك بين الناس، فالقيام بتحرّكات غير مدروسة تثير الفوضى في الشارع لأن الناس لا يتمتّعون جميعا بمستوى ثقافي وتعليمي واحد ولا يتشابهون في الإنتماء إلى الوطن... لهذا نجد كثرًا من المخلّين بالأمن يجوبون الشوارع ويكثرون في التظاهرات العامة والمفتوحة.

– أتفهم موقفه جدّا، وهذا أمر دفعني في الآونة الأخيرة إلى التفكير مرّات ومرّات في المشاركة في تحركات وتظاهرات حصلت مؤخرا في الساحات العامة.

sarkht damir inside.indd 150 24/04/2018 03:18:31

– هذا ما نبهتكم منه خلال لقائنا في مكتبي، فالقوى الأمنية لا تُلام أبدا حين تسعى إلى كبح جموح تحرّكات المواطنين، أو حتّى في تلقّيها أوامر السلطة السياسية لأنهم في نهاية الأمر توجّههم السلطة مثل ما تشاء.. لهذا واجب على كلّ مواطن حرّ ألا يواجه أيّا من رجال الأمن مهما كلّف الأمر...

– كلامك منطقي ووطني حقيقي. ولكن لنعد إلى موضوعنا. برأيك كيف علموا بدعم متموّل؟

– لقد كنت برفقة الشبان الثلاثة. فإن لم تكوني أنت، فلا شكّ أنّ أحدهم أبلغهم بمضمون لقائكم.

– ولكن لم لا يكون متموّل نفسه؟

– وكيف ذلك؟ رغم أنه يوم إلتقينا في مكتبي لم يكن متموّل موجودًا بيننا.

– قد تكون المرّة الأولى مصادفة، أو حركة استباقية من القائد إلتزام لدفعك إلى الكلام، فهذا أسلوب تتبعه القوى الأمنية في أغلب الأحيان، هم يفترضون مشكلة ويبوحون أمام المعني بالأمر، فيظنّ الأخير أنّهم على علم تام بها، ليبدأ بالكلام من دون توقف...

– حسنا فلنسلّم بالأمر وبنظريتك، فما الذي يدفع متموّل إلى تبليغهم ويشارك في هذه اللعبة المعقدة علينا ومعنا؟

sarkht damir inside.indd 151 24/04/2018 03:18:31

– في بادئ الأمر. هو رفض رفضا قاطعًا مسألة دعم مشروعنا، ولكن عندما سلّمته رسالة جدّي وقرأها تبدّلت حاله وأصبح يطمح إلى إرضائه وإعادة صلات الصداقة بينهما. فلم لا يكون قد قام بإخبار القوى الأمنية حتى يكسب حجّة تمكنّه من التهرب من موافقته بعد حصوله على مبتغاه؟ وها هو في طريقه إلينا اليوم، وقد أوشك على الوصول.

– لا أعلم قد تكونين على حقّ، رغم أنني أستبعد هذه المسألة برمّتها. لكن فلنر ما الذي سيحدث اليوم عندما يقوم بزيارتكم؟ وأتمنّى منك أن تزوريني مباشرة في منزلي بعد رحيله.

– ولِمَ تريدين أن نلتقي في منزلك وليس في مكتبك؟

– أولا لأن والدتي تريد أن تتعرّف إليك، ولأنني أريد أن أعرّفك إلى "جميلة". كانت زميلة طَموح في الجامعة وحبيبته.

– حبيبته؟

– نعم... ولا بدّ أنك ستأخذين منها الكثير من الأفكار التي ستساعدك في تحضير المشروع.

– إنّ لقائي بها لأمر مهم، فكم من الرائع أن أفهم الجانب العاطفي من رحلة حكاية شقيقك يا حُريّة.

sarkht damir inside.indd 152 24/04/2018 03:18:31

– ضَمير... ضَمير.. أريد أن أطلب منك أمرا آخر لو سمحت. أتمنّى منك ألا تخبري أحدًا بمسألة قوى الأمن، وكذلك عن تواصلي مع القائد إلتزام. فهو يحدّثني بصفته صديقًا مقرّبا لا بصفته الرسمية..

– تأكّدي أنّني لن أبوح بالأمر لأحد.

– وفي ذلك مصلحة لنا، لعلّنا نكشف الخائن بيننا.

أنهت ضَمير كلامها، وهي تفكّر في كلّ ما قالته لها، وأخذت تسأل نفسها عن كيفية معرفة الأمن تفاصيل لقاءاتها وتحركاتها، فرغم أنها لا تخالف القوانين إلا أنها منزعجة من الفكرة بشكل عام ولا سيّما احتمال وجود خائن بين أصدقائها المقربين. كل هذا سيقض مضاجع السكون وستنحو الأوقات إلى أزمات ومشاكل...

sarkht damir inside.indd 154 24/04/2018 03:18:31

جراحٌ مُثقلة

وبعد وقت قصير، وصل متموّل برفقة سائقه إلى دارة صديقه القديم متنوّر، وكانت ضَمير في انتظاره قرب المدخل مرتبكة قلقة في حال صدقت حُريّة في قولها.

ألقى عليها التحيّة، وطلب من سائقه أن ينتظره. سألها عن جدّها، فأخبرته أنّه في انتظاره في المكتبة. وقبل أن يذهب لملاقاة صديقه القديم، قال لها:

– يا ضَمير، سأطلعك على خبر بعد لقائي «متنوّر»، وعسى أن يكون فيه خير.

– هلا أخبرتني عن الأمر الآن؟ لو سمحت... فأنا لا أطيق الانتظار.

– عليك أن تتعلمي الصبر يا ابنتي، وأن تتوقّعي غدر القدر دائما بتوقعاتك وتطلّعاتك.

– لقد بدأت أقلق فعلًا!

– لا داعي إلى ذلك، سأخبرك كلّ شيء بعد قليل لكنّني سأستأذنك حتّى ألتقي به في المكتبة وحدنا، قد يكون قاسيا بعض

sarkht damir inside.indd 155 24/04/2018 03:18:31

الشيء أحيانا، لن أضمن ردّة فعله تجاهي، لذلك أفضّل أن نصفّي حساباتنا في ما بيننا على إنفراد. فأرشديني إلى المكتبة، لو سمحت.

– إنها الغرفة الأولى إلى يمينك... تفضّل.

إقترب متموّل من باب المكتبة، وطرق الباب بخفّة... سمع متنوّر من داخل الغرفة يرحّب به، فتح ودخل. فوجد متنوّر جالسا في وسط الغرفة إلى جانب نافذة كبيرة تطلّ على الطبيعة موجّها نظره إلى الخارج متأملا في الأفق، وفي يديه كتاب وقربه كرسيان خشبيان معتّقان تتوسّطهما طاولة فوقها صندوق صغير. ردّ الباب وألقى التحية:

– صديقي... كنت أتوق إلى لقائك بعد سنين مرّة طويلة.

– وهل ضمنت بقائي على قيد الحياة حتى تلقاني!؟

– لا، لكنتُ متّ حُزنًا وقَهرًا في حال رحيلك من دون أن ألقاك، ولو لمرّة واحدة.

– وما جدوى اللقاء بعدما تباعدت نفوسُنا وتعادَت عقولُنا؟

كان متموّل ما يزال واقفا في بهو الغرفة أمام متنوّر وهو لا يلتفت إلى ضيفه البتّة، فاستغرب تصرّف صديقه، وهو من عرفه تمام المعرفة بأنّه على خلقٍ عظيم. فقال متموّل:

sarkht damir inside.indd 156 24/04/2018 03:18:32

– لِمَ تعاملني بإزدراء؟ فإن كنت لا تريد أن تلتفت إليّ حتى تكلّمني لم وافقت على أن ألقاك؟ ذكرت لي في رسالتك أنك ستسامحني... أنت حتمًا لست راغبا في التصالح.

– إنّ هذا الكتاب في يدي سيلتفت إليك وهو متشوّق للقائك منذ زمن، والصندوق الصغير في انتظارك حتى يكلّمك.

وأشار بالكتاب الذي يحمله إلى ضيفه حتّى يجلس على كرسي إلى يمينه، لكنّه بقي محدّقًا في الأفق من نافذته الكبيرة، فإقترب متموّل بخطًى متّأدة وأدرك أن متنوّر لن يلتفت إليه بعد أن سمع في صوته حزنا وعِتابًا، فجلس على الكرسيّ:

– حسنا، ها قد جلست، والآن إلتفت إلي حتّى تراني وتحادثني.

– لقد سبق وقلت لك، كتابي يلتفت إليك.

– وما حكاية هذا الكتاب؟ وما هذا الصندوق؟ سأبادر إلى فتحه..

– لم يحن وقت فتح الصندوق بعد يا سيّد! تمهّل. ما تغيّرت وما بدّلت فيك الدنيا حالا، لا تعجل في فتح الصندوق، رغم أنّ فيه كنزًا ثمينًا، لكنّك لم تستحقّه بعد.

– وما حاجتي إلى الكنوز؟ تكفيني ثروتي ورغد عيشي.

sarkht damir inside.indd 157 24/04/2018 03:18:32

– ومَن قال لك إنّ الكنوز مالٌ وجواهر؟.. هناك ما هو أثمن منها بكثير!

– لم آتِ بحثًا عن الثروات إنّما لأنّ صداقتنا تعني لي الكثير... إنّي ألقاك بعد زمن حاملًا لك كلّ خير أمّا أنت فتقابلني بالسوء... لذا سأرحل....

– إجلس...

كان متموّل رجلًا قديرًا واثقا من نفسه، لا يهاب أحدًا، له سلطان على كلّ موظفيه وكلّ مَن يتعامل معه. لكن حين إلتفت إليه صديقه القديم، ونظر إليه نظرات تبرق لومًا وتأنيبًا، ما استطاع الردّ عليه وما كان منه إلا أن جلس على كرسيه:

– يا إلهي، لم أر تلك النظرة على وجهك من قبل! قد أَخفتني.

sarkht damir inside.indd 158 24/04/2018 03:18:32

– إنها نِظرة المظلوم، نِظرة الصديق المغدور، نِظرة الحقّ التي لن يقف أمامها ظالم أبدًا.

– أعلم أنني أخطأت في حقك، وقد أتيتك معتذرًا.

– قبل الإعتذار، وقبل أيّ حوار عليك أن تعي أمرين.

– وما هما ؟

– لقد أردت مقابلتي بعد أن علمت بعودتي إلى الوطن، ولم أوافق بدوري... وعليك أن تدرك اليوم، أن موافقتي على الأمر لمستجدة، وذلك لأمل أن أجدك قد تغيرت. أمّا الأمر الثاني، فاعلم أنّني لن أدعك ترحل من منزلي قبل أن نوضح ما حصل بيننا منذ سنين وقبل أن تجيبني عن أسئلة وهواجس كثيرة أقلقتني وأنا غائب عن أرض الوطن الذي أحبّه قلبي...

– حسنًا لكن أرجوك أن تجلس وترتاح، واسأل عمّا تريده، فقد بدا على ملامحك التعب، وأخشى أن يصيبك مكروه.

– لا تقلق علي... إسمعني... هل ترى تلك الشجرة الكبيرة التي تتوسّط حديقتي؟

– نعم أراها... وما قصّتها؟

– أتعلم كم عمرها؟

– وكيف سأعلم ذلك!؟

sarkht damir inside.indd 159 24/04/2018 03:18:32

– لست عالمًا بعد لكن من الجميل أن تتعلّم... قل لي: هل تعلم ماهيّة دورها في الحياة؟

– متنوّر، لم آتِ إليك لأحصّل درسا لا أحتاج إليه. ما بك يا صديقي؟

– لا تقل صديقي! من المبكر جدا أن تستعيد تلك المنزلة... والآن أجب عن أسئلتي.

– أدرك أنّها تساهم في تنقية الهواء، وتضفي بوجودها جمالًا على حياة الإنسان.

– أتعلم متى تموت؟

– لقد أتعبتني يا متنوّر، ما علاقة كلّ تلك الأسئلة بلقائنا؟

– ستعلم... لا بدّ أن تعلم بعد حين.

– ما الذي سأعلمه؟

– هي شجرة بريّة... كيف وُجِدت في الطبيعة؟

– لا بدّ أنك تنوي قتلي بسكتة دماغية يا متنوّر، وكيف لي أن أعلم كلّ ما تطرحه عليّ، فلا الشجرة تعنيني ولا حتى الطبيعة بما حملت!

– أدركت هذا منذ زمن، لكنّني أؤمن أنّ النفوس قد تتغيّر، لكنك لم تتبدّل...

sarkht damir inside.indd 160 24/04/2018 03:18:32

– وما الذي تقصده؟!

– متموّل، لقد أبدع الله في خلق هذه الشجرة، وهو لا يبدع من عدم، هو محرّك الكون ومنظّمه، ومن وجوده وُجِد الوجود، وكلّ ما أوجده جزء من كمال وجوده. فتلك الشجرة تعطينا هواءً نقيًّا وما سألتنا أن نعطيها شيئا في المقابل، كما أنها تمنحنا جمال المنظر وما منحناها بدورنا شيئا، ورغم ذلك لا نكترث لنعمة وجودها ولا نشكر الله على بقائها، بالرغم من أننا نستفيد منها ولا تستفيد منّا.

– ما الذي تقصده بكلامك؟

– هكذا هم بعض البشر يا متموّل، لا يكترثون لوجود مَن هم حولهم ممّن يقدّمون لهم الجمال والفائدة، بل تراهم لا يكترثون حتى لبقائهم أو لعدمه.

– الآن فهمت قصدك، غير أنّي لا أنكر فضلك عليّ يا متنوّر، ولا أتنكّر لمساعدتك لي أيام الجامعة، وكيف مددت لي يدَ العون حتى نلت شهادتي. أنا أقرّ بمعروفك علنًا، حتى أنّني أخبرت حفيدتك وأصدقاءها عن الأمر.

– لم يكن ما أقدمت عليه معروفًا بل كنت أحيا حقيقتي الصادقة كإنسان مع صديق وضعه الله في طريقي، فأديّت واجبي تجاه مَن سخّرني وقدراتي في سبيل مساعدتك. فالحقّيقة الكبرى من وجودنا لا تتم إلّا بالتفاعل في ما بيننا

sarkht damir inside.indd 161 24/04/2018 03:18:32

نحن البشر، وكلّ تفاعل لا يحصل إلّا بتقدير الله وجلالة مشيئته. فأنت، وفي حال أخطأت، ما وقع خطؤك عليّ بل كان خطأً في حقِّ روحك حتى انتقصت من جدوى وجودك. فالإنسان الذي يتوه عن إنسانيته يحيا ميْتًا حتى لو كان يستعير الهواء من الكون ليبقى جسده.

- إن كلامك يضنيني.

- إنّما قلْ إنّ ضَميرك هو ما يضنيك وليس كلامي. فأنت تسمع منّي ما يضرم النار في أخلاقك، وهذا هو الضَمير، وتلك إشارة إيجابية يجب أن تلتفت إليها.

- تكلّمني ولم تلتفت إليّ بعد، تشخص بعينيك إلى الخارج، أنت لم تتغير أيضًا. ما زلت الشخص الغامض المتأمّل.

- الغموض نقيض التأمّل. فالغموض كما السحابة السوداء التي تحجب الحقّائق. أمّا التأمل فهو فعلُ مطاردة الحقّائق وكشفها.

- أنت تُفلسِف كلّ كلمةٍ وعبارة نتبادلها!

- ما أفعله هو تصويب الكلام والحوار.

- ألا تريد إخباري عن الكتاب الذي تحمله بين يديك؟ وما حكاية الصندوق فوق الطاولة؟

sarkht damir inside.indd 162 24/04/2018 03:18:32

– في ما خصّ الصندوق إنني سأقدّمه لك قبل رحيلك، لك أن ترميه أو أن تحتفظ به، لكنّه أمانة صنتها لزمن طويل وكنت أتمنّى أن يمنحني القدر فرصة إعطائك إيّاها. أمّا الكتاب هذا، فهل أنت قادر على توقع ماهية مضمونه في حال أريتك غلافه؟

– لا أعرف، فلنحاول.

– حسنا أنظر إلى الغلاف، وأخبرني ما الذي تراه.

– أرى وجهًا نصفه أبيض ونصفه الآخر أسود وكأنّ كلامًا أتعبه في البوح.

– هو وجهٌ واحدٌ بلونيه الأبيض والأسود، لكنّه لا يتكلم بل يصرخ. ولكن إلام يرمز هذا الوجه؟

– لا أدري!

– سأقول لك، الوجه يرمز إلى ضَمير الإنسان. هذا وجه يلبسه المرء ليصرخ بصوت الضَمير. وهل أنت قادر على توقّع مضمون الكتاب؟

– مستحيل.. لم أرَ غلافا مشابهًا من قبل، حتى الكتاب لم يسبق لي أن اكتشفت مضمونه!

– من المؤكد أنك لم تقرأه ولم تصادفه. لأنّه لم تطبع منه إلّا نسخة واحدة، وأنا أحملها بين يديّ.

sarkht damir inside.indd 163 24/04/2018 03:18:33

– وهل تحمل كتابًا من نسخة واحدة وتسألني عن ماهيته ومضمونه؟ كيف سأعلم، أتستخفّ بي!؟

– إنّ تعلّقك بالمادة في هذه الدنيا الفانية جعلك تتوه عن الحقّائق ودررها. إنّ هذا الكتاب هو تأليف عقلي المتواضع يا متموّل، وقد نظمت سطوره في أثناء غربتي وطبعت منه نسخة واحدة كيلا يقرأه أحد قبلك. كلّ هذا حرصًا منّي على جوهر رسالته.

– وهل كتبته لي؟ كيف عرفت أنني سأقرأه أو أنّه سيصلني يوما وقد كتبته في أثناء غيابك وما كنت متأكدا من عودتك إلى الوطن قط؟ فقد كان من المحتمل أن...

– أموت... لا تتوقف... قلها. نعم يا متموّل، لقد كتبت هذا الكتاب وأسميته "صرخة ضَمير" من أجلك أنت.. كنت أناجي الله أن يقدّر لي فرصة لقائك وإعطائك هذا الكتاب. أمّا في مسألة إمكانية رحيلي عن هذا العالم قبل تسليمك الكتاب، فكنت قد تداركت المسألة وذكرته في وصيتي على أنّه إرثك، فأضمن وصوله إليك بعد موتي.

– "صرخة ضَمير"...عنوان غريب! وعمّ يتحدث؟

– الغريب أنك لم تعرف عما تدور أحداثه. إنك بطل هذا الكتاب يا متموّل.

sarkht damir inside.indd 164 24/04/2018 03:18:33

- أنا!

- نعم أنت. لقد كتبت حكايتك في أوراق هذا الكتاب. كتبت شغفك بالمال. كتبت عشقك للدنيا. كتبت غدرك بالصداقة. ولكن من ناحية ثانية كتبت أمجادك في حصد الثروات، وسلطان مالك الذي رفع من شأنك زمنيًّا بين الناس. لقد كتبت عتبي عليك، وخططت أفكاري تجاهك علمًا أنّها ما منحتني الراحة يوما. لقد كتبت في هذا الكتاب درسا علّمتني إياه، وما تعلمته بدوري من مجتمع أو جامعة.

- كتبته ولكن لم أسميته "صرخة ضَمير"؟

- سؤال تملك وحدك الإجابة عنه. فعندما تنتهي من قراءته، أغلقه وانظر إلى الغلاف، ثمّ دوّن رأيك في رسالة وأرسلها إليّ. ولتكن حروفك صادقة بصدق مشاعرك حينها. تفضّل هذا الكتاب لك، خذه واقرأه.

أخذ متموّل الكتاب ويداه ترتجفان، فمن كان ليتوقع أن يكتب صديقه كتابا عنه؟ ارتعب من فكرة أن يجد في طيّاته ما يهين شخصه ومقامه. وتابع متنوّر كلامه:

- أمّا هديتي لك بعد زمن طويل من الفراق فهي هذا الصندوق.

- وعلام يحتوي الصندوق ؟

sarkht damir inside.indd 165 24/04/2018 03:18:33

– أما عدت متحمسًا لتفتحه الآن؟ هل عدلت عن رغبة نبش الكنوز؟ إفتحه هيا. لا تتردد!

إقترب الضيف من الصندوق متمهلا، ومدّ يديه على مهله وهو ينظر إلى متنوّر. ففتح الصندوق ليجد أوراقًا مبعثرة وصورًا كثيرة. حمله ووضعه على قدميه وأخذ يقلّب الأوراق والصور التي فيه. وما هي إلا لحظات، حتى أدمعت عيناه، وبدا التأثر على وجهه، وصارت أنفاسه تتخطّف بشكل متقطع... فما كانت تلك المجموعة إلا تشكيلة من ذكريات التي جمعت الصديقين أيام الشباب في المرحلة الجامعية.

تلك لحظات صادقة تحاكي الصداقة الحقّة، ففيها أوقات دراسة، ورحلات، واجتماعات أعادت متنور في الزمن سنين إلى الوراء، وكأنّه عاد بذاكرته إلى زمن الحقّيقة لا الخيال. لم يتوقع متموّل من صديقه أن يحتفظ بصور تجمعه به حتى بعد ما أقدم عليه من غدر. ثمّ بانت أوراق عتيقة، مجموع بعضها إلى بعض، في أسفل الصندوق. فأخذها وفتحها، فتسمّر نظره وما نطق بكلمة كأنّه صار في العدم...

كانت الأوراق نسخة عن الدراسة التي وقّعها متنوّر وقدمها إلى صديقه فجنى منها ثروة كبرى. هي السبب الرئيس في قطع صلات الصداقة ومغادرة متنوّر وطنه.

sarkht damir inside.indd 166 24/04/2018 03:18:33

أعاد متموّل الأوراق والصوّر إلى الصندوق، ووقف فمسح تلك الدمعة الوحيدة التي ركنت على خدّه، ونظر من النافذة خجلًا وقال:

– أنا متموّل، أنا رجل ما عرفت الإنكسار أو الهزيمة يوما، إلّا أنني اليوم أُقرّ بهزيمة نكراء ما سكنت روحي من قبل، هذا عقاب أستحقّه.

صديقي... قد أخطأت في حقك، وغرّ بي الزمن ودفعني إلى هاوية المادة الزائلة، فخسرت ما لا يُقدّر بثمن. أرجوك أن تقبل إعتذاري. أدركت أنّني لا أستحق حتى أن تنظر إليّ، فأنت أفضل مني بكثير. لقد أعمتني الحياة بمتطلباتها، حتى أفنيت نفسي بفنائها، وما أدركت أنّ الحياة الحقّيقية تتمثّل في صوابية القول والعمل نصرة للخير وبحثًا عن حقائق وجود الإنسان.

كان متموّل يتحدّث بصوت حزين متأثّر، وهو يحمل بين يديه الكتاب والصندوق. همّ بالرحيل، ولم يجِبْهُ متنوّر حتى بكلمة واحدة، وما إن وصل إلى الباب وقبل أن يفتحه، قال:

– صديقي، سأرحل الآن، لست نادما على مجيئي إليك، أشكر القدر لأنه جمعني بك في هذا اليوم بالذات. فربما لو لم أخطئ لما سمعت صرخة ضَميري، وهي صرخة حقّ. أرجوك أن تسامحني. ورغم أنني على يقين بأنّني لن أسترد صداقتك كسابق عهدها، لا يسعني القول إلا: الوداع يا صديقي، ودمت متنورًا.

فتح متموّل الباب وخرج متأثرًا، فتردّدت العبارة في سرّ متنوّر: "بل قلْ إلى اللقاء يا صديقي". ورغم الأسى الذي سببه متموّل له، إلّا أنّه لم يتخلّ عن الذكريات الجميلة التي تجمعهما، كما أنه بقي وفيًّا للصداقة التي صارت أخوّة بينهما.

وما إن خرج متموّل من البيت وشارف على الوصول إلى سيارته حتى نادته ضَمير قائلة:

- لماذا ترحل مسرعًا؟ ألم تقل لي إنك ستحادثني في أمر مهم بعد إنتهاء لقائك مع جدّي؟

- إنني على عجلة من أمري الآن، ولكن توقّعي أن أتّصل بك قريبا جدا. إنتبهي إلى جدّك يا ضَمير، وارويه ماءً من نبع المحبة والاهتمام، فحاله حال الشجرة الخضراء العظيمة تلك في وسط حديقتكم. إلى اللقاء.

رحل متموّل تاركا ضَمير في حيرة من أمرها.. فقد كانت تريد أن تعلم إن عدل عن تمويل مشروعها، متسائلة عن الحوار الذي دار بينه وبين جدّها، وعن السبب الذي دفعه إلى المغادرة مسرعًا مرتبكًا قلقا.

دخلت لتسأل جدّها وتَستوضح أمرَ متموّل، لكنّه لجأ إلى فراشه ليأخذ قيلولته. لم ترغب في إزعاجه، ثمّ خرجت من المنزل عازمة على زيارة حُريّة في منزلها.

sarkht damir inside.indd 168 24/04/2018 03:18:33

جلسةٌ نسائية

في طريقها إلى منزل حُريّة، تلقّت ضَمير إتصالًا من موثوق يسألها عن مكانها. فأخبرته أنها ذاهبة لتلاقي حُريّة، وسألته إن يرغب في مرافقتها، فأحبّ الفكرة. أقلّته معها واتجها سويا إلى دار عائلة حُريّة حيث كانت تمكث مع ولدها طَموح.

وصلا فكانت وحنونة مع شجاع في إنتظارهما، وإلى جانبهم امرأة أنيقة وقفت في صدر الغرفة تترقّب التعرّف إليهما. فقالت حُريّة:

– بما أنّنا قد عقدنا العزم على مواصلة مشروع "حكاية طَموح" يا ضَمير، فمَن أفضل من حبيبة قلب شقيقي لتكون معنا وبيننا؟ سنعرف منها ما لا يعرفه سواها عن شخصيته وطموحه وأسرار فؤاده النابض بالجمال.

– إذًا أنت "جميلة" الملكة التي تربّعت فوق عرش قلب الشاب الطَموح.

– نعم، وأنت ضَمير الثائرة فكرًا وقولًا كما قيل لي! حُريّة دائمة التحدث عنكما، وعن مشروعكما.

sarkht damir inside.indd 169 24/04/2018 03:18:33

– إنّه لشرف كبير أن نلتقي بك.

– أهلا وسهلا بكم جميعا. تفضّلوا بالجلوس. أشعر بالفخر ويكاد قلبي يخرج من مكانه فالله جعلني والدته، وحين أرى وأسمع عنه، أتيقن أنّه لم يرحل سوى بالجسد عنّا. وهذا هو عزائي الوحيد.

– سيّدتي، طَموح لم يرحل عنّا إلّا بالجسد، لكنّ أفكاره ومبادئه ما تزال معنا تهدينا وتنير دروبنا. فقد كان لوقع وجوده في حياتي تأثير إيجابيّ وكان سبب نجاحي وإنتصاري في نفسي وعلمي فأعمالي.

– يفضحك بريق عينيك لحظة تتحدثين عنه. فممّا لا شك فيه أنك ستضيفين أفكارًا قيّمة إلى مشروعنا. أتمنّى منك أن تطلعينا على ما عرفته واختبرته برفقته لأنّه جانب مهم جدا من حياته.

– جاهزة للمساعدة وتقديم كلّ الدعم لإنجاح المشروعك.

– من الواضح أنّ طَموح سيكون حكاية صادقة ملهمة تروى للأجيال القادمة، فتنير دروبهم نحو تحقيق وجودهم بأبهى الوسائل وأنقاها. فالحكاية وإن صاغتها ضَمير، برعاية حُريّة وستكملها جميلة، لا شكّ أنها ستكون حكاية فريدة

sarkht damir inside.indd 170 24/04/2018 03:18:33

من نوعها. أنا متحمسٌ لإتمامها، وتأكّدوا أنّني سأقدمّ الغالي والنفيس وسأبقى إلى جانبكم في سبيل ضمان نجاح المشروع.

– كلامك جميل يا موثوق. ومن الواضح أنك ملتزم بقضية حكاية البطل الذي نحيا في حضرة طموحه.

– ذاك واجب عليّ، وعهد كتبته على نفسي لضَمير بيدي.

– إنّ موثوق يا سيدة جميلة، أكثر من صديق وأقرب من أخ. فأفكارنا متآلفة إلى أبعد الحدود، وإني أعتمد عليه كثيرا، وأثق به ثقة عمياء.

– من الجميل أن نحظى بأصدقاء صادقين، نرصف وإيّاهم مداميك الثقة ونطلّ على ساحات النجاح.

– يا ابنة عمي عندما تتحدثين تنطقين بلسان طموح.

– منه تعلمت، وبأفكاره اهتديت، وبتوجيهاته عملت.

– ومن الواضح جدًا أنّه ترك أثره في كلّ مَن عرفه أو حتى مَن سعى إلى التعرف إليه، كما هو حالي وحال موثوق.

– حسنًا، أخبريني يا ضَمير. كيف يمكن أن أساعدك في إتمام مشروعك؟

– أريد أن أعرف منك قدر المستطاع.

– وما الذي تريدين معرفته؟

sarkht damir inside.indd 171 24/04/2018 03:18:33

- كلّ شيء عن طَموح.

- إذا فلنشدّ الرحال ونرفع الأشرعة لنسافر بعيدًا في قارب حياته فمن الجليّ أنّ إرتحالنا سيكون طويلًا.

- قبل أن نبدأ، أريد أن أطلب من شجاع مرافقة موثوق داخل البلدة، لاستطلاع آراء الناس عن طَموح وغيابه، ومدى تأثّرهم به. فقد نكسب الوقت وننجز مشروعنا في أقرب فرصة. ما رأيكم في الأمر؟

- أراها فكرة مناسبة. فماذا تقول يا شجاع؟

- كنت أفضل أن نبقى معكنّ لنسمع من جميلة قصصا عن طَموح أعتقد بأنّها فاتتني،رغم أنّني كنت منه أقرب المقرّبين.

- لا تقلق يا شجاع، فما سيفوتك سماعه اليوم ستقرأه غدًا.

وأومأت حُريّة لابن عمّها برأسها غامزة له بإبتسامة كي يرافق موثوق في جولة كما طلبت ضَمير، ليكون الحديث نسائيًّا فتتكلم جميلة على سجيّتها.

sarkht damir inside.indd 172 24/04/2018 03:18:33

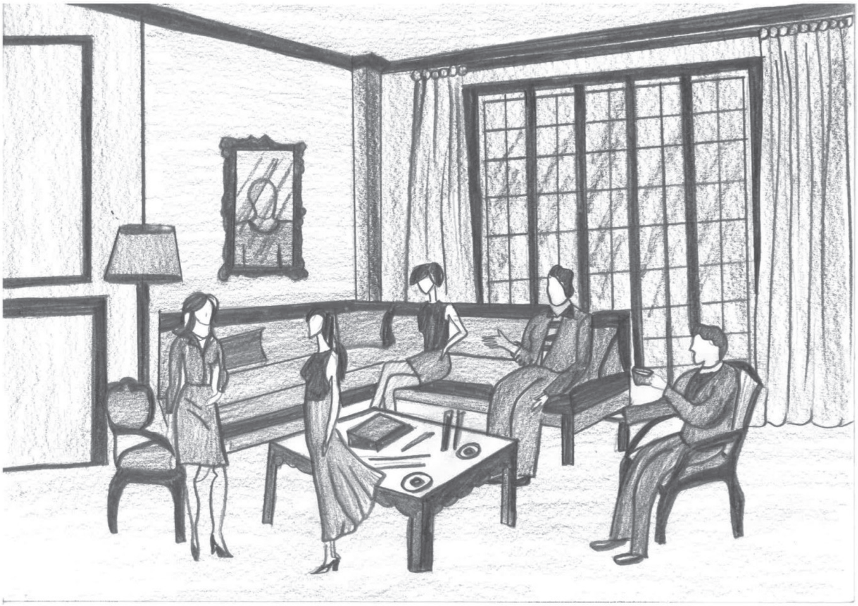

همّ شجاع بالرحيل وطلب من موثوق مرافقته. ثمّ ذهبا للقاء أهل البلدة كي يجمعوا ما توفر من أحاديث ومعلومات عن طَموح وحياته. كذلك عمدت حنونة إلى تحضير واجب الضيافة، فسارعت جميلة إلى سؤال حُريّة قائلة:

- قبل أن نبدأ حوارنا عن طَموح، أخبريني يا حُريّة.. أين كنت؟! لم أسمع منك أو عنك خبرا لخمس سنوات أو ربما أكثر. فما حقيقة غيابك؟

- أحداث طويلة ومريرة يا جميلة، عنوانها مأساة وصمود ونضال في وجه المرض. لقد قاسيت وعانيت الكثير.

sarkht damir inside.indd 173 24/04/2018 03:18:34

- يا إلهي... ماذا حدث؟ عن أي مرض تتحدثين؟

- هل كنت مريضة طيلة فترة غيابك يا حُريّة؟ آه.. الآن فهمت لماذا لم يصلني منك أيّ ردٍّ على رسائلي.

- نعم، يا ضَمير، قد كان السبب قاهرا.

- هيّا أخبرينا...

- كنت قد بدأت أعاني آلامًا حادّة في جسدي إبّان محاولتي كشف حقيقة اغتيال شقيقي. لكنني ما اكترثت وتابعت المثابرة حتى أتممت مهمتي، وكشفت الفاعل الحقّيقي.

- أتقصدين زوجك متعالي؟

- نعم. وقد سافرت بعدها إلى الخارج لتلقّي العلاج واستأصلت هناك صدري كاملًا، ورغبت في متابعة دراستي فنلت شهادة الدكتوراه، واهتممت بولدي طَموح، حتى قَدَّرَ الخالق أن يجمعني بكم ها هنا.

- وماذا عن المرض؟

- لقد كان العلاج موفّقًا، وبحسب تقارير الأطباء، هم نجحوا في استئصاله منّي.

- وهل ضمنوا لك تلك النتيجة؟

sarkht damir inside.indd 174 24/04/2018 03:18:34

– جميلة... ليس الأطباء ضامني المسألة ولا غيرهم! فالله وحده مانح الضمانات الحقّيقية.

– يُعجبني إيمانك يا حُريّة!

– في الإيمان الصادق يا ضَمير، يتجسّد العلاج الحقّيقي. وكلّ ما تبقى ليس إلّا وسائل لا ترقى أكثر من كونها تفاصيل يكتبها من أجلنا القدر لنحيا حقيقة وجودنا.

– ولكن هل واجهت كلّ ذلك وحدك؟

– لقد كان طيف شقيقي عزائي ووجود ولدي إلى جانبي قوّتي. ولا أنكر أن تلك كانت مرحلة مريرة وصعبة في حياتي.

– وما هي خططك لمستقبلك؟

– لا يمكن لأيّ إنسان في هذه الدنيا أن يضمن مستقبله، أو أن يجزم أحداثه. فجلّ ما يفعله هو الرجاء والسعي، وما التوفيق إلا من العلّي القدير. إنّ من واجبي ألّا أستسلم، سأتابع حياتي، ولن أفكر في مرضي. سأحيا بإيجابية تامة، وأشكر خالقي على النعم الكثيرة التي منحني إياها. أمّا جسدي فهو وديعة منه، إن شاء عافاني وإن شاء سلبني عافيتي، وفي كلا الأمرين خير. فمن واجبي ألا أيأس البتّة، وأن أتابع نضالي في الحياة، حتى يحين موعد أجلي، فتأتيني المنيّة، وأنا حرّة عصامية، مناضلة متفائلة صادقة.

sarkht damir inside.indd 175 24/04/2018 03:18:34

- لا أصدق كم تشبهينه فكرا وحديثا وتعبيرا يا حُرِيّة!

- إنّه طَموح يا جميلة... طَموح الذي أنار درب حياتي بشعاع الأمل.

- لا شك أنّه أتقن فنّ العيش في قلوب الآخرين وعقولهم.

- ألا تنوين الزواج مرّة أخرى؟

- لا يا جميلة... قد عقدت العزم على أن أفني نفسي وما تبقّى لي من زمن، خدمةً لولدي طَموح والبقاء مع عائلتي. فبهم ومعهم أجد السعادة التي لا تشوبها شائبة. إنّ شقيقي ميّز بين مسألتي زواج الحياة وحياة الزواج، وهو القائل: "أما بالنسبة إلى الزواج والعائلة، فأترك لكم مدوناتي وكتبي وهي عزيزة عليّ كأولادي، هي بنات أفكاري وقناعاتي. فكرتي هي طفلتي، وهي بحاجة لأن تتبنّوها وتربوها لتكبر فتنجح ثمّ تذكركم بي ما حييتم". وها أنا أتبنى قوله ذلك. وقد أتتنا الآنسة ضَمير بمشروعها الذي سيشغلنا لفترة ويسرق وقتنا واهتماماتنا. أليس كذلك أيتها الفتاة المشاكسة؟

- أعدكما بأنكما لن تعرفا الراحة ما دمتما قربي وبرفقتي.

وما إن قالت ضَمير عبارتها تلك حتّى تعالى ضحكُ الفتيات، فدخلت حنونة وسألتهنّ عن السبب. فقالت جميلة:

sarkht damir inside.indd 176 24/04/2018 03:18:34

– من الواضح أنّ ضَمير ستجلب لنا المتاعب...

– هي إنسانةٌ صادقة، والدليل ما أراه في عينيها من بريقِ ثورة نحو الحقّ والخير. وذاك بريقٌ شبيهٌ لِما رأيته في عينَي طَموح وحريّة من قبل، وأستطيع أن أجزم بحتميّة نجاحها في تحقيق مآربها، مهما واجهت من صعوبات. فللصادق سلطان حقّ لا يهاب بل يُهيب.

– إنّ لكلامِك وقعًا صارخًا في نفسي يا سيدتي، فيُزيدني إصرارًا ومثابرة. شكرا لك.

– بل إنّه من واجبنا جميعا أن نشكرك وأن نقف معك وإلى جانبك لإتمام مشروعك. ليس لأنه يتناول حياة إبننا الراحل الغالي، بل لأنّ فيه غايةً صادقة صائبة تخدم خير إجتماعنا. أتمنى لكنّ التوفيق والنجاح.

– أشكرك من قلبي يا سيدة حنونة لما قلته للتو. وأعدك أن أكون عند حسن ظنك. والآن لنشدّ الرحال برفقة السيّدة جميلة في عالم هذا الشاب الطَموح.

– قبل أن نبدأ، أتمنّى منك يا ضمير، أن نرفع الكلفة، فما يجمعنا أكبر من أيّ ألقاب أو حوارات رسمية جامدة، ناهيك عن أنني لا أريد أن أشعر بفارق العمر بيني وبينك.

إبتسمت ضمير لصديقتها الجميلة موافقة على ما طرحته. إرتشفت قهوتها، وسألتها:

sarkht damir inside.indd 177 24/04/2018 03:18:34

– أخبريني يا جميلة عن حكايتك مع طَموح؟

– لا أعرف من أين أبدأ.. هل أقصّ لك أحداث أول يوم إلتقيته، عندما اصطحبه صديقنا "مثقف" إلى جلسة حوارية مع الزملاء في باحة الجامعة، وكيف أسرني بحديثه وقتها، أو عن طلّته منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناي في سحر عينيه. أو عن رحلاتنا سويًّا وزياراته منزلي وأحاديثه مع أفراد عائلتي، أو عن مغازلته الراقية لي التي ما سمعت شبيها لها في حياتي، تكثر التفاصيل والأحداث التي عشتها وإختبرتها معه، وهي ما زالت تقبع صورًا حيّة في ذاكرتي ولن تنتهي إلا بنهايتي...

– جميلٌ ما قلته للتوّ... أخبريني كلّ شيء. ولك أن تبدئي منذ اليوم الأول، فلقد تحمسّت لسماع قصّتك.

– لا أعلم مدى معرفتك بشخصيّة طَموح يا ضمير، فحريّة أخبرتك حتمًا الكثير عنه، إلا أنني عرفته بطريقة مختلفة عن الآخرين.

– لهذا اهتممت بمقابلتك، كي أنهل منك ما لا يقدر أحد غيرك على قوله. فرغم أنّ حريّة أخبرتني الكثير، كذلك جدّي متنوّر الذي حدثّني عن تلميذه النجيب طَموح، إلا أنّ تلك أحاديث تتناول خبايا العقل، أما خبايا القلب فللعاشق وحده أن يفضح مكامن أسرارها.

– أنت محقّة لقد عشقتُ طَموح منذ اللّحظة الأولى.

sarkht damir inside.indd 178 24/04/2018 03:18:34

– حدثيني عن اللقاء الأول، فمن الرائع أن نقصّه في حكايتنا.

– ولكن لا تنسي أنني إمرأةً متزوجة يا ضمير.

– لا تجزعي، فقد أخبرتني بذلك حريّة، وسأفعل المناسب.

– حسنًا. سأبدأ معك منذ لقائنا الأول.

– جيد جدا.

– كنّا في السنة الأولى من الجامعة، وقد تعرفّت إلى مجموعة من الشّبان والشابات ودأبنا على تمضية الوقت معًا. وقد كان لنا صديقٌ يدعى مثقف وهو مقرّب من طَموح يخبرنا عنه دوما. وذات يوم، بعد أن كان قد احتدم النقاش في مسألة لا أذكرها تمامًا بين الشبّان، إنتفض مثقف وركض مبتعدًا عنّا ليعانق صديقا له، ويدعوه إلى مجالستنا.

– وما كان ذاك الصديق... إلا طَموح!

– وماذا حصل بعدها؟

– لقد ألقى التحية على الجميع، لكنني أجزم لكما، بأن في حضوره طاقة إيجابية تجذب الأنظار والإهتمام. وما إنّ دخل في حوار مع صديقنا إلتزام حتى أثبت مدى ثقافته الواسعة، وسداد رأيه، فجرأته من خلال ثبات حديثه وإنسيابية أفكاره.

sarkht damir inside.indd 179 24/04/2018 03:18:34

– لحظة... توقفي. ماذا قلت؟

– لم أنطق بغير وصف طَموح. فما الذي دفعك إلى الاستغراب؟

– لم يكن ما قلته عن طَموح ما إستوقفني، بل الاسم الذي ذكرته للتوّ!

– أتعنين إلتزام؟

– أهو إلتزام عينه، الذي يشغل منصب القائد العام للشرطة؟

– نعم، إنّه لَهو... كان زميلنا في الجامعة، وقد غدا فيما بعد أقرّب مقربي طَموح.

– لقد أخبرتك من قبل يا ضمير، يوم هاتفتك منذ فترة لأخبرك أنك مراقبة من الأمن.

– الآن تذكرت.. إذا حتى جميلة على معرفة بالقائد العام.

– نعم، هو زميل سابق وصديق مقرّب من زوجي وعائلتي.

– إذًا أعتقد بأن مشروعنا أصبح محصّنًا من فساد أهل السلطة.

sarkht damir inside.indd 180 24/04/2018 03:18:34

- أبدا.. ليس الأمر كذلك! إنّ معرفتنا القائد العام تضمن صراحته معنا وصِدقه تجاه واقع موقعنا لجهّة إلتزامنا بأمن الدولة واستقرارها. كما علينا ألا ننسى أبدا أن الأمن تأمره السلطة السياسية، ولا يسعنا مواجهة الأمن ولا دفعهم إلى مواجهة السلطة مطلقًا، بل جلّ ما نقوى على فعله هو الإلتزام بسقف القوانين، وتفادي الصدام مع السلطة أو الأمن، ليس خوفًا منهم، بل توفيرًا لجهودهم، ومساعدتهم على تأدية واجبهم على أكمل وجه.

- قد قلتِ فأجدتِ يا حريّة، إنّ كلامك مصيب تمامًا.

- حسنا، سنتطرق إلى هذا الموضوع لاحقا، والآن تابعي حديثك لو سمحت يا جميلة.

- في ذاك اليوم حاولت أن أجد لنفسي نافذة أطل من خلالها على حوار زملائي، وما كانت غايتي إلّا مشاركة طَموح الحديث والتعرّف إليه أكثر. وما إن قلت عبارتي، حتى قابلني بإجابة أسرتني فسحرتني.

- وما الذي قاله؟

كانت ضمير متحمسة جدا لسماع ما ستقوله جميلة، بالإضافة إلى حنونة التي تتوق إلى سماع ما لا تعرفه عن ولدها الراحل. وخاصة أنّ علامات التأثر والحياء، قد بدت واضحة على وجه جميلة، فتابعت قائلة:

– لقد أدليت برأيي فيما كانوا يتحاورون، قال لي عندها طَموح بكلّ احترام وبصوت عذبٍ اختلفت نبرته عن التي كان يحادث بها إلتزام: "أعذريني أيتها الحسناء الجميلة، فإن حادثتك متعمدًا إبعاد نظري، فذلك لأن عينيَّ تضعفان في حضرة الجمال. وأخافُ أن يخونني عقلي فتعجز كلماتي عن مجاراةِ أفكاري فتتشتت في حال نظرت إليك".

– يا إلهي ما أرقى كلماته!

– ما استطاعت السنون محو كلماته تلك من مخيلتي وذاكرتي، لأنها كانت الشرارة الأولى...

– أذكر عبارة مهمة أثّرت فيّ جدًا، قالها يومها طَموح لإلتزام.

– وما هي تلك العبارة؟!

– مهلك يا ضمير سأخبرك... إنني أحاول قدر المستطاع تذكّر ذاك الزمن الجميل، الذي أهيم في رحابه مستسلمة لما يحمل من ذكريات جميلة. في حديثه عن المحبة والكراهية قال طَموح لإلتزام: "إن أحببت فلا تعشق للنهاية لأن الفراق صعب، وإنْ كرِهت فلا تبتعد أو تحقد لأن الحياة كُلّها مفاجآت، فقد تكره شخصًا ربما قد يبدي عليك حرصًا حين تتاح له الظروف". وأتذكر جيدا تأثرنا بكلامه ذاك وخاصة إلتزام لأنه كان المعني الأول بحديثه.

sarkht damir inside.indd 182 24/04/2018 03:18:35

– نعم يا ابنتي جميلة، تلك كانت مبادئه وأفكاره. وقد كان دائم التكرار لها في ما بيننا، نحن أفراد عائلته.

– أمّي، كان شقيقي يقول دائما بضرورة تفادي الكره لانه يضرّ حامله قبل المعني به. محذرًا من محبة الآخرين العمياء التي قد تجلب المآسي في حالة الخذلان.

– يا إلهي، أصبحت قادرة على تخيّل طَموح، وكأنّه يحاورني من خلال ما تخبرونني به. تابعي يا جميلة، ماذا يمكنك أن تتذكري بعد؟

– عليك أن تسألي إن كنت قد نسيت أمرًا ما يتعلق بطَموح، لا عمّا أتذكره.. لأنّه نَحَتَ أقواله وصوّر ذكرياته معي في صخرة حياتي بإزميل الحبّ الصادق.

– إذًا أخبريننا بما ترينه مناسبا.

– هو ما تعلّق برؤيته الفلسفيّة للحياة المتداخلة مع الحبّ، وتلك عبارة مهمة أيضا أذكرها له. ففي حديث دار بيني وبينه في الجامعة ذات يوم، موضوعه مستقبلنا ومصيرنا سويّا، قال لي التالي: "إسمعيني يا حبيبتي... لو أنّ للإنسان القدرة على تحقيق كلّ ما يتمناه لما كان للأحلام دورٌ ولا لذّة. ولو كان كُلّ ما يَطلبه سهلَ المَنال لانتفى دور الإرادة والأمل فالعمل، ولولا الخسارة في بعض الأمور لما عرفنا طعم النجاح والسرور، ولولا صعوبة تحقيق بعض الأحلام لأمضينا أيام عمرنا من دون اهتمام.

sarkht damir inside.indd 183 24/04/2018 03:18:35

جميلٌ أن نعشق ونسلّم أنفسنا للحبّ. إنّ علاقتي بك شفّافة كمَن يبصر خيوط شمس تنسلّ مع عبق الصباح. أحبك وتكاد روحي تلامس السلام لمجرد رؤيتك. إنّ قلبي فارسٌ يمتطي جواد العشق مسافرًا، أمّا عقلي فصار يفترش غيمًا دافئا تُتَوِجِّهُ قصور الأحلام".

– ما أشدّها عمقًا تلك الكلمات! يحتاج المرء إلى أن يتأملها ليقرأ جوهرها مرارًا وتكرارًا فيفهم معناها الحقّيقي.

– كما ذكرت لك آنفًا يا ضمير، طَموح كان إنسانًا عميقًا لا يَنطق إلّا بما يَخدِمُ الخيرَ والصواب. بالإضافة إلى كونَه عاشقًا الطبيعة ومتأملًا سحرها ومثابِرًا في معرفة سرّ تكوينها.

– وكيف ذلك؟

– ذات يوم، عقد العزم على لقاء عائلتي والتعرّف إليهم، بعد أن صارحته بأنني قد أخبرتهم عنه، وأنه صديق مقرّب جدا أحترم وأحبّذ مرافقته دومًا... وقبل حضوره للموعد ذاك، اختفى طيلة النهار ولم يعرف له أحد طريقًا. حتى وصل في اللحظة الأخيرة ليخبرني أنه اختلى بالطبيعة متأملا متفكرا. معللا تأخيره بقوله: "خرجت إلى الطبيعة لأنها ملاذي الفكري الوحيد الآمن، فهناك أحتمي من هموم الدنيا وتعقيداتها، خرجت لأغرق في صفاء أفكاري حتى أصوّب مساري ثمّ أتّخذ قراري".

sarkht damir inside.indd 184 24/04/2018 03:18:35

- جميل جدًا ما قلته للتوّ.

- إليك أيضا رأيه في السياسة، فحين حاوره أخي في منزلنا سائلا إياه عن سبب إهتمامه بها، أجابه بثبات ووضوح قائلًا: "أمّا السياسة فإنّي أعتبرها الرياضة التي تصقل عقلي وتنشّط أحلامي وأفكاري وتكوّن شخصيتي. فمهما كانت نتائجها وانعكاساتها عليّ فسأقبلها، لأني ارتضيتها لنفسي وعملت في سبيلها. إنّ النضال للحريّة والوطنيّة لا يتعلق بعمر الانسان وسنيه بل يرتبط بأحلامه وهواجسه وأفكاره".

- رائع... رائع. من الواضح أنّ طَموح لم يدخل عالم السياسة مصادفة، بل كان القدر يسوقه إليها منذ طفولته. فإذا ربطنا أحداث حياة طَموح التي أخبرتني بها حريّة منذ طفولته مع العائلة، مع ما قلته لتوك يا جميلة من ذكريات عن حياته الجامعية، فمن الطبيعي أن نستنتج نشاطه وعمله في مجال السياسة والشأن العام. الآن يمكنني القول إنني بدأت في تكوين صورة واضحة عن شخصية طَموح، وأصبح بمقدورنا أن نُباشر في العمل على إطلاق مشروع حكاية حياة بطلِنا الخالِد بأفكارِه ونهجِه فمبادِئه.

لاحظت حريّة أن الدموع قد لاقت طريقها إلى خديّ الوالدة، التي بدت متأثرة بما تسمعه عن فلذة كبدها، فحضنتها ابنتها وقبلت جبينها وقالت :

sarkht damir inside.indd 185 24/04/2018 03:18:35

– لا تبكي يا والدتي، إنك لم تخسري ولدك بعيد مماته، في حين أنّ كثيرات من الأمهات فَقَدْنَ أولادهنّ وهم بعد على قيد الحياة. والدليل على ما ذكرته لك، أننا ما زلنا نتذكّره ونحيّي حكايته بعد رحيله بسنين طويلة. إنّها مدعاة فرح وفخر وليست سبب الأسى والحزن، وفي نهاية المطاف لا بدّ أن نكون جميعنا من زوار دار الفناء. لأنّ الموت حقّ علينا.

– صواب ما قالته حريّة لك يا سيدة حنونة. فواجب علينا جميعنا أن نفتخر بطَموح وما تركه من ترِكَةٍ معنويّة لا تموت، تركة لكم أنتم أهله ولنا فإنّنا زملاؤه وأحباؤه.

– أنا متحمِّسة لمشروع حكاية طَموح ذاك، وكأنه أهم ما سأختبره في حياتي، هو علّة وجودي. لأنّني يوما بعد يوم، أتيقن بأنني أمام شخصية خلقها القدير لتكون نموذجا للأجيال تقتدي بها من أجل الخير العام ومناصرة الحقّ.

– سأخبرك أمرا آخر مهمًا يا ضمير.

– وما هو؟

– طَموح كان عقلّه قويا كفاية ليروّض به قلبه.

– وكيف ذلك؟

– لقد كنت متأكدة من حبّه وعِشقِه لي. وقد كان يُتقِنُ فَنَّ التَعبير عن ذلك الأمر جيدًا، إلّا أنّه كان صريحا

sarkht damir inside.indd 186 24/04/2018 03:18:35

معي متحدثًا عن ظروف حياته الصعبة، وأنّه لا يستطيع الارتباط بي، ليس لعلّة فينا بل لقراءة واضحة قاسية لمستقبله، فما أراد أن يسبب لي الأذى أبدا. ورغم أنني كنت مستعدة للتخلي عن كلّ شيء ومخالفة رغبة عائلتي كي أكون معه وإلى جانبه، إلا أنه ما إستغل حبي المجنون له، ولجم جموحي بكلماته الواعية واعترافاته الصادقة، وكان له الفضل الرئيسَ في أنني تزوجت وأسست عائلة رائعة، وكنت سيدّة مجتمع ناجحة.

– ولكن كيف تخلّى عن حبّ حياته؟ تلك نقطة تُحسب عليه وليست له!

– مهلك يا ضمير، إياك وأن تظلمي شخصا ما حاورته أو عرفته. فقد وقعت قبلك في هوّة الخطأ عينه. والآن إسمحي لي بسؤال.

– تفضلي.

– قولي لي، ما الأهّم وما الأجدى، أن يحيا الإنسان عمره خدمةً لفؤاده؟ أو أن يحيا بفؤاده خدمةً لحقيقة وجوده؟

– سمعت العبارة تلك ولو بأسلوب مختلف.

– سيدة حنونة، هي كلمات طَموح. والآن ما رأيك يا ضمير في ما سألتك؟

sarkht damir inside.indd 187 24/04/2018 03:18:35

– أعتقد أنّني فهمت قصدك! فطَموح إختار خدمة حقيقة وجوده المتمثّلة بتحقيق طموحه، ولو كان ذلك على حساب فؤاده وهيامه.

– نعم، هذا بالضبط ما قصدته وما أحاول أن أشرحه لك، وليس خدمة لطموح، بل إفساحًا في المجال لأحقق وجودي أيضًا. لهذا السبب قلت لك ألا تظلمي طَموح كما ظلمته سابقا. فما أدركت سموّ وعيه إلّا بعد فوات الأوان. فقضيّة طَموح تخطّت أحاسيسه ومشاعره لتلامس حقيقة إنتمائه لمجتمعه. كما أنه كان متيقّنًا لمستقبله، وقارئًا واعيا لأفكاره والنتائج المترتبة عليه. فما كان ليتحمل أن يكبّد الآخرين نتائج جُموحِ طُموحِه.

– تلك خصال لا يحملها الكثيرون، وتوجب علينا إحترامها..

مضى الوقت والنساء يتحدثّن في خصال طَموح وما يتذكرنه عنه من أحداث وأقوال معه وله، حتى عاد شجاع برفقة موثوق وكان هذا الأخير قد ذُهل لما سمعه من أهل القرية عن طَموحهم. فقال لمجرّد وجوده في حضرة النسوة:

– لقد رأيت العجب وسمعتُه! عجبت لما سمعته من أفواه الناس يا ضمير! فما وجدت بينهم مَن يَنبُذ طَموح أو

sarkht damir inside.indd 188 24/04/2018 03:18:35

يحمل له سوءًا في حديثه عنه. فجميعهم يحترمون ذكراه ويحبونه كثيرًا، لدرجة أنّ بعضهم قد حفظ له أقوالًا عدّة كان يرددها!

- إنتظر لتسمع ما أخبرتنا جميلة عنه، ستصاب بذهول أكبر! لكن كن أكيدا أنّ مشروعنا أصبح قاب قوسين أو أدنى حتّى يبصر النور. والآن علينا أن نُطلع موهوب على ما تحتويه جعبتنا من أفكار ومعلومات تخصّ المشروع فيتحضّر لدوره جيدا.

- ألا ترين يا ضمير أنه من المبكر أن نُطلع موهوب على كافة التفاصيل. إنتظري لتكتمل الحبكة والتحضيرات كافة، فالكتمان جيد في بعض الأحيان.

- أقرأ في كلماتك قلقا من موهوب يا حريّة.

- أبدا لا شيء، لكنني كنت قد أخبرتك أمرًا عبر الهاتف، أريدك أن تأخذيه على محمل الجدّ.

- لالا تخافي يا حريّة الأمور تحت السيطرة. وموهوب مؤتمن، ويستحق منّا منحه الثقة كاملة.

- القرار لك إذا.

إنتهى اللقاء في دارة حريّة. ودّعت ضمير جميلة وشكرت لها وقتها وثقتها بمشروعها وما أطلعته عليه، واتفقتا على لقاءات مستقبلية. وقد كانت ضمير متأثرة لما جمعته من أخبار

sarkht damir inside.indd 189 24/04/2018 03:18:35

عن طَموح من حبيبته. كما أنّ ما دوّنه موثوق عن لسان أهل القريّة يخدم كثيرًا المشروع وتفاصيل حبكته.

وفي طريق عودتهم، تحدّث موثوق إلى موهوب وأخبره بما حصل، وطلب منه أن يتحضّر لمباشرة العمل. وأنّ لقاءً في القريب العاجل سيجمعه بحريّة وضمير للبحث في كافة التفاصيل.

عادت ضمير إلى المنزل في وقت متأخر بعد أن أوصلت موثوق إلى منزله، وما إن دخلت بيت جدّها، حتى وجدته في إنتظارها يحمل رسالة في يده. فسألته عنها، فقال:

- لقد حضر إلينا منذ وقت قصير سائق متموّل، وأودعني رسالة قال إنّها منه، وذكر أنها لنا. ولكنني فضلت ألا أقرأها وحدي، وإنتظرت عودتك حتى تقرئيها علينا يا حفيدتي.

- يا إلهي، حصل ما أخشاه! أعتقد بأنّ صديقك متموّل يا جدي قد عزف عن تمويل مشروعي، ما دفعه إلى توجيه رسالة إعتذار، فما هاتفني تحسّبًا أو تفاديًا لردة فعلي القاسية تجاهه!

- لا تتعجلي الأمور يا حفيدتي... ولا تطلقي أحكاما مسبقة متسرّعة. فكلمات الرسائل أحيانا، تتحدث بصوت أصدق وأرقى ممّا تسمعينه عبر الهاتف.

sarkht damir inside.indd 190 24/04/2018 03:18:35

– جدي... قد سمعت اليوم الكثير عن طَموح وعن فلسفته التي يتناقلها مَن عرفوه عنه، فلا عجب أنك كنت معلمه، لأنني جرّاء ما سمعته عنه، أتخيلّه يحادث ويحاجج مثلك تمامًا بمنطق الفلسفة العقلانيّة... فالرابط الفكريّ بينكما جليّ.

– طَموح كان التلميذ الذي تفوّق على معلّمه يا حفيدتي الغالية.

– حديثك وحديث الآخرين عنه يجعلاني أتمنى لو أنني إلتقيته أو عرفته ولو لمرّة واحدة!

– لا شكّ أنك إلتقيته اليوم ومن قبل.

– وكيف ذلك؟

– لا شك أنك إلتقيته في وجه ضمير وحديثها. فما سمعته من أهله والمقربين منه يجسّد شخصه أيضًا. والآن ألا تريدين أن تطلعينا على ما تحويه رسالة متموّل؟!

– بالطبع...

فتحت ضمير رسالة متموّل، والقلق يتملكها من أن تقرأ كلمات تصيبها بخيبة الأمل... بدأت بقراءة الرسالة، وكان جدّها يقف مستمعا وهو يتأمل سماء رُصّعت بماس:

sarkht damir inside.indd 191 24/04/2018 03:18:35

"لقد إختبرت قساوة الحروب، ومرارة الفقر، وعانيت قسوة والدي وبطشه. لكنني لم أختبر يومًا الألم الذي سببته لي كلماتك اليوم يا صديقي متنوّر، فقد كانت جارحة أكثر من حدّ السيف، وقاطعة كمقصلة لا تعرف الرحمة.

نعم، لقد أخطأت في حقك منذ زمن، وكنت أسمع صرخة ضميري الذي يعذبني طيلة تلك المدة. وما كنت أعلم أن صرخة ضميرٍ واحدة قد تُلحق بي كل هذا العذاب والأسى.

أشكرك يا أخي متنوّر لأنك أيقظتني من سُباتي، أشكرك لأنك أعدت إحياء الإنسان الذي في داخلي، رغم ما تسبّبه لي من صراع في وعيي وأفكاري.

لا أعتقد بأنني أستطيع تعويضك سنوات غربتك عن وطنك، ولا حتى شعورك بالأسى جرّاء غدري لك، في حين كان من المفروض أن أكون أقرب صديقٍ إليك. وجُلّ ما أتمناه أن يسمح لي القدر في تعويضك وحفيدتك.

وكلامي هذا أوجهه إلى الآنسة ضمير.

إسمعيني يا ابنتي، جدّك رجلٌ قلّما تجدين له مثيلًا بين رجال يناصرون الخير، وهو من حاملي العزيمة والإرادة، ومن الصادقين بالقول والعمل. فتلك منحة الخالق لك، لذلك إعملي جاهدة لكي تستحقيها فتحافظي عليها. إنّ جدك مدرسةٌ إنسانيّةٌ لا تخرجي عن آداب صفوفها أبدا.

sarkht damir inside.indd 192 24/04/2018 03:18:35

أمّا في ما يخصّ مشروعك، فتأكدي أنّني سأساندك وأدعمك حتى النهاية، حتى ولو كلّفني ذلك ثروتي كاملة. فقد أيقنت بفضل جدك الحقّيقة متأخرا، فثروة الإنسان الحقّيقية ليست بما يملكه من مال أو مناصب أو أعمال، بل تتمثل في مستوى ما يحياه الإنسان مطبّقا قناعاته وأفكاره بين الأنام كافة. فيكسب بذلك احترامهم ومحبتهم من دون مقابل. لهذا تأكدي بأنّني أعتبر جدك متنوّر أثرى أثرياء زماننا فعليًّا.

ثابري في تحقيق أهدافك النبيلة يا ضمير، وافعلي المستحيل لتحقيق مشروعك حتى نجاحه، وتأكدي أنّ كلّ من ثابر نال فوصل.

أتمنى لك كل التوفيق والنجاح. والتحية الصادقة منّي لك ولصديقي العزيز جدك الفاضل الذي أحترم... والسلام".

كانت ضمير ترقص فرحًا وهي تقرأ رسالة متموّل لتضمّ جدّها وتصرخ: "لقد وافق... وافق السيّد متموّل.. لا بد أننا سننجح يا جدي". في حين أن متنوّر لم ينبس ببنت شفة وغادر من دون أدنى كلمة إلى غرفته، وقد بدا عليه التأُثر جدا بعد أن سمع صرخة ضمير صديقه في رسالته.

sarkht damir inside.indd 193 24/04/2018 03:18:36

sarkht damir inside.indd 194 24/04/2018 03:18:36

وتيرةٌ مُرهقة

في اليوم التالي، هاتفت ضمير حريّة لتخبرها بموقف متموّل، وبأنها عقدت العزم على تحضير إجتماع طارئ بحضور الجميع بمَن فيهم داعم المشروع الأول. وافقت حريّة، وإتفقتا على الإلتقاء في مكتب الأخيرة في المدينة بعد ظهر ذاك اليوم.

أبلغت ضمير كلًّا من موثوق وموهوب بأمر الإجتماع، حتى أنها إتصلت شاكرةً موقف متموّل داعيةً إيّاه إلى اللقاء، وتكفّلت حريّة بدعوة شجاع إلى الحضور.

وصلت حريّة إلى مكتبها برفقة شجاع، وما هي إلّا لحظات حتى وصلت ضمير مع الشابين برفقة متموّل في سيارته الفخمة ذات الزجاج الداكن. وبعد أن دخلوا جميعًا إلى مكتب حريّة، قالت ضمير:

– هذا اليوم مميّز حقًّا، ويجب أن نحتفل.

– أمّا الإحتفال يا ضمير، فمتمثّل بحصد النجاح بعد إنتهاء المشروع وتحقيق الغاية المنشودة منه.فلا تتعجّلي الأمور.

sarkht damir inside.indd 195 24/04/2018 03:18:36

– لم أنت دائمة القلق والحذر يا صديقتي؟ فمن الواضح أنّ مهنتك أثّرت كثيرًا في حياتك!

– ليست المشكلة في مهنتي، بل هي خبرتي المتواضعة في الحياة والمشاكل التي واجهتها بمفردي، ما يفرض عليّ التروّي دائمًا وأخذ الحيطة، واعتماد المنطق في التعبير بعد التفكير.

– على كلّ حال... أتفهم حماسة ضمير العزيزة، وخاصة بعد قرار السيّد متموّل بدعم مشروعها وقد شرّفنا اليوم بحضور إجتماعنا.

– نعم يا شجاع إنّي متحمسة جدًا، وقد بدأت أشعر بالنجاح منذ هذه اللحظة.

– إنّي قد رأيت تلك الحماسة التي تسكن عينيك وتشع بريقًا من مقلتيك، منذ اللّحظة الأولى التي دخلت فيها منزلي مع أصدقائك يا آنسة ضمير.

– سيّد متموّل... هل أنت جادٌ في تمويلك المشروع؟ هل أنت مستعد لكافة التحديّات التي ستواجهها؟ وهل تدرك بأنّ ضغوطات السلطة السياسية الجمّة ستترتب على هذا المشروع وكافة المعنيين به، بدءًا بمموليه حتى العاملين فيه ولأجل إنجاحه؟

– نعم أعي كلّ ما ذكرته لي، وإنّني لمستعد للمواجهة.

sarkht damir inside.indd 196 24/04/2018 03:18:36

- لا أعلم ما الّذي بدّل رأيك! ولكن من الواضح أنك مصمّم على المساعدة، أنا أستغرب موقفك، إلّا أنّني أصدقك.

- إن كنت لا تثقين بي فلا حاجة لأكون بينكم الآن. ولتبحثوا عن ممول آخر لمشروعكم.

إستهجن متموّل أسلوب حريّة، وقرأ جليًّا عدم ثقتها به وبمواقفه. وقف وهمَّ بالرحيل، إلّا أنّ ضمير وموثوق أوقفاه، فقالت ضمير:

- أرجوك يا حريّة لا تتسرّعي بأحكامك على السيّد متموّل فأنت لا تعلمين شيئًا عن صداقته مع جدّي، وإرادته الصادقة بمساعدتنا كُرمى لصديقه المتنوّر.

- يكفي أن أعلم بأنّ السيّد متموّل كان قد خان جدّك منذ زمن بعيد، فقد أخبرني شقيقي الراحل طَموح عن تلك المسألة وأكّدها لي القائد إلتزام. كما يكفيني أن أعي وأدرك العلاقة الوطيدة التي تجمع السيّد متموّل الثري بالسلطة السياسية وأفرادها. ولكن رغم كلّ تلك المعلومات التي أعرفها، قد قلت سابقًا إنّني أصدّقه، وسأحاول الوثوق به، لكنّ الحذر وتبيان خبايا الأفكار ضروريان جدًا لإنجاح أيّ عمل. ألا توافقني في ما ذكرته يا سيّد متموّل؟

- حريّة، أعلم أنك محاميّة ناجحة، كما أعي جيدًا طبعك وطبيعة تفكريك، فأنت في نهاية المطاف، إبنة بلدتي وشقيقة

sarkht damir inside.indd 197 24/04/2018 03:18:36

بطلنا، وقد صدقتِ في ما ذكرته. لكن تأكدي أنّني سأثبت لك صفاء نيّتي وعزمي على المساعدة، لربّما أسترد بعضًا من ثقة الناس بي وإحترامهم للإنسان الذي أحمل هويته، فلا أبقى على هيبة الناس وتبعيتهم العمياء للمال والأعمال.

– وحده القدر كفيل في نصرتك ونصرتنا جميعًا!

– حسنًا بما أنّنا جميعًا ها هنا، ولأنّنا المعنيون الأوائل في إتمام مشروع حكاية طَموح، ما رأيكم أن نضع خطوطًا عريضة وخطّة للإنطلاق في العمل، فنتنبه إلى كلّ تفصيل ونتوقّع كلّ المترتبات على عملنا؟!

– أوافقك الرأي يا موثوق. ماذا عنك يا موهوب، هل لديك ما تقوله؟

– بالطبع يا شجاع.. إسمعوني جيدًا جميعكم. لقد وهبني الله من لَدنه موهبة مميّزة لأحيا منها، وأرجوكم ألّا تفهموا أنني رجل ماديّ، وأيقنوا بأنّ مشروعكم يعنيني وأهتم لأمره، إلّا أنّني أريد أن أتبيّن ما سأجنيه من أداء دور طَموح في الفيلم، ولا تنسوا دائرة الخطر التي سأضع نفسي بها! وقد قرّرت هجرة هذا ابلد إلى دنيا الإغتراب لحظة ننتهي من العمل على هذا المشروع بالذات.

– ما بك يا رجل؟ نحدّثك بمشروع يحمل قضيّة وطنيّة، ورسالة إنسانيّة، وفي حين نحن مستعدون لنخاطر جميعًا بحياتنا

sarkht damir inside.indd 198 24/04/2018 03:18:36

والتضحيّة بالغالي والنفيس، تُجاهر أمامنا بالسؤال عن المال! هل أنت فعلًا جاد في ما تقوله؟

– دعك منه يا شجاع، وبالتأكيد هو جادٌ في ما يطرحه، وإلّا ما قال ما سمعناه منه للتو. سيّد موهوب، أنت صديق ضَمير، ونحن لا نعرفك من قبل. وقد أثنت بدورها كثيرًا على موهبتك، ولها وحدها أن تحدّد ما ستتقاضاه من عملك وإلتزامك معنا، ورغم أنني أستغرب موقفك الماديّ، إلّا أنني أتفهمه. لأنك تسعى إلى إفادة نفسك وتعمل كرمى لمصالحك الخاصة.

– صديقي موهوب، لماذا وضعتني في موقف حرج أمام شجاع وحرية والآخرين؟ لقد سبق وذكرت لك أنك ستحصل على المال، وخاصة بعد قرار السيّد متموّل بدعم مشروعنا، أي أنك ستحصل على ما تريده فلا تخشَ أمرًا كهذا، بل حريٌّ بك أن تهتم وتسعى إلى إنجاح المسألة بشكل جيّد، لأنّ نجاحه يضمن نجاحك ونجاحنا.

– لا عليك أيها الشاب، ستنال مأربك من المال ومقصدك من العمل مع ضَمير. أضمن لك ذلك، ولو أردت أستطيع تقديم سند ماليّ كضمانة لك بالمبلغ الذي تريده من هذه اللحظة.

– لا، لا أريد أيّ ضمانات، فأنا أثق بكم بشكل عام، وبضمير بشكل خاص. وما قلت كلامي هذا، إلّا بهدف مصارحتكم.

sarkht damir inside.indd 199 24/04/2018 03:18:36

– حسنًا، بما أنّ موهوب تحدث بما خطر لباله من أفكار وهواجس وقد أبدى استعداده لمتابعة المشروع معنا، فهل لدى أيّ منكم تعليقٌ إضافيّ أو رايّ يريد مناقشته معنا؟

– أعتقد يا حريّة، بأنّ جميعنا جاهزون للعمل.

– مهلك يا ضمير. قبل أن نتحدث في أيّ أمر أو تفصيل. أريدك أن تقرئي هذا النصّ الذي كتبته لكم قبل حضوركم جميعًا.

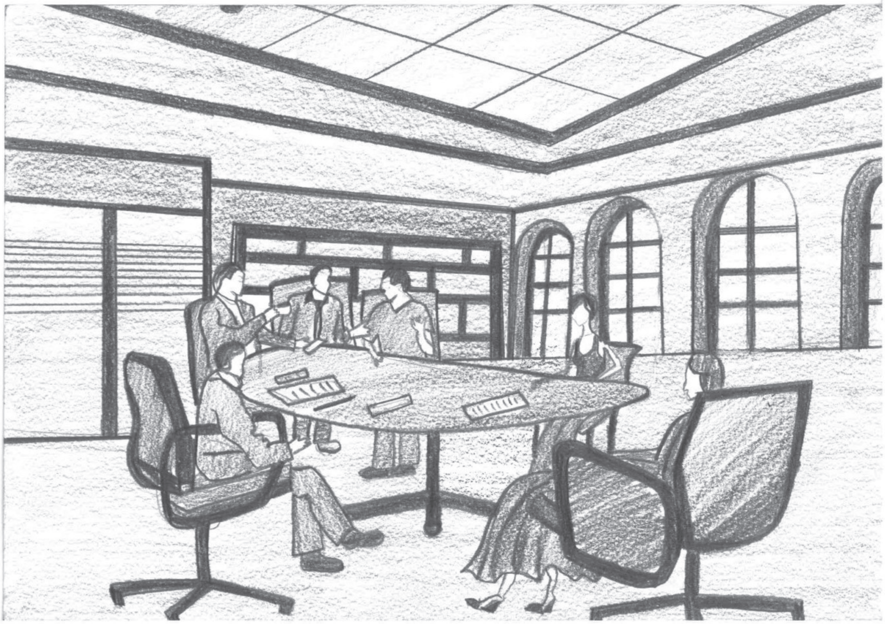

كانت حريّة تحمل ورقة في يدها منذ بداية الإجتماع، وتمسكها بإهتمام واضح.. أعطتها إلى ضَمير حتى تقرأها على العلن، فقد جاء فيها: "أنا الموقعة أدناه، المحاميّة حريّة، أقرّ وأعترف بأنني أعمل لأنجح مشروع حكاية طَموح بملءِ إرادتي، من دون إكراه أو تحريض. وسأسعى جاهدة إلى إنجاح هذا المشروع مهما كلّف الأمر، وفق ما تقتضيه القوانين العامة في البلاد وتحت سقف الدستور. فمنّا السعي وللقدير الكلمة الفصل.

التوقيع: المحاميّة حريّة".

– لكن ما حاجتنا إلى هذا الإقرار الخطيّ يا ابنة عميّ؟ فجميعنا أصدقاء ونسعى إلى تحقيق غاية صادقة واحدة بكامل إرادتنا.

– شجاع يا ابن عميّ، تلك هي غريزة المحاماة التي أحملها في عقلي وروحي، وبالتالي عليكم التعامل معها وتقبّلها. أضيفوا إلى أنّ الإقرار الشخصي مكتوبٌ على ورقة قانونيّة. فلا بُدّ أن يُساهم في إبعاد الأفكار السيئة والشكوك بيننا، فيحفز الجميع للإلتزام الجميع بالمشروع بدءًا من نفسي، وقد كتبت ووقعت ذاك الإقرار فما فرّقت نفسي عنكم حتى تستغربوا. وبعد كتابتكم إقراراتكم، سنجعل منها نسخًا على عددنا ونوزّعها علينا، فيكون في متناول كلّ فرد منّا ما يذكّره بالإلتزام الفردي والجماعي الجاد تجاه طَموح ومشروع حكايته.

sarkht damir inside.indd 201 24/04/2018 03:18:37

– إنّي أؤيد السيّدة حريّة، وسأكون أوّل مَن يكتب هذا الإقرار من بعدها. فتلك خطوة تضمن إلتزام الجميع وإبتعاد شبح الخيانة عنّا وعن مشروعنا..

– أقدّر موقفك جدًا يا موثوق، وأشكرك على دعمك فكرتي. فذاك لدليل واضح على صدقك وصفاء نيّتك. ماذا عن بقيّتكم؟

– إنني أستغرب هذا الوضع... والسؤال، في حال وقّعته لكم، كيف لي أن أتقاضى أجري بعد إتمام عملي؟ فالنصّ يذكر بأنني ألتزم المشروع بملء إرادتي من دون إكراه، فلربّما تُرجم ذلك بأنني أقدم جهدي وعملي من دون أيّ مقابل!

– غريبٌ أمرك... مَن قال لكَ إننا لن نعطيك مالك. كم هو صعب تصديق شخص ماديّ مثلك؟ أنا لم أقابل مَن يجاهر بمثل كلامك من قبل.

– مهلك يا شجاع، لا تقسُ على موهوب، بالتأكيد لديه أسبابه.

– ما الأسباب التي قد تجعل المرء يلهث خلف المال من دون أي إعتبار لقضيّة أو غاية إنسانيّة شريفة؟

– يا موهوب، هل يمكن أن أناقشك في ما يخصّ دورك لإتمام مشروعنا؟

sarkht damir inside.indd 202 24/04/2018 03:18:37

- تفضلي أيتها المحامية.

- هل أجبرتك ضَمير أو أيّ شخص آخر على المشاركة في مشروع حكاية طَموح؟

- قطعًا، لا.

- وهل ستعمل معنا بملء إرادتك ومن تلقاء ذاتك وتكون مجتهدًا ملتزما خدمة لإنجاح العمل؟

- بالتأكيد.

- هذا هو فحوى الإقرار الخطيّ الذي تردّدت في كتابته، والإقرار لم يلحظ أي بند متعلق بأجرك أو بدل أتعابك. ولك كامل الحقّ في طلب ما تريده، وبالتأكيد سيكون عملك مقابل أتعاب تتّفق عليها مع ضَمير، الآن أو في وقت لاحق بعد الإجتماع.

- حسنًا... إنّ كان الوضع كما تقولين، فسأكتب الإقرار وأوقعه.

- وأنت يا ضمير، أرجوك أن تكتبي الإقرار أيضًا.

- لكنني صاحبة فكرة المشروع، وأهتم أكثر من أيّ منكم لإنجاحه!

- حتى لو كان كما تقولين، فهذا لا يعفيكِ من كتابته، عملًا بمبدأ المساواة بيننا جميعًا. أرجو أن تكتبيه وتوقعيه.

sarkht damir inside.indd 203 24/04/2018 03:18:37

وأنا أتمنى من السيّد متموّل ومن ابن عمي شجاع أن يكتباه ويوقعاه أيضًا.

رغم إستغراب الجميع طلب حريّة، إلّا أنهم إمتثلوا لها بعد أن أتلت عليهم حججها المقنعة، وخاصة أنها وقّعت الأوراق قبلهم جميعًا. وما إن إنتهوا من كتابة تعهداتهم الخطيّة وزّعوا نسخًا عنها فقال متموّل:

– ما الخطوة التالية يا شباب؟

– صرت متحمسًّا أكثر منّا! كيف تبدلت من متردد ورافض المشروع، حتى أصبحت أكثر المتحمسين لإنجاحه؟

– لا شيء أنا أسعى خلف الحقّيقة.

– وعن أيّ حقيقة تتحدث؟

– أسعى إلى تبيان حقيقة وجودي يا شجاع.

– يا لها من إجابة تحتاج للتفكير أيامًا حتى نفهمها.. لذا سأكتفي بالقول أنك أقنعتني.

– حسنًا أيها الأصدقاء... في الأيام القليلة القادمة، سأنهي كتابة النصّ كاملًا، بالإضافة إلى وضع تصوّر نهائي للمشاهد كافة. فقد جمعنا ما يكفي من المعلومات والأحداث الكفيلة بإعطائنا تصورًا كاملًا عن حياة طَموح منذ طفولته حتى لحظات الغدر به، ومدى تأثر الناس به حتى بعد رحيله.

sarkht damir inside.indd 204 24/04/2018 03:18:37

من المرجّح أن أنتهي في غضون أيام. لنبدأ تصوير المشاهد، وقد ننهي العمل خلال أسبوع.

- لقد أعلنت عن القسم الخاص بكِ.. وماذا عنّا جميعًا؟

- أنت يا شجاع ستكون مسؤولًا عن عملية الإنتاج والتمويل، وستكون صلة وصلٍ بيننا وبين السيّد متموّل.

- أريد أن أكون معكِ أكثر.

- ماذا تقصد بقولك هذا؟!

- لا شيء محدّد... جُلّ ما أقصده أنني مستعد لتقديم المساعدة أكثر في مسألة الإنتاج، فلربما احتجتني في أمور أخرى!

- في حال احتجت إلى المساعدة فلن أتوانى عن طلبها منك.

- حسنًا...

- أمّا أنت يا موهوب، فعليك أن تقرأ النصّ جيدًا بعد أن أسلّمك إيّاه خلال يومين كحدّ أقصى، على أن تكون حاضرًا لتصوير المشاهد لأننا لا نملك الكثير من الوقت والمساحة من العمل، فلا نعرف ما الذي تخبئه لنا الأيام.

- تقصدين لا نعلم كيف سيتعامل أهل السلطة مع المسألة، وكيف ستكون ردّة فعلهم تجاهنا.

sarkht damir inside.indd 205 24/04/2018 03:18:37

- هذا بالتحديد ما قصدته يا سيّد متموّل. أمّا أنت يا حريّة فدورك واضح جليّ، لأنك ستتابعين كافة الأمور القانونية وسنسير جميعنا وفق تعليماتك.

- لقد تحضرّت جيدًا، ولتعلموا جميعًا، إيّاكم ومخالفة القانون مهما كلّف الأمر. فالحريّة تبقى مشروعة حتى تتخطّى أسوار الدستور والقوانين. لم أقبل مخالفة القانون من من قبل، حتى أقبل بمخالفته اليوم. وتذكّروا جيدًا، في حال كانت غايتنا صافية نقيّة، وجب أن تتلاءم مع الوسيلة تمامًا. فلا يجب أن تتعارض الغاية مع الوسيلة البتّة.

- كلامك منطقي يا حريّة. أوافقك.

- مرّة جديدة أشكر تفهمك ودعمك مواقفي يا موثوق.

- حسنًا والآن بعد أن توضحت كافة الأمور، أعذروني لأن لي إرتباطات أخرى، لذا يتوجّب عليّ المغادرة.

- سنغادر جميعنا يا سيّد متموّل، فلا شيء نضيفه على الإجتماع. وسنلتقي بعد يومين لأطلعكم على مضمون النصّ والمشاهد.

- إذًا إلى لقائنا التالي.

- نعم يا حريّة. والآن فلنغادر، ولكن ماذا عنك؟

sarkht damir inside.indd 206 24/04/2018 03:18:37

– إنني أنتظر أحدهم كان قد وكّلني مسؤولية قضيته قبل أيام.

– سأبقى معك يا ابنة عميّ. لعلّك تحتاجين إليّ.

– لا يا شجاع، أريدك أن ترافق ضمير إلى منزلها فهي تريد أن توضح معك بعض أمور طَموح، وقد كنت أنت الأقرب إليه، أما أنا فأريد مقابلة موكلي على حدة لتتسنّى لي دراسة ملفه جيدًا.

– حسنًا، سأرافق ضمير، ألقاكِ غدًا.

– إلى اللّقاء جميعًا.

sarkht damir inside.indd 207 24/04/2018 03:18:37

sarkht damir inside.indd 208 24/04/2018 03:18:37

إعترافُ الحبّ

رحل الجميع تاركين حريّة وحدها في مكتبها تنتظر موكّلها، بينما أقلّ شجاع ضمير في سيارته الخاصة إلى منزلها بعد أن أوصل موثوق وموهوب إلى وجهتيهما.

وفي طريقهما إلى منزل متنوّر،كان شجاع ينظر إلى ضمير بإستمرار وفي عينيه كلمات يتردّد لسانه بنطقها. فسألته ضمير:

- لمَ أنت في حيرة من أمرك!

- وما الحيرة إلّا بسببك!

- بسببي أنا؟! ما السبب؟

- المشكلة أنك لم تفعلي شيئًا.

- ماذا تقصد؟ لا أفهمك.

- لقد تعلمت من ابن عميّ طَموح أن أكون صريحًا في حياتي، وأن أقول كلّ ما أرغب في قوله مباشرةً ما دمت صادقًا وصائبًا.

sarkht damir inside.indd 209 24/04/2018 03:18:37

- حسنًا، صارحني أرجوك، تفضل.

- أنتِ شابةٌ متّقدة الذكاء، لكنّني أحيانًا أشعر أنّك لا تتمتّعين به!

- وهل هذا ما يقلقك يا شجاع؟ واقع حالي إن كنت ذكيّة أم لا؟! عجبًا.

- لا بالطبع لا. ولكن أعتقد بأنكِ فهمت مرامي.

- ما الذي يجب أن أفهمه؟ ما طلبت أمرا بعد..

- لا، ولكن كان من المفروض عليك أن تفهمي وتقرئي جيدًا.

- شجاع، أعتقد أنّ مفهوم الصراحة قد إختلط عليك. فمنذ أن بدأت الكلام، لم تتحدّث بصراحة، بل بألغاز لا حلّ لها. أوضح لي مأربك لو سمحت!

- عندما إلتقينا في منزل جدك للمرة الأولى..عندما رأيتك. علمت أنك ضمير التي أبحث عنها وحريّة.

- يا إلهي كم أنت ذكيّ.. لا أصدق! فعلًا لقد أنجزت أمرًا مستحيلًا بكشفك هذه المسألة المهمّة!

- وهل تسخرين منّي؟

- شجاع... هل أنت معجب بي؟!

sarkht damir inside.indd 210 24/04/2018 03:18:37

صدِمَ شجاع لما سمعه! وما كان منه إلّا أن أوقف السيارة بشكلٍ مفاجئ، والحيرةُ تعتريه. نظر إليها بخجل وسألها قائلًا:

- كيف علمتِ؟!

ردّت ضمير بجرأة تصحبها إبتسامة راقيّة وهي تنظر أمامها:

- ما هذا السؤال؟! تاهت منك الكلمات مُذْ أردت مصالحتي... تتحدث من دون أن تنظر في عينيّ... ألا تلاحظ الإرتباك الذي وقعت فيه وكيف تتلعثم في أثناء كلامك؟ تلك عوارض الإعجاب التي يقع في شركها أغلب الشبّان عندما يقابلون فتيات ويحاولون إبداء إعجابهم بهنّ.

- ولماذا لم تسهلّي الأمر عليّ منذ البداية؟

- لأنني أفسحت لك المجال لتكون صريحًا... إلّا أنك ازددت غموضًا وتعقيدًا.

- لماذا تضحكين؟

- لأنني لاحظت إهتمامك بي منذ زيارتنا منزل متموّل، ولقاءاتنا المتتاليّة، فقد كانت عيناك تسترقّان النظر إليّ وأنت تعاندهما مخافة أن يراك أحد.

- لقد صدقتِ فعلًا في ما قلته!

sarkht damir inside.indd 211 24/04/2018 03:18:38

– واليوم بالذات، كُشِف أمرُك، وأعتقد أن جميع مَن كانوا في المكتب معنا لاحظوا إهتمامك وإعجابك بي لحظة قلت إنك تريد أن تكون معي وبقربي حتى تساعدني. ورغم أنني فهمت مقصدك، وتبيّنت حقيقة موقفك، إلّا أنني سألتك الإيضاح منعًا لإحراجك.

– إذًا هل أنت موافقة؟

– وعلام تريدني أن أوافق؟ كم أنت غريب بحق! إنك لا تجيد الإفصاح حتى عن مكنونات فؤادك!

– هذا لأنني أخاف أن أخسرك.

– لا عليك، فقد قلت لك أنا أفهم موقفك وأتفهم ظروفك.

– ضمير، حقًّا أنت تعجبينني... وأريد أن أتقرّب منك أكثر كما أريد أن نمضي بعض الوقت سويًّا.

– شجاع دعني أصارحك بدوري.

– تفضلي أرجوك.

– لا شكّ أنّك شاب شهم ونبيل. ودليل ذلك صداقة طَموح وحريّة لك وثقتهما التامّة بك. كما أنني تبينّت شجاعة منك وإهتمامًا منقطع النظير في مسألة إنجاح مشروعنا. أنت تحمل

sarkht damir inside.indd 212 24/04/2018 03:18:38

خصالًا وصفات أحترمها جدًا. ولكن في الوقت الآني، لا أفكر أبدًا في الإرتباط سوى بمشروع حكاية طَموح وإحتمالات نجاحه وفشله. كما أعتقد بأن إعجابك بي لا يتعدى كونه ناتجًا عن وفائك لابن عمّك طَموح وإلتزامك بقضيته التي رأيتها تبعث من جديد في المشروع الذي إقترحته عليكم. لهذا أسألك التروي في موقفك تجاهي، وسأترك الحكم للأيام، وللقدر طبعًا الكلمة الفصل. والآن هلّا إنطلقت بي لأنني أعتقد بأنّ جدّي متنوّر بدأ يقلق عليّ.

– من الواضح أنك لا تريدين الغوص أكثر في الحوار، وأحترم رأيك وموقفك. ولكنني جاد تمامًا في ما طرحته عليك للتوّ، فما انقطعت عن التفكير فيك طيلة الأيام التي خلت.

– شكرا لإهتمامك يا شجاع، ولكن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت، ليتسنى لنا التفكير بعمق، عليك أن تتروى في إطلاق عنان مشاعرك، وأن تحدّد أهدافك بشكل أوضح. أمّا أنا فلن أعطي في الوقت الراهن أولوية إلّا للمشروع.

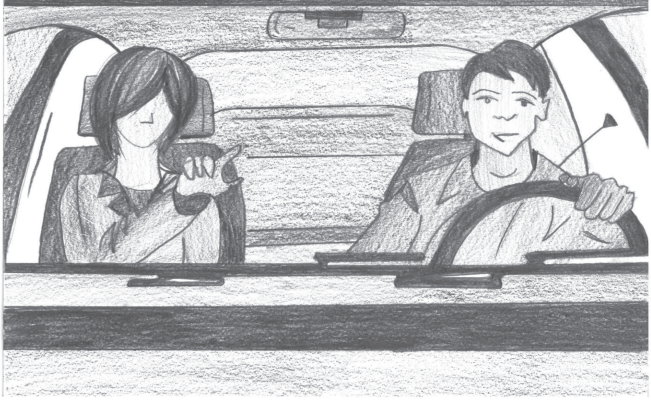

sarkht damir inside.indd 213 24/04/2018 03:18:38

إنطلق شجاع بسيارته متّجهًا إلى منزل ضمير، وهو يفكر في كلامها، رغم أنه لم يشعر بالحزن، فهو يحترم موقف ضمير لناحية مسألة تحديد أولوياتها، وترتيب الأمور في حياتها، إلّا أنّه كان قلقًا من ألّا تبادله المشاعر عينها.

sarkht damir inside.indd 214 24/04/2018 03:18:38

الإعتقال

وصلت ضمير إلى المنزل، لتجد متنوّر في إنتظارها قلقًا عليها. ألقى شجاع التحيّة عليه ومضى في سبيله، في حين أنّ ضمير أخذت تخبر جدّها عمّا حصل معها وبأنها أصبحت قادرة على إنجاز المشروع في غضون أيام قليلة.

مضى يوم كامل لم يتواصل خلاله الأصدقاء، فكلّ فرد منهم منصرف إلى إتمام مهامه، حتى رنّ هاتف حريّة ذات مساء، فردّت على المكالمة لتسمع صوت متنوّر، فسألته:

– جدي العزيز، بمَ أخدمك؟

– هل كلمتك ضَمير اليوم؟

– لا لم أسمع منها شيئا، إلّا إنني أتوقع زيارتها!

– لقد أمضت اليومين الماضيين تكتب وتحضّر لمشروعها ليل نهار، وكانت قد عقدت العزم على زيارتكِ عصر هذا اليوم. إلّا أنها خرجت من المنزلِ وقت قيلولتي، وما أعلمتني بوجهتها.

sarkht damir inside.indd 215 24/04/2018 03:18:38

- لا تشغل بالك... لا بُدّ أنها برفقة موثوق أو موهوب.

- إعتقدت ذلك أيضًا، ولكنّي تواصلت معهما، موهوب لم يرها حتى الساعة ولم يتواصل البتّة معها اليوم، أمّا موثوق فهاتفه مغلق!

- لا تقلق... لا شكّ أنها في طريقها إليّ. سأحاول التواصل معها فأطمئنك بعدها.

- لكن هاتفها هي الأخرى مغلق! لقد بدأتُ أقلق عليها!

- أرجوك ألا تقلق... سأفعل المستحيل حتى أعرف مكانها ولا بُدّ أن أجدها فأريح فؤادك.

- حسنًا، لا تتأخري عليّ يا ابنتي، أرجوكِ يا حريّة.

- لا تقلق، سأعود بالخبر السار في أقرب وقتٍ ممكن. أتمنى عليكَ أن تهدّئ روعك. ضمير شابّة ذكيّة جدًا ومسؤولة. إلّا أنني أريد أن أستوضح أمرًا يا جدّي؟

- تفضلي يا ابنتي.

- هل زارها أحدٌ ما أو تحدثت إلى أيّ أحد؟ أرجوكَ تذكر.

- لقد قلتُ لكِ سابقًا إنها لم تخرج من المنزل، ولكنّها كانت تكتب وتحضّر ليل نهار.. وتتواصل تارةً مع موهوب

sarkht damir inside.indd 216 24/04/2018 03:18:38

وطورًا مع موثوق، كما سمعتها تحادثكِ بالإضافة إلى متموّل أيضًا، لكنها... لحظة تذكرت! هنالك شخصٌ آخر دأب على مكالمتها وكانتتحادثهه بصوتٍ خافت دائمًا، ولم أشأ أن أسألها! لكنني أستطيع أن أجزم أنّها كانت مرتاحة طيلة الوقت متبسّمة الوجه، وكأنها تكلم معجبًا ما أو حبيبًا!

– ما دمت رأيتها مغتبطة فلا داعي للقلق لهويّة ذلك المتصل، حادثتني مرتين أو أكثر في اليومين الماضيين وكانت سعيدة ومطمئنة. فلا بُدّ أنها بخير. سأبحث عنها وأخبرك فيما بعد.

– بالتوفيق يا حريّة... وإنّي منتظر مكالمةً منك تثلج قلبي بالخبر السار.

– حسنًا يا جدّي إلى اللقاء... سأباشر البحث عنها لا تقلق.

أنهت حريّة إتصالها، وأخذت تجمع أفكارها، محاولة أن تعرف مكان ضمير لتطمئن إليها. فتذكرت القائد إلتزام، فما من أحد سواه له قدرة في مسائل كهذه. فكلمّته:

– هل تبحثين عن صديقتكِ؟

– لقد كنت متيقّنة من علمك مكانها!

– إنها محتجزة على ذمّة التحقيق منذ عصر هذا اليوم.

sarkht damir inside.indd 217 24/04/2018 03:18:38

– يا إلهي، أقلتَ محتجزة!؟ هي موقوفة في السجن؟! وبأي تهمة؟

– لقد إعتقلتها أجهزة الأمن، بتهمة التآمر على السلطة السياسية، محاولة منها الإنقلاب على صيغة النظام السياسيّ، بالإضافة إلى بثّ الفتن ومحاولة زعزعة الأمن والإستقرار. أضيفي إلى أنهم وجدوا معها نصًّا مكتوبًا وأوراقًا كانت قد حضّرتها مسبقًا، رأت الأجهزة بأنها مواد تضرّ بأمن البلاد.

– لكنك تعلم علمًا يقينًا ما تفعله ضَمير أيها القائد! وأنت تعلم كما أعلم تمامًا، أنّ ضَمير لم ولن تخالف القانون أبدًا، ولا تفعل أيّ أمر يضرّ بالأمن والإستقرار في الوطن.

– هذا من وجهة نظرك، لكن ليس من وجهة نظر الرئيس مُتحكّم!

– أقلتَ الرئيس متحكّم؟! أتعني به رئيس بلادنا متحكّم!؟

– نعم، يا حريّة هو عينه. لقد كان فخامة الرئيس مَن أوعز إلى الأجهزة الأمنية بإعتقال ضَمير ومصادرة الأوراق التي معها، وأمر بسجنها على ذمّة التحقيق، مشدّدًا على ألّا يُخلى سبيلها إلّا بعلمه. ولكن أتمنى منكِ ألّا تخبري أحدًا ما قلته لكِ.

sarkht damir inside.indd 218 24/04/2018 03:18:38

– ولكن كيف علِمَ متحكّم أو الأجهزة الأمنيّة بأنّ ضَمير تحمل معها اليوم بالذات أوراقًا معيّنة، حتى يتمكّنوا من إستخدامها قرينة لتوقيفها إحتياطيًّا!؟ ألا تستغرب هذه المصادفة؟

– كُنّا قد تحدثّنا في الأمرِ سابقًا يا حريّة! كلانا يعلمُ جيدًا أنّ شخصًا مقرّبًا من الآنسة ضَمير يرافقها كي يراقبها وهو ليس محطّ ثقة!

– نعم، أعلم أعلم... لكن لم أكن لأتوقع إنه سيتحرك بهذه السرعة!

– ما الذي تنوين فعله؟

– سأذهب إلى سجن العاصمة لأسأل عن ضَمير فأتوكّل عنها بالطبع.

– وأنا سأتابع مسألة إعتقالها بدوري، لكنّي سأكون داعمًا لكِ في الظلّ ولا شكّ أنكِ تقدّرين موقفي، ففي نهاية المطاف أخضع لسلطة متحكّم.

– حسنًا، أشكرُ لكَ تعاونك يا صديقي العزيز، فقد كنتَ دائمًا وفيًّا صادقًا في إلتزامك معنا أيها القائد.

– أنتم فرسان حقّ، وإنني لأحيا مناصرًا الحقّ ما بقيت.

– عرفتكَ مسؤولًا شهمًا، وعهدتك أصيلًا وستبقى. الآن إلى اللقاء. نتواصل لاحقًا.

sarkht damir inside.indd 219 24/04/2018 03:18:39

- إلى اللقاء أيتها الغالية... في رعاية القدير.

اتّصلت حرية بمتنوّر لتطمئنهُ، ولتخبره كذلك عن مكان حفيدته وأنها ستفعل المستحيل لتنهي هذه المسألة بسلام. وبعد ذلك إتّصلت بشجاع وطلبت أن يَحضر إلى منزلها بعد أن أخبرته عن مسألة الإعتقال، فحضر على وجه السرعة. وبعد أن تناقشا مطوّلًا، طلبت حريّة من شجاع أن يذهب إلى متموّل ليقف عند رأيه ويتأكّد عزمه على مواصلة دعمه المشروع حرصًا على إتمامه، فقد توقّعت أن تطول مسألة الإعتقا، وقد يعمدون كلّهم إلى مواصلة العمل وضمير محتجزة. في حين أنّ حريّة بدورها ستذهب إلى مركز العاصمة لتحاول إخراجها بكفالة مالية أو ربما بسند إقامة.

وصلت حريّة إلى مديرية الأمن في العاصمة سائلة عن ضَمير، فما كان من المحقق رئيس المديريّة إلّا أن أنكر وجودها لديهم، مستفهمًا عن الجهة التي أخبرتها بوجود صديقتها عندهم. وقفت حريّة في مكتبه بثبات، وتحدثت إليه بصوتٍ جريء لا يعرف التردّد أو الخوف، قائلةً له:

- تمعّن جيدًا بوجهي أيها المحقق... وحاول أن تتعرّف إليّ.

- ولماذا سأتمعن في وجهك؟ أنا لا أعرف عنكِ سوى أنّك محامية، وهذا ما أخبرني به الحراس قبل دخولك مركزي.

sarkht damir inside.indd 220 24/04/2018 03:18:39

– أولًا إنّه ليس مركزك، بل هو مركزٌ رسميّ في الدولة التي تمثل سلطان الشعب وإرادتهُ، وحضرتُكَ لستَ سوى موظف في جهاز أمن له حقوق وعليه واجبات. أفهمت؟

– وكيف تتحدثين معي هكذا يا امرأة؟ إحذري من كلامك وإلّا سجنتكِ!

– إخرس!

– أتقولين لي أن أخرس؟! يا حرّاس!

نادى المحقق الحرّاس ليدخلوا مكتبه ويعتقلوا حريّة بتهمة الإهانة في أثناء تأدية الواجب. غير أنّ القائد إلتزام دخل على عجل. فوقف المحقق مباشرةً وأدّى له تحية الاحترام. إبتسمت حريّة للقائد وأومأت برأسها مقدّرةً له حضوره، ومسألة مساندته لها في أحلكِ الظروف. فقال القائد إلتزام:

– أيها المحقق، أردتك في مسألة مهمّة. لكنّني أجدُك مشغولا مع الأستاذة حريّة.

– وهل تعرفها يا سيدي؟

– أعتقد أنّك الوحيد في هذا البلد الذي يجهل من تكون السيدة حريّة أيها المحقق! إنّها المحامية الفذّة، القاضية السابقة التي شغلت منصب المدعي العام. إنّها شقيقة بطل الشعب طَموح.

sarkht damir inside.indd 221 24/04/2018 03:18:39

- يا إلهي، أعذريني يا سيدتي لأنني لم أتعرّف إليكِ. أرجوكِ أن تغفري لي!

- لا عليكَ أيها المحقق لكنني ما زلت عاقدة العزمِ على أن أعرف مصير صديقتي.

- لكن يا سيدتي قد ابلغتك سابقا أن الانسة التي تسألين عنها ليست عندنا.

- عمَن تسألين يا أستاذة؟ وما سبب شرف زيارتك مديرية الأمن المركزي في العاصمة؟

- لقد فُقِدَت منذ الصباح المخرجة والإعلامية الآنسة ضَمير. وهناك شهود يؤكدون أنها اقتيدت إلى هذه المديرية. لكن المحقق يُصرّ على الإنكار، ولا يريد المساعدة أبدا.

- أنت تعلمين يا سيدتي أنّ المحقق يقوم بواجبه الوظيفي، ولا يسعه إلا التقيّد بأوامر رؤسائه وتعليمات النيابة العامة.

- وهل نسيت أيها القائد أنني كنت أشغل منصب المدعي العام سابقا، وبأنني محامية أيضًا، ومن البديهي أن أعرف القانون تمام المعرفة!؟

- لا... لم أنسَ ذلك!؟

- إذا، أتريدني أن أملي عليكما مع كامل إحترامي، نص القانون الجزائي المدني، الذي يضمن حقوق المُحتجز لدى

sarkht damir inside.indd 222 24/04/2018 03:18:39

الجهّات الأمنية، بدءًا بالسماح له بإخبار عائلته بمسألة توقيفه، وصولا إلى حقّه الشرعي بتوكيل محامٍ ليدافع عنه أمام القضاء! ولا تنسيا أيضا أنّ ليَ علاقات مع وسائل إعلام كثيرة، ففي حال أصرّ حضرة المحقق على إنكار وجود الآنسة ضمير لديه، سأدعو الإعلام إلى مؤتمر صحفي، وأكشف المستور، وليتحمل عواقب كتمانه وواجباته الوظيفية التي تقارب كونها توقيفًا تعسفيًّا غير قانوني في حقّ المواطنة ضمير!؟

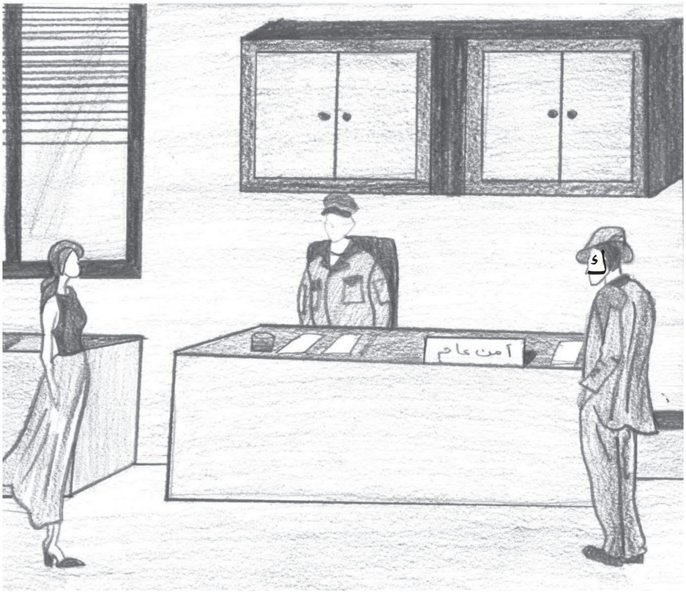

انت حريّة تنطق بتلك الكلمات بلهجة قاسية لا تحمل مُزاحًا أو تردّدا، ومن دون أن تنظر حتى إلى المحقق، الأمر الذي دفعه إلى الإرتباك. في حين أنّ القائد إلتزام كان يبتسم لها

sarkht damir inside.indd 223 24/04/2018 03:18:39

إبتسامة ماكرة، حتّى لا يكشف أمر مساعدته لها. تابعت حريّة قائلة بعد أن ألقت نظرة في عيني المحقق:

- والآن أيها المحقق، سأكرر سؤالي إليك، وعلى مسامع قائدك، أين ضمير؟

إرتبك المحق، وتاهت نظراته ملتفتا تارة يمينا وطورًا يسارا إلى رئيسه إلتزام لعلّه يلتمس المساعدة منه، فقال له القائد:

- أيها المحقق، لطالما كانت الأستاذة حريّة في صفّ القانون والدولة بأجهزتها كافة ومؤسساتها. كما أنها قدّمت الكثير في سبيل إحقاق الحقّ والعدالة في أثناء عملها في سلك القضاء. غير أنني لن أوجه لك أي أمر بهذا الخصوص، لكنني أقول لك يمكنك الوثوق بهذه السيّدة الحرّة الأبية تمام الثقة. ولك أن تحدّد إجابتك. فقد شغلتُ أنا نفسي وظيفتك من قبل، وأعي تماما مسؤليتك وصعوبة موقفك!

بعث كلام القائد إلتزام الإطمئنان إلى نفس المحقق، وكأنه يقول له، يمكنك أن تخبرها كلّ شيء، لكن في الوقت نفسه صان له كرامته، وحافظ له على رفعة شأنه ومنصبه من دون أن يتحمل بدوره أدنى مسؤولية. فقال المحقق:

- أستاذة حريّة، سأصارحك في مسألة توقيف الآنسة ضمير، ولكن أرجوك ألا تطلبي مقابلتها اليوم، لأنّ التعليمات

sarkht damir inside.indd 224 24/04/2018 03:18:39

أوضحتها جهّات عليا، بأنّه يمنع عليها بتاتا مقابلة أحد، ومن المرجح أن تقابل شخصًا مهما في المساء. لذا يمكنك أن تحضري غدا، ليمضي على التوقيف ما يقارب الأربعة وعشرين ساعة، عندها يمكنك أن تقابليها.

– حسنا هات ما عندك أيها المحقق.

– لقد تلقينا عصر هذا اليوم إشارة من النيابة العامة بطلب من جهات سياسيّة رفيعة المستوى، لتوقيف المدعوة ضمير، بعد أن وصلتنا معلومات أكيدة عن مكانها برفقة أحد المقرّبين منها.

– أقلت أحد المقرّبين.. ؟

– مَن هو؟

– أعتقد أيها القائد إلتزام، بأنّ رجالكم ألقوا القبض على ضمير وهي برفقة صديقها موثوق. أليس كذلك؟

– وهل تعرفين الموقوف الآخر أيضا؟!

– إذا موثوق أيضا موقوف لديكم؟

– نعم.

– إذا هذا هو سبب انقطاع الاتصال بهاتفه؟ ولكن ما تهمته هو الآخر؟!

sarkht damir inside.indd 225 24/04/2018 03:18:40

– لقد كان برفقة الآنسة ضمير، وحين حاول رجالنا توقيفها تصدّى لهم وواجههم محاولا الدفاع عن رفيقته، ما اضطرنا إلى ضربه وإقتياده إلى السجن.

– يا إلهي كيف ضربتموه؟ هذا فعل تعنيف واعتقال تعسفيّ! فدفاعه عن صديقته كان لمحاولة تبيان سبب توقيفكم لها وهو ليس سببا كافيا لضربه واحتجازه!

– هذا ما حصل.

– حسنا سأرحل الآن، وسأعود غدا صباحا وتأكد أنّني لن أرحل قبل مقابلة الموقوفة.

– لكِ ما تريدينه يا أستاذة.

– لكن هناك مسألة أخرى.

– ما هي؟

– أريدك أن تعدني، بأنك ستخبرها بقدومي اليوم، وأني اطمأننتُ إلى حالها، لأطمِئِن جدّها بدوري، ولك أن توصل لها عبارة صريحة منّي مفادها: "لا تقلقي ستخرجين قريبا، وكل شيء سيكون على ما يرام". هل تعد بنقل رسالتي تلك بأمانة؟

– أيها المحقق، إفعل ما طلبته منك الأستاذة. هذا أمر عسكري.

sarkht damir inside.indd 226 24/04/2018 03:18:40

– حاضر سيدي. لك ما طلبتِ يا أستاذة. وإنّي سأكون في انتظارك صباح غد بإذن الله.

– إهتموا بها جيدا، ولا تعاملوها معاملة الأسرى أو السجناء، بل أتمنّى أن تعاملوها معاملة الضيوف لأنها مواطنة صالحة.

– حتى أنّ الأوامر العليا تقضي بعدم التعرّض لها أبدا، بل توقيفها وإحتجازها على ذمّة التحقيق. إلى أجل غير مسمّى.

– حسنا. إلى اللقاء صباحًا.

– إلى اللقاء يا أستاذة.

– سأرافقك حتى سيارتك يا سيّدة حريّة.

– لا داع لذلك أيها القائد إلتزام.

– هذا واجبنا تجاه أهل المواطنة وفرسان القانون يا سيدتي.

– حسنا... شكرا.

– سيدي، ما الأمر المهم الذي أتيت من أجله؟ لم تخبرني به بعد!

– سأخبرك عندما أعود.

– حاضر سيدي.

sarkht damir inside.indd 227 24/04/2018 03:18:40

خرجت حريّة برفقة القائد إلتزام من مكتب المحقق، وما إن وصلا إلى موقف السيارات حتى سألته حريّة:

- إلتزام يا صديقي، مَن عساها تكون تلك الشخصية المهمة التي ذكر المحقق حضورها اليوم بهدف رؤية ضمير؟

- أظنّ أنه كان يقصد الرئيس متحكّم.

- هذا ما توقعته أيضا.. وما رأيك في ذلك؟

- ضمير لم تخالف القوانين صراحة، ولم ترتكب أيّ جنحة أو حتى جناية. بل تحججوا بأسباب واهية لتوقيفها، وذاك فعلٌ لا يعدو كونه إعتقالًا سياسيًّا تعسّفيًّا.

- قد قرأت أفكاري.

- أعتقد بأنّ الرئيس سيعرِض على ضمير العزوف عن مشروعها أو مغادرة البلاد آمنة، وسيحاول رشوتها بمركز وظيفيّ مهم ومرموق! قد أكون مخطئة، لا أدري.

- ضمير عنيدة جدًا.. أعرفها تمام المعرفة. هي لن تقبل التراجع أبدا، ولن تقبل أن تبيع قناعاتها مقابل منصب من هنا أو مبلغ من المال من هناك، مهما كان كبيرا. كما أنّني متيقنة بأنها سترفض مغادرة البلاد في حال عرض عليها الأمر كحلّ لأزمتها.

- إذا لا بدّ أنها ستواجه مشاكل جمّة. لأنّ فترة إحتجازها ستطول. لا تنسي بأنّ متحكم يشغلُ مَنصِبَ رئيسِ البلاد.

sarkht damir inside.indd 228 24/04/2018 03:18:40

- دعنا ننتظر حتى الغد لنَبني على الشيء مُقتَضاه. ولكن أرجوك أن تؤكّد على المحقق نقل رسالتي إلى ضمير، فلا بدّ أنها قلقة على جدّها، كما أنها لا بُدّ ستطمئِن في حال علمت بأنني حضرت لأتابع مسألة توقيفها.

- طلبك أمر وليس سؤالًا. لك ما تريدين.

- أشكرك أيها القائد على مواقفك الصادقة معي. ولطالما كنت الصديق الصدوق الذي أفتخر بوجوده إلى جانبي.

- هذا واجبي تجاه زميلي وصديقي الراحل طَموح من جهة، وتجاه شقيقته المواطنة الحرّة حريّة من جهة أخرى.

- شكرا لك على كلّ شيء. إلى اللقاء. سنتواصل غدا.

- إلى اللقاء.

غادرت حريّة متجهة إلى منزلها، وفي أثناء عودتها، إتصلت بالجدّ متنوّر وأخبرته عن مكان حفيدته، طالبة منه عدم القلق وبأنها تهتم بالأمر جيدا، سائلة إياه ألا يخبر أحدًا. وبأنها ستطلعه على المستجدات كافة. كما هاتفت ابن عمها شجاع وأخبرته بما حصل معها، وطلبت منه الحضور باكرا، ليترافقان إلى مركز الأمن في العاصمة.

sarkht damir inside.indd 229 24/04/2018 03:18:40

تسلّطٌ وقمعٌ

حضر متحكم رئيس البلاد في تلك الليلة بالذات وفي وقت متأخر إلى مركز الأمن في العاصمة، وقابل ضمير، محاولًا بيعها حريتها مقابل حياةً ذليلة، تخسر فيها روحها برهنها للسلطة السياسية، في حين تكسب المعنويات والثروات الماديّة.

أحضروا ضمير إلى مكتب المحقق لتلتقي بمتحكم، ولم يقابلها هذا الأخير في غرفة التحقيق، محاولا طمأنتها عن دفائن نواياه تجاهها.

مذ دخلت الشابة، وقف متحكم من خلف المكتب الكبير ليستقبلها، وطلب المحقق من الرجال الإنصراف ليبقى الثلاثة وحدهم، فقالت ضمير:

– ماذا فعلنا حتى ننال شرف لقائكم يا رئيسُ؟

– أنت فعلا فتاة مشاكسة كما أخبروني!

– لست إلا فتاة عادية تحمل روحا حرّة أبيّة... لكنكم في زمن الفساد فقدتم الرشد، وأصبحتم تنبذون وتنكرون وتواجهون وتعيبون أصحاب الحقّ والإجتهاد.

sarkht damir inside.indd 231 24/04/2018 03:18:40

- ومَن علمك تلك الكلمات يا فتاة؟

- لا تعجب لكلماتي فأنا تلميذة جدّي وقد أحسن تعليمي!

- ومَن هو جدّك؟ ما اسمه؟

- لا أعتقد أنك تعرفه، كان قد هاجر لسنين بسبب فساد أهل السلطة في بلادنا، ولم يعد إلا من فترة قصيرة، اسمه متنوّر.

- هذا الاسم ليس بغريب عنّي... لقد سمعته من قبل... أنا متأكد.

- ربما شُبّه لك!

- وما كانت مهنته قبل هجرته؟

- لقد شغل منصب رئاسة الجامعة الوطنيّة.

- يا إلهي... لا أصدق!

- ما الذي لا تصدقه سيدي!؟

- لا شيء.. لا شيء يا حضرة المحقق.

- لا أعلم لما ذهلت عندما سمعت بإسم جدّي، ولكنني مغتبطة لرؤيتي نظرات الخجل في عينيك.

- لا وقت لدي يا آنسة ضمير لمحاجحة جموح أفكارك وهواجسك... فقد حضرت لسبب واحد. وما سأعرضه عليك إعتبريه فرصة لا تعوّض.

sarkht damir inside.indd 232 24/04/2018 03:18:40

- لا فرص في هذا الكون... بل مجرّد مسارات يرسمها القدر لنا وفقا لما تطلبه نفوسنا فنستحقّه.

- تلك تُرّهات لا تعنيني.. إسمعيني يا فتاة، سأقولها ولمرّة واحدة، نحن سلطة راسخة في نظام عمره سنوات. قد يتبدّل رجالات السلطة لكن النظام العام لم ولن يعرف أيّ تبديل، لأننا نتحكم بكل شيء، حتى الهواء الذي تتنشقونه.

- وهل تعتقد أنكم لمنتصرون وفق هذا النهج؟

- نحن على يقين أننا سنبقى موجودين.

- لا تكن أكيدًا.. لأنّ دوام الحال من المحال. فكلّ شيء يقع تحت قاعدة التغيير، ولا مطلق دائم وسرمدي إلا الله.

- قلت لك سابقا لا تعنيني فلسفتك ولا شذرات جنونك، ما يعنيني هو أمر واحد، ألا تقدمي على أي أمر يزعزع الأمن في البلاد، وإلّا سجنتك مدى الحياة. لذا أدعوك إلى أن تقبلي عرضي وتعملي لصالح الحكومة. أنت شابة قادرة، ولا بد أن نستفيد منك في السلطة. وتأكّدي في حال قبولك عرضي هذا، إنّكِ ستنعمين بجنة على الأرض من مال وأعمال ومناصب.

- وهل تعتقد أنني أخشى سجونكم الظالمة، حتّى أقبل بحريّة مجتزأة ناقصة عنوانها عبودية المال والمناصب؟! لا شكّ في أنكم واهنون.

sarkht damir inside.indd 233 24/04/2018 03:18:40

– لا تعاندي يا ضمير... فمشروعك يهدّد أمنك وأمن البلد. حكاية طموح لا يجب أن تخرج من تحت التراب.

– تلك حكاية ما دُفنت لنخرجها... والدليل أنكم خائفون منها! لا أصدق كم كان بطلا ذاك الطَموح، حتى جعلكم ترتعدون خوفًا منه حتى بعد إنتقاله إلى العالم الآخر. ولتكن متيقنًا واثقا بأن مشروع حكايته سيبصر النور، في حال كنت مسجونةً أم ميتة، لان هذا هو حكم الله ومشيئته، وأنا لست سوى جسر عبور يهدف إلى إحياء الآخرين وتحررهم من كلّ قيود الرجعية والتبعية.

– إنّكِ بذلك لا تركنينَ إلى صوت العقل والمنطق.

– هذا مناف للمنطق... سلطانُكم فسادٌ، وعرش سلطتكم قمعٌ ومحسوبيات ووساطات وتبعيات وحريّاتٌ مزعومة. وذاك واقع لا بدّ لأصحاب النفوس الحرّة أن تواجهه.

– إذًا، عبثًا أحاول معك! فلتهنئي في سجنك، وتأكدي أنّكِ لن تنعمي بالسلام، إلا في حال سلّمت لأمر سلطتنا وسلطاننا.

– تأكدوا أيها المتحكمون برقاب العباد ولقمة عيشهم، أنني أفضِّل أن أسلِمَ الروح للأعلى، على أن أستسلم لكم ولفسادكم. ولتكن للقدر الكلِمة الفصل.

sarkht damir inside.indd 234 24/04/2018 03:18:40

كانت ضمير تتحدث إلى متحكِّم من دون أي خوف أو رهبة أو وجل، بل كانت تتفوّق عليه بصوت الحقّ الذي يكتنزه ضميرها، وهذا أكثر ما أقلق رئيس البلاد، حتى أنّ نظراتها كانت حادة لدرجة أن المحقق إستغرب جرأتها وموقفها تجاه السلطة الأعلى في البلاد. وتابعت قائلة:

– أيها المحقق أعدني إلى سجني لو سمحت، فهناك أتنشق عبق الوجود بحريّة، هناك حيث لا وجود للفساد وأهله.

– ستندمين يا ضمير، ستندمين على موقفك المتصلّب هذا، وكلامك وعنادك. أيها المحقق، هيا خذها إلى حيث تنتمي، خلف القضبان!

– تلك ليست قضبانًا أيها المتحكم، بل سياجًا يبعد عني ظُلم الظلاميين أمثالك. وتأكّد أنّ بين الحقّ والباطل صولاتٍ وجولات، ولا بدّ للحقيقة أن تنجلي لتنتصر بها قضيّة العدالة، فما مات حقّ وراءه مطالب!

sarkht damir inside.indd 235 24/04/2018 03:18:41

عادت ضمير إلى سجن حريتها، ورحل متحكم فاقدًا صوابه بعد سماعه ما جاء على لسان تلك الفتاة الحرّة، ومدى إصرارها على مشروعها وإستمرارها في نصرة الحقّ والخير. قائلًا للمحقق:

– لا أريد أن أراها خارج السجن، تلك أفواه واجب كمّها لأنها خطر على سيادة الدولة وسلامة أمنها. فالناس لا يحتملون عقولا رعناء تهيّج الحريّة في عقولهم ووعيهم.

– لكن يا سيدي، لا يمكننا احتجازها أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة على ذمّة التحقيق من دون تهمة مباشرة، وأنت العليم بالقانون والنظام.

– لا أكترث للقوانين، فلتحيكوا لها ملفا أمنيا يبقيها خلف القضبان لمدة طويلة لعلّها تركن وتخضع لسيادة حكمنا.

– ولكن يا سيدي...

– لا أريد أن أسمع منك غير الطاعة يا حضرة المحقق.. أفهمتني. عِ جيدا مَن يكلّمك! نفّذ الأمر وإلا جعلتكَ مراقبا على الحدود تحارب الصقيع في الجرود.

– أمرك يا سيدي، سأنفذ الأمر.. لكنني أريدك أن تعلم بأنّ ضيفتنا لها من العلاقات ما يكفي لتخلق لنا مشاكل ليست في الحسبان!

sarkht damir inside.indd 236 24/04/2018 03:18:41

- لم أفهم.. إشرح.

- ضمير هذه لها متابعون وداعمون، والبارحة حضرت محامية تسأل عنها! هي سيدة لها باع طويل في مجال القانون والحريّات، وأرجّح أنك تعرفها تمام المعرفة يا سيدي...

- مَن تكون تلك المحاميّة؟

- حريّة!

- هل تقصد تلك المرأة التي حاكمت زوجها وكشفت ذيول قضية مقتل شقيقها طَموح؟!

- هي عينها.

- لا أصدق ذلك! فحسب المعلومات التي لدي، كانت قد استقالت من منصبها وهاجرت بصحبة ولدها الوحيد!

- صحيح ما ذكرته يا سيدي... لكنها عادت ثانية، ومن الواضح أنها على علاقة وطيدة بضمير وقد زارتنا وهي تريد لقاءها إلّا أنني لم أسمح لها، أضف إلى أنها كانت غاضبة جدًا من مسألة اعتقالها واعتبرته أمرًا فيه تعسف وفساد.

- أبعدها عنّا بأي طريقة، ولا تسمح لها بمقابلة ضمير أبدا.

- سأحاول يا سيدي، إلّا أنها إمرأة لا تقارع لأنّها تحمل من الوعيّ القانونيّ ما يكفي لتذبح بحدّ سيف لسانها كلّ مَن يقف في وجهها أو يعاندها!

sarkht damir inside.indd 237 24/04/2018 03:18:41

- سأحاول أن أجد لها مسألة هي الأخرى، وحتى ذاك الوقت، أبقها بعيدة عن ضمير، كذلك حاول الضغط على ضيفتنا في السجن حتى تقبل شروطنا وإلّا كان لها نصيبها المؤلم.

- حسنا سيدي... سمعًا وطاعة.

sarkht damir inside.indd 238 24/04/2018 03:18:41

لقاءٌ في السجن

حضرت في اليوم التالي حريّة برفقة شجاع لتقابل ضمير، فما كان من المحقق إلّا أن حاول منعها في بادئ الأمر تنفيذا لأمر سيده ورغبته. محاولا التملّص من وعده لها... وإذ بحريّة تقابله بمذكرة رسميّة من النائب التمييزي العام تمنحها حريّة مقابلة الموقوفة في أيّ وقت. فحريّة كانت تتوقع ردّة فعل المحقق خاصة بعدما توقعت زيارة الرئيس متحكم، فاستبقت الأمر وعملت على إستحصال المذكرة منذ ساعات الفجر الأولى من أعلى جهّة قضائية رسمية حتى لا يستطيع لا المحقق ولا الرئيس نفسه وفق الدستور منعها من مقابلة موكلتها، وهكذا رضخ المحقق لطلبها، فسمح لها بمقابلة ضمير. لكنه أخبرها بأنهم سينقلونها إلى السجن المركزي لتخضع للتحقيق مع قاضي الأمور المستعجلة، ومِن المرجّح أن يقرّر توقيفها تمهيدًا للحُكم عليها بالسجن لمدّة تتراوح بين خمس وعشر سنوات.

ذهلت حريّة لما سمعته، فما يحدث لا يعدو كونه مخالفة صريحة للدستور وإشارة صارخة لتدخل السلطة في عمل

sarkht damir inside.indd 239 24/04/2018 03:18:41

القضاء، وكان عليها أن تتصرف بأسرع وقت كيلا يسبق السيف العدل.

دخلت حريّة وشجاع إلى قاعة المقابلات في السجن، وعندما رأتهما ضمير جهشت باكيةً، فأخذتها حريّة بين أحضانها قائلة:

– أنت حفيدة متنوّر، أنت ضمير الشجاعة التي قاومت الفساد بسلميّة وعيها، أنت الجريئة الثابتة صاحبة الإرادة الفولاذية، لا تسمحي لأفكار الإنهزام بالتغلغل إلى عقلك.. أرجوك كفّفي دموعك وكوني قوية، ولا تذرفي دموعَك الأمر لا يستحق.

– إنّي لا أبكي على حالي.. بل أبكي حال الحريّة في بلادي.

– ضمير نحن إلى جانبك ولن نتركك.

– أعلم يا شجاع فأنتما عزائي وبوجودكما أطمئن إلى وجودي. وأشكرك يا حريّة لقدومك البارحة، فقد وصلتني رسالتك... لكنّي كما قلت آنفا إني أبكي حال الوطن والفساد المستشري في نظامه وسلطان سلطته.

– وهل حدث أمرٌ مستجد بعد زيارة متحكّم لك؟!

– أنّى لك أن تعلمي بزيارة ذاك المتحكم يا حريّة؟

sarkht damir inside.indd 240 24/04/2018 03:18:41

– ذكر الحارس أمر قدوم زائر رفيع الشأن لمقابلتك، مَن يكون ذاك الزائر الذي يخاف النور تائها في دهاليز الظلم تحت أجنحة الظلام؟ قد توقعت أن يكون رئيس البلاد متحكم.

– نعم هو مَن زارني وقال ما لا يقال. قدّم لي ثلاثة عروض، مقابل التخلّي عن مشروع حكاية طَموح!

– أيّ عروض؟

– لقد عرض عليّ إمّا العمل لصالح السلطة في مناصب مهمة بالإضافة إلى تقاضي المال الوفير، وإمّا الرحيل عن البلاد مع المال أيضا، أو الحلّ الأخير وهو الانغماس في سواد السجون.

– وما كان ردّك يا ضمير؟!

– شجاع!!! كيف تسأل هذا السؤال وأنت الأعلم بجوهر ضمير، فلو كان إختيارها التخلّي عن الحقّ لما كنّا لنزورها ها هنا اليوم... ما بك؟

– نعم ضمير لم ولن تختار سوى درب الحقّيقة والحقّ. أعتذر عن السؤال.

– لا عليك يا شجاع، المسألة لا تحتاج إلى إعتذار. ويبقى الأهم أنني على يقين بأنّ متحكّم سيفعل المستحيل ليبقيني في السجن منعا لإتمام مشروعنا، بالإضافة إلى أنه قد يشكل خطرا عليكم وعلى البقيّة.

sarkht damir inside.indd 241 24/04/2018 03:18:41

– لقد خطرت لبالي فكرة قد تكون الحجر الذي سيصيب عصفورين.

– ما فكرتك؟

– لا عليك يا ضمير... تأكدي أنّني سأفعل المستحيل لأخرجك من أقبية الظلام، بالإضافة إلى أنّ مشروعنا لا بدّ أن يبصر النور وقريبا جدا، لا بل قولي إنّ ما يحصل هو خدمة القدر لنا، فقد سخّر الشرّ خدمة للخير.

– لم أفهم كلمة مما ذكرته، وأعجب لهذا التفاؤل الذي حلّ عليك منذ لحظات يا ابنة عمي!

– لا يمكنني أن أضيف شيئًا هنا، فللجدران آذان. ولكن في هذه اللحظة بالذات أوحى إليّ الله بفكرة ستشعُّ نورا من نافذة وجودنا. أرجوكما لا تسألا عن التفاصيل ولكن أريدك أن تطمئني يا ضمير... فالحلّ قريب والأفضل قادم.

– أثق بحكمتك وإيمانك بالحقّ يا حريّة... وأعدك من جهتي أن أبقى قوية صلبة على المبادئ، كما وأنني سأضع خريطة العمل على المشروع وأسلّمها قريبا لكم حتى تواصلوا العمل موزعة الأدوار عليكما لعلّنا ننجح في إتمام سببية وجودنا في هذا الكون الفاني.

– ماذا عن موثوق يا حريّة؟ فالمسكين حاول الدفاع عني ساعة توقيفي إلّا أنّ القوى الأمنية أوقفته.

sarkht damir inside.indd 242 24/04/2018 03:18:41

- لقد سألت عنه في الصباح الباكر، وذُكر لي أنّه قد صدر أمر بإخلاء سبيله بعد دفعه كفالة ماليّة وبضمانة سند إقامة!

- شكرا للهّ على هذا الخبر الجميل... فقد كنت أشعر بالذنب وموثوق يستحق أن يُخلى سبيله.

- بالطبع يستحق لأنّ موقفه فيه الكثير من الشهامة.

- قلتِ، فصدقتِ يا حريّة. وأريدك أن تعلمي أنّ القوى الأمنية أخذت منّي كافة أوراق المشروع، إلّا أنني أبقيت على نسخة إحتياطيّة في مكتبة جدّي يمكنك أن تطلبي منه إعطاءك إيّاها.فيها خطّة العمل كاملة لإتمام إنتاج المشروع بنجاح. فقد كتبت كلّ شيء ووزعت كافة الأدوار، ولم يتبقَ سوى التنفيذ.

- حسنًا..

- أمر آخر أيضًا، لا أعتقد أنه مهم، ولكن من واجبي أن أطلعك عليه.

- وما هو ذاك الأمر؟

- أمس وبينما كان متحكم يقدّم عرضه أمامي، أتيت على ذكر اسم جدي أمامه، وأستطيع القول إنه قد صعق عندما علم بأنني حفيدة متنوّر. لا أعلم ما السبب، ولا أعلم إن كان أمرا مهما لكنني فضّلت إطلاعك على ما جرى.

sarkht damir inside.indd 243 24/04/2018 03:18:42

– حسنا.. لا بُدّ وأنه على معرفة به، وقد يكون ما ذكرت بمثابة طرف خيط يقودنا إلى إدراك نقاط ضعف في متحكم.

– والآن هيا بنا يا شجاع فأمامنا مهمّة شاقة والوقت يداهمنا.

– معك كنت وسأبقى إلى جانبك ما بقيت يا غالية... كذلك إلى جانب ضمير أيضا.

قال شجاع عبارته شاردا بعينيه في وجه ضمير المتألق سحرًا وجمالًا. إبتسمت حريّة وقالت:

– حسنًا... كوني قويّة يا ضمير، فأمامك يوم طويل وشاق، وأريدك ألا توقّعي على أي ورقة أو إعتراف أو ما شابه قد تعرضه عليكِ قوى الأمر الواقع وفق أيّ ظرف. وإنتظري مبادرتي التي ستسمعين أصداءها الصاخبة.

– أتحرّق شوقا لمعرفة ما يجول في بالك!

– لا عليك ثقي بي... تأكدي أننا سنفعل ما يتوجب علينا لإخراجك وإحقاق الحقّ. هيا بنا يا شجاع فأمامك مهمة شاقة.

– إنني سأبذل قصارى جهدي فداء لحريّة ضمير.

– شكرا يا شجاع، شكرا يا حريّة... إنّ وجودكما في حياتي لنعمة كبيرة أغدق بها عليّ الله من علو لُدنه.

– إلى اللقاء القريب.

sarkht damir inside.indd 244 24/04/2018 03:18:42

مواجهة

عادت ضمير إلى سِجن حريّتها كما أسمته، بينما إنطلقت حريّة برفقة شجاع لخوض غمار مواجهة السلطة الفاسدة في ميادين الحقّيقة. وما أن صعدت حريّة في سيارتها حتى توجهت إلى إبن عمّها شجاع قائلةً له:

– الآن بدأت معركة الحقّ في وجه الظلم وأتباع الشرّ.

– وكيف أساعدك يا حريّة؟

– الآن أصبح لكلّ ثانية من الزمن قيمة، فإما أن نفشل وإما أن ننجح!

– أمِلي عليّ مهمتي!

– إنتظر أريد أن أجري إتصالا مهمًّا...

– الآن؟!

– نعم...

sarkht damir inside.indd 245 24/04/2018 03:18:42

أخذت حريّة هاتفها وطلبت رقمًا على وجه السرعة بينما شجاع يترقّب متحمّسًا معرفة دوره وواجبه، وقد شعر من كلام حريّة بثقل المسؤولية فوق كاهله. فقالت حريّة:

- هنيئا لك خروجك بالسلامة من أقبيّة الظلم يا موثوق.

وتابعت حديثها بينما شجاع يسترق السمع إلى حوارها.

- لقد تحدثت مع ضمير.. نعم لقد تمكنت من رؤيتها.. لي وسائلي لا تشغل بالك، فقد إحتفظت ببعض العلاقات التي تمكنّني من مواجهة أهل الظلم... نعم، لقد علمت بما حدث معكما، وإسمح لي أن أهنئك على شجاعتك، فقلّة من الناس تقدر على فعلك وجرأتك ورباطة جأشك في مواجهة رجال

sarkht damir inside.indd 246 24/04/2018 03:18:42

الأمن، وهذا دليل على وفائك وصدق صداقتك مع ضمير ومع قضيتها... لا عليك، إنما المطلوب منك أن تبقى إلى جانبي لأنني أحتاجك هذه الفترة، وأحتاج شجاعتك لإتمام مهمة الدفاع عن ضمير وأنت أكثر الناس المقرّبين منها... لا، لا يمكنني أن أخبرك من خلال الهاتف، فعندما أراك في المساء سأخبرك بكل شيء، لكن كن على يقين بأنها خطّة محكمة جدًا... حسنا، أرجوك لا تترك منزلك وإنتظر إتصالي... بالتوفيق لنا جميعا... إلى اللقاء.

– ولكن يا ابنة عمّي لمَ تريدين موثوق إلى جانبك؟ ألا يكفيك وجودي؟ هل بدأت تشكّين بي؟!

– شجاع إعلم أنّ الشك قد يساورني في ذاتي ولن يقترب منكَ مطلقًا.

– إذا لمَ قلتِ أنكِ تريدين موثوق إلى جانبكِ؟ وما دوري أنا؟

– في ما خصّ موثوق فالإجابة واضحة، لأنه مقدام في مسألة الدفاع عن ضمير، أضف إلى أنّنا نثق به، وأنا أحتاج أمثاله قربي. أمّا أنت، فببساطة سأوكل إليك مهمّة أهم، وتأكّد أنك ستنال إعجاب ضمير على ما ستفعله وإنّي متيقّنة بأنها ستقع في شباك حبك.

– إذا.. أنت تعلمين...

sarkht damir inside.indd 247 24/04/2018 03:18:43

– بالطبع يا شجاع، أعلم مدى إعجابكَ بها، والحبّ الذي تكنّه لها، فعيناكَ تفضحانك يا ابن عمّي وإني لأتمنى لك الأفضل دائما، وأعتقد بأن ضمير ستسعدك ولا شكّ.

– لا أعتقد يا حريّة، فقد صارحت ضمير منذ أيام إلا أنها ما أبدت أيّ إهتمام.

– لا تقلّ شيئا نيابة عنها، ولا تحكم على ظاهر الأمور وتتوه عن جوهر الوجود.

– لم أفهم.. أوضحي كلامك!

– إنّ ضمير شابة مسؤولة، وتعي تمامًا أن عملها يحتاج إلى تركيز تام، وصفاءِ ذهن، فهي لا تريد أن تفشل في مهمتها لهذا تُبعِدُ عنها ما يشغلها، ولكن تأكد أنها ستستمع إلى صوت فؤادها متى يهدأ روع عقلها بعد تحقيق طموحها.

– في رأيك إذا قد تقبل بي ضمير حبيبا؟

– بالطبع، لا... أنا متيقنة من وقوعها في هيامك... لكن الآوان لم يحن بعد.

– حسنا، ما دام الأمر كذلك، وقد هدأتِ من روعي في مسألة الفتاة التي أعشقها وأحبها... هل ستملينَ عليّ دوري في خطتك التي حدثتنا عنها؟

sarkht damir inside.indd 248 24/04/2018 03:18:43

– أريدك أن تذهب مباشرة إلى موهوب، وتأتي به على وجه السرعة إلى منزلي، وفي طريقك لا تخبره أيّ أمر سمعته أو رأيته مما حصل معنا اليوم.

– ولماذا؟

– في هذه الفترة أريدك متفتح الذهن.. أرجوك يا ابن عمي.. نحن نمرّ في مرحلة دقيقة إما قد تقودنا إلى الهلاك وإمّا إلى النجاة خدمة للخير والحقّ. أرجوك أن تفعل ما أقوله لك.

– لكنني أستوضح منكِ حتى أفهم!

– كما قلت لكَ من قبل، أريدك أن تأتي بموهوب إلى منزلي ولا تخبره شيئا البتّة، واعلم أنَّ بيننا خائنًا لصالح متحكم، وهو مقرّب جدًا منّا يسبقنا دائما في خطوة ويجعلنا عُرضةً للخطر أمام السلطة.

– إذا هل تشكين بموهوب؟

– من الباكِر جدًا الحديث بالأسماء، لكن المطلوب الحذر والتقيّد بالتفاصيل. والآن إذهب ونفذ ما طلبته منك.

– وماذا عنك أنتِ؟

– سأذهب لأطمئن الجدّ متنوّر على حفيدته، وأعود وألقاكما بصحبة موثوق في منزلي.

– حسنا، سأنفذ ما قلتِه... إلى اللقاء.

sarkht damir inside.indd 249 24/04/2018 03:18:43

sarkht damir inside.indd 250 24/04/2018 03:18:43

ولادة عسيرة

إنطلق شجاع لملاقاة موهوب ومرافقته إلى منزل حريّة في حين ذهبت الأخيرة إلى منزل الجدّ. وصلت حريّة وأدركت أنّ القلق يعتري متنوّر، فسلّمت عليه وطمأنته قائلة:

– جديّ، أرجوك أن تطمئن إلى حال ضمير، فهي بخير. لقد إنتهيت من لقائها وأتيتك على وجه السرعة.

– كيف حالها أخبريني؟ أهي متماسكة؟

– كيف تسأل هذا السؤال وهي حفيدتك؟

– نشكر الله على رحمته... لقد هدّأتِ بالي يا ابنتي... قد كنت قلقا.

– لا تقلق يا جدّي العزيز، لكني قصدتك بأمر هام عدا طمأنتك عن ضمير.

– كيف لي أن أساعدك؟

– لقد ذكرت لي ضمير أنها تركت في عهدتك نسخة ورقية عن المشروع.

sarkht damir inside.indd 251 24/04/2018 03:18:43

- نعم، لقد وضعتها في خزنتي داخل المكتبة.

- لقد صادرت قوى الأمن النسخة الرئيسة منها، لهذا أريدك أن تعطيني النسخة التي في حوزتك.

- لك ما طلبتِه. دقائق وأحضر لك الأوراق.

غاب متنوّر لهنيهة بينما حريّة غارقة في التفكير. وها هو يحضر وفي يديه الأوراق قائلا:

- ماذا عن خطوتكم التالية؟

- أمامي مهمتان... الأولى تتمثل في محاولة إخلاء سبيل ضمير من السجن. أمّا الثانية فهي إتمام مشروع حكاية طَموح.

sarkht damir inside.indd 252 24/04/2018 03:18:43

– أتمنى لكم التوفيق، وأريدك أن تعلمي يا حريّة أنني معكم ومن أجلكم في رحلة نضالكم نحو إحقاق الحقّ.

– من معين علمك وخبرتك ننهل أيها المتنوّر قولا وفعلا... لكن قبل أن أرحل، أريدك أن تستجمع ذاكرتك لعلّك تستحضر إجابة تدعم موقفنا في وجه سلطان فساد السلطة.

– إسأليني أرجوك.

– هل تجمعك علاقة معينة أو معرفة مسبقة بالرئيس متحكم؟

– ولِمَ تسألين عن ذاك الرجل؟

– يبدو أنك غاضب منه أو تعلم عنه ما يمنعكَ من أن تقيم له قيمة.

– أحترم ذكاءك أيتها المحاميّة الفذّة.

– أرجوك أريدك أن تخبرني بما تعرفه عن متحكم. فقد يساعدنا ذلك كثيرا في قضية تحرير ضمير من بَراثن أقدار رسمها فاسدون. فأمس كان قد زار متحكم ضمير في سجنها، ومتى عرف أنها حفيدتك أبدى غضبا وقلقا. وأعتقد بأنّ أمرا ما جمعك به أو أقلّه دفعه إلى أن يقلق منك. أرجوك أخبرني الحقّيقة.

sarkht damir inside.indd 253 24/04/2018 03:18:43

– صحيح جمعتني به معرفة سابقة.

– ولماذا لم تخبرنا من قبل، أو أقلّه... لم تخبر ضمير بالأمر؟

– لأنني كنت متيقنًا من جموح طموح ضمير، ومن مسألة جنون إندفاعها نحو الحقّيقة وإحقاق الحقّ. ولهذا كنت أخشى عليها من معرفة حقيقة ما يجمعني به.يا ابنتي، إنّ متحكم ذاك، هو عينه الوزير الفاسد الذي تواطأ مع متموّل في القضيّة التي طالت الجامعة الوطنيّة طمعا منهما بحصد ثروةً طائلة.

– يا إلهي، لا أصدق... يا لها من لعبة قدرٍ لا يقدر عليها عاقل.

– هي قوة الإمتحان تفرضها عظمة مكوّن الأكوان يا ابنتي.. فمتى غاب الإمتحان أنّى للنفوس أن تُمتحن؟!

– معك حقّ يا جدّي.. ولكن بئس الزمان الذي يُنصف فيه السارق والقاتل والفاسد، ليقع الغبن على الصالحين أمثالك.

– إيّاكِ وأن تشككي يا ابنتي بعدل الله في كلّ شيء. فحتى مساحة الشرّ وإن وجدت فلم ولن تكون إلا مُسَخَّرَة لخدمة الخير والحقّ.

– كيف ذلك؟ أخبرني. وقد تواطأ صديقك الّذي تأتمنه على خداعك إلى جانب مَن كان وزيرا مؤتمنًا على مصالح الناس من أجل حصاد حفنة مال زائلة مهما عظُمت!؟

sarkht damir inside.indd 254 24/04/2018 03:18:44

– تأكدي مهما أنشبت بَراثن الأقدار في الخلق، فلهم أجرٌ عند خالقهم متى نجوا من التجربة بقوّة الإيمان والمحبة والسلام.

– يا إلهي كيف تقدر على حمل هذا الوعي والإيمان إلى درجة تمكنك من أن تصبر على غدر أقرب الناس إليك وهجر وطنك الذي تحبه!

– إنها المعرفة يا حريّة!

– عن أيّ معرفة تتحدث؟

– أحدثّك عن المعرفة الحقّيقية الكامنة في داخل كلّ إنسان. هي المعرفة التي تقودنا نحن البشر إلى إدراك حقيقة وجود سبب لوجودنا أعظم من كل موجودٍ فانٍ على وجه الأرض. تلك معرفة تجعلك تخضعين لقوّة القدر مهما كانت الإمتحانات والتجارب صعبة وكبيرة.

– أرجوك أن تكمل، ففي كل عبارة منك مرحلة دراسية كاملة تغذّي وعي كلّ مَن يستمع إليك. أكمل أيها المتنوّر وأزدني معرفة.

– متى وقعت التجارب إستحقّت المعارف... فإذا أتتك مصيبة عليك بالصبر. وفي حال سكنك الخوف عليك بالإيمان. وفي حال راودك الشك عليك بالحكمة. تلك حلول جذرية...

sarkht damir inside.indd 255 24/04/2018 03:18:44

– كم هو رائع كلامك، أنا أحترم وعي عقلك... فما عدت أعجب إن كنت مصدر إلهام شقيقي طَموح وحفيدتك ضمير وغيرهم، لأنك بالفعل تختصر مدرسة بشرية متنقلة.

– أشكر إطراءكِ، وأعتقد أنكِ تمنحينني ما لا أستحقه. فالواهب والفاعل والقادر هو وحده الواحد القادر سبحانه، أمّا نحن فلسنا سوى جسورٍ لعبور المعارف من العقل الكلّي إلى العقول الجزئية المتلقيّة، فعسى أن نتمم وإيّاك وكلّ الأخيار مهمتنا الآدمية الوجوديّة بإتقان.

– لا يسع عقلي المتواضع إلّا الخشوع أمام عظمة فكرك يا جدّي... والآن إسمح لي بالرحيل، وأشكرك على المعلومة التي أعطيتني حول ماضيك مع مَن كان وزيرا فاسدا فأصبح في الفساد رئيسا متحكما.

– أرجوك أن تتوخي الحذر يا ابنتي، فجولة الحقّ في وجه الباطل عسيرة في هذا الزمان.

– لا عليك لقد عملت على خطّة معينة أعتقد بأنها ستقمع الفساد في متاهات نفوس الفاسدين.

– أتمنى لكم التوفيق جميعا، ولا أخفيك سرًّا بأنني متفائل بَلْ متأكد من نجاحكم على رغم ما يُخالجني من قلق وخوف عليكم.

- ليس لك إلا طريق المعارف يا جدّي.. فأنت القائل متى زارك الخوف فعليك بالإيمان. والآن أرجوك أعذرني فأمامي مهمة كبرى تقضي بنصرة الحقّ المتمثل بتحرير حفيدتك من بين قضبان سجون فاسدة إلى جانب إتمام مشروع حكاية لم ولن تموت ما بقيَ للحقّ مناصرون.

- كل التوفيق. مع السلامة.

sarkht damir inside.indd 257 24/04/2018 03:18:44

sarkht damir inside.indd 258 24/04/2018 03:18:44

لقاءٌ غريب

غادرت حريّة منزل متنوّر متوجهة إلى منزلها، وإتصلت بشجاع فتأكّدت أنه أقلّ موهوب وهو متوجه به إلى لقاء حريّة في منزلها. كما إتصلت بموثوق لتطلب منه ملاقاتها لكن في مكتبها في وقت متأخر. وما إن وصلت إلى منزلها حتى اجتمعت بشجاع وموهوب كاشفة أوراق المشروع أمامهما، وقالت:

- الآن أضع بينَ أيديكم أوراق مشروع الحكاية التي ستنير درب الأجيال القادمة. المشروع ليس مجرّد عمل عاديّ تشغله لتتقاضى أجرًا يا صديقنا موهوب، وليس مسألة وفاء سهلة المنال يا ابن عمّي العزيز... بل هو مشروع حكاية طَموح هو مشروع بحجم وطن. فمن خلاله سندعم موقف الخير والحقّ على حساب بطش سلطان الشرّ والباطل.

- إنّها المرّة الثانية التي أراك تتحدثين فيها على هذا النحو من الحزم والجديّة بعد المرّة الأولى يوم جئت لتخبريني آنذاك أنك ستعيدين فتح ملف قضية الراحل طَموح. هي النظرة عينها، والبريق

sarkht damir inside.indd 259 24/04/2018 03:18:44

الصاخب في عينيك.. نعم أعرف هذه النظرة المفعمة بالتصميم والجسارة. لكنني أخشى منها عليك كما خشيت عليك منذ أعوام، وأشك في نجاحنا هذه المرّة لأنّ الظروف ليست في صفّنا.

- إذا عليك بالإيمان والحكمة.

- كيف ذلك؟

- لا وقت للشرح، إلا أنها تعاليم الجدّ متنوّر وإرشاداته.

- كان ينقصنا ذاك المتنور الفيلسوف حتى أفقد ما تبقى لي من وعي!

- شجاع.. لا تُغرقُ نفسك في التفكير... نفّذ ما يطلب منك وسأكون ممتنة والجميع منك.

- حسنا، سأفعل! لأنني في حال حاولت مجاراة فكركم؛ لا بُدّ أنني سأقع مغمًى عليّ.

- أمامكما مهمتان شاقتان.. فهل أنتما جاهزان لتحمل المسؤولية؟

- أعذريني على السؤال يا سيدة حريّة لكن ماذا عن الأجر؟ هل سأتقاضى مالًا أم لا؟

- يا رجل، لا ترى ولا تسأل سوى عن المال! نحدثك عن مشروع بحجم وطن فتحدّثنا عن أجر... إرتق بفكرك يا موهوب!

sarkht damir inside.indd 260 24/04/2018 03:18:44

- هذا حقّي، ولست مستعدًا أبدا لأفقد ولو جزءًا بسيطًا منه.

- ستنال ما تريده يا موهوب... ولكن عليك أن تلتزم بواجباتك كاملة. وهذه دفعة كبيرة أقدمها لك كبادرة حسن نيّة.

كانت حريّة قد أحضرت معها مبلغًا من المال لأنها توقعت ردّة فعل موهوب، فهي لا تريد أن تخسر الوقت بل تسعى إلى تسريع عملية إنجاح المشروع. أعطت موهوب المال وقالت:

- الآن وقد حصلت على مالك هل أصبحت جاهزًا لتسمع ما هو مطلوب منك؟

- نعم، بالتأكيد تفضلي قولي.

sarkht damir inside.indd 261 24/04/2018 03:18:45

كان موهوب يردّ على كلام حريّة وهو يعد المال بين يديه. فقال شجاع:

– يا حريّة ماذا عن الموضوع الذي تناقشنا به صباحا حول ذاك الشخص... هل هو نفسه مَن أسميته لك؟

– لا عليك يا شجاع إنسَ الأمر، وافعل ما سأقوله لك بعد إذنك. أمّا أنت يا موهوب، فلك أن تذهب وتحضر فريق عملك من الممثلين الذين ذكرتهم لك ضمير في الأوراق، وعليك أن تتّبع كافة الخطوات التي حدّدتها لكم وكأنها بينكم ومعكم. ولك أسبوع كاملٌ حتى تتمّ المشروع وفي حال احتجت مالا أو أي أمر آخر تواصل مع شجاع في أيّ وقت.

– حسنا.. سأباشر العمل منذ صباح الغد، ومن الواضح أن ضمير أتقنت صياغة تفاصيل المشروع، حتى يسهل الأمر على المخرج المساعد وباقي الممثلين... ففيلم قصير كهذا واضح التفاصيل وصريح الحبكة لن يحتاج مني ومن فريقي أكثر من أسبوع.

– رائع.. هذا ما أود سماعه. شجاع أرجوك أن تُلبي طلبات موهوب، وأن تؤمّن له ما يحتاج من أمور. وفي حال تعذّر الأمر عليك أُطلب مشورتي في أيّ وقت.

– هل تقتصر مهمتي على مرافقة موهوب ومساعدته؟! أهذه هي المهمة الصعبة التي حدثتني عنها؟

sarkht damir inside.indd 262 24/04/2018 03:18:45

– لا... المهمة سأطلعك عليها غدا لأنني لم أستوضح معالمها تماما... والآن عليك أن توصل صديقنا إلى منزله. هل من طلبٍ آخر يا موهوب؟

– أبدا، ما دام المال مؤمنًا فكل شيء أنا قادر عليه. وأعدك بأنني سأسلّمك المشروع كاملًا الأسبوع المقبل.

– جيد جدا.. وفي حال حصل أي أمر طارئ أرجوك ألا تتردد في طلب المساعدة من شجاع أو حتى مني شخصيًّا في أي وقت أردت. وتذكر أن صديقتنا ضمير موقوفة ظلما وتعسفا من أجل مشروعنا الذي يعتمد عليك وفريقك بشكل رئيس. كما أتمنّى منك ألا تخبر أحدا بخطواتك أو مسار عملك طيلة هذا الأسبوع بإستثنائي وشجاع. إتفقنا.

– حسنا لك ما طلبته. وتأكدي أنّني لن أخيّب لكم أملا.

– أتمنّى هذا... أمّا أنت يا شجاع أطلب منكَ أمرًا مهمًا يا ابن عمي!

– ما هو؟!

– هل تتذكر الحديث الخاص الذي دار بيننا بعد أن إلتقيناها في السجن؟

– بالتأكيد.. لمَ تذكرينَ هذا الموضوع بالتحديد؟!

sarkht damir inside.indd 263 24/04/2018 03:18:45

- أريد منك أن تكتب رسالة صادقة في ما خصّ هذا الموضوع بالتحديد، على أن تتخيّل في لحظة الكتابة أنّك تقول كلامك مباشرة للشخص المعني.

- ولماذا؟

- لأن لتلك الرسالة دورًا مهمًا فيما بعد... سأقول لك متى يحين وقتها... أرجوك أن تفعل ما أقوله لك!

- حسنًا... سأنهي ما طلبته منّي اليوم. لأني أثق بحكمتك كما أنّ هكذا رسالة ستنعكس عليّ سلاما وفرحا داخليين في ظلّ هذه الظروف القاتمة.

- والآن أعذراني فلدي إجتماع آخر مهم. رافقتكما السلامة.

sarkht damir inside.indd 264 24/04/2018 03:18:45

خيانة

غادر شجاع برفقة موهوب الذي حمل أوراق المشروع متفائلا وأمامه أسبوع من الزمن لإنتاجه وإتمامه، بينما توجهت حريّة إلى ملاقاة موثوق في مكتبها. وما إن وصلت حتى وجدته في إنتظارها. فقالت له بعد أن دعته إلى الداخل:

sarkht damir inside.indd 265 24/04/2018 03:18:45

- أحترم في شخصك إلتزامك وثباتك بمواقفك ومواعيدك.

- شكرا لك... إنّ الإنسان متى كان بعيدا عن الإلتزام بالثوابت والمبادئ والوعود لن يحصد أيّ قيم أبدا. والآن قولي لي ما سبب لقائنا؟ من الواضح أنَّ الأمر جدّ مهم حتى تطلبي لقائي على إنفراد.

- أجزم بوجود خائن بيننا، وصراحة لن أجازف في مناقشة الموضوع مع أحد سواكَ ولا سيّما بعد أن عرفت ما فعلته أنت ذودًا عن ضمير.

- ذاك أقل واجب علي تجاهها.

- أدرك وأعي جدا وفاءَك لها ومشروعها، ومن هنا سأسألك عن أمرٍ مهمٍ وأتمنى أن يبقى بيننا فلا تناقشه مع أحد حتى مع الجدّ متنوّر.

- وهل تشكين بالجدّ متنوّر؟!

- أبدا... ولكنني أقلّل من إحتمالات انكشاف خطواتنا لعلّنا ننجح في مهمتنا

- حسنا، فهمتك.. إذا ما التالي؟

- ضمير الآن في السجن، بالتالي لا بدّ أن نوقف العمل على المشروع هذه الفترة.

sarkht damir inside.indd 266 24/04/2018 03:18:45

- أحقًّا تريدين إيقاف مشروع حكاية طَموح؟

- وهل إنهاء المشروع مسألة أهمّ من مسألة حريّة صديقتنا ضمير؟

- قطعا لا!

- المهم أنني أريدك إلى جانبي يا موثوق، إنني أحتاج جرأتك وشجاعتك من أجل الدفاع عن ضمير. ولدي فكرة أعتقد بأنها ستحرج السلطة أمام الشعب فتتحرّر ضمير على اثرها.

- ممتاز... هذا ما أريد سماعه. لكن أخبريني كيف؟

- علينا أن نستخدم الإعلام... السلطة الرابعة هي طريقنا لنصرة الحقّ ومواجهة طغيان السلطة السياسيّة الجائرة.

- الإعلام!؟

- نعم، كانت ضمير قد ذكرت لي سابقا أن لك أصدقاء كثرًا من الإعلاميين الّذين يديرون برامجَ حوارية مباشرة، لذلك أريدك أن تستخدم علاقاتك لتؤمن لنا مقابلة مباشرة على الهواء. بعد ثلاثة أيام تحديدًا.

- ولكن لماذا بعد ثلاثة أيام؟

sarkht damir inside.indd 267 24/04/2018 03:18:45

- لأنني أريد أن أتحضر جيّدا في اليومين القادمين، لأكمل تفاصيل الملف فأصبح جاهزة لردّ التهم وتقديم الدفوع في قضية ضمير.

- حسنًا. سأضمن لك مقابلة حوارية مباشرة.

- ويجب أن تؤكّد لي زمن المقابلة في صباح اليوم الثاني تمامًا كحدّ أقصى. وأمرٌ آخر أريده منك لا أحد سواك.

- ماذا بعد؟

- أريدك في هذين اليومين أن تبقى قرب الجدّ متنوّر وخاصة في غياب ضمير، لأنّه أصبح وحيدا الآن ولا معيل له، وبذلك نقف إلى جانبه فنُطمئن ضمير عن حاله، خاصة أنه يحبّك ويثق بك. أضف إلى كلّ ذلك أنني أعتقد بأنَّ القوى الأمنّية تُراقبك وأنت الخارج بسندِ كفالة من الحجز. وبذلك نضمن معرفة القوى الأمنية لمكانك فنخفف عليهم العناء، كما نضمن حمايتك وحماية الجدّ متنور بطريقة غير مباشرة من أيّ ردة فعل من أهل الظلام..

- هل من أمرٍ آخر؟!

- أبدا.. أتمنى لك ولنا كلّ التوفيق، عسى أن يوفقنا الله في مسعانا ويرزقنا حسب نوايانا جميعا. والآن إذهب إلى الجدّ متنوّر وطمئنه بأن كلّ شيء يسير على ما يرام.

sarkht damir inside.indd 268 24/04/2018 03:18:45

- سأذهب مباشرة إليه... إلى اللقاء بعد يومين.

- ليس بعد يومين بل ثلاثة...أريدك أن تبلغني عبر الهاتف عن تفاصيل المقابلة، لترافقني في اليوم الثالث إلى الإذاعة لإجرائها.

- حسنا، سأفعل ما طلبته.

- بالتوفيق لنا جميعا لما فيه خدمة للخير العام.

- أوافقك في ما قلت، إنتظري مني إتصالا بعد يومين كحدّ أقصى وتأكدي أنني لم ولن أخيّب لك أملا.

- أثق بك لدرجة أني أوكلت إليك ما لا أأتمنُ عليه أحد سواك.

- أشكرك.. إلى اللقاء.

- مع السلامة.

sarkht damir inside.indd 269 24/04/2018 03:18:45

sarkht damir inside.indd 270 24/04/2018 03:18:46

عتاب

غادر موثوق متوجها إلى منزل الجدّ متنوّر ليتمّم ما طلبت حريّة إنجازه، وعادت هذه الأخيرة إلى منزلها منهكة بعد يوم طويل شاق من أجل تحضير ملف الدفاع عن صديقتها ضمير. وما إن وصلت إلى المنزل حتى وجدت ولدها طَموح ساهرا برفقة جدته حنونة وما خلد إلى النوم بل كان ينتظرها بحزن... فقالت حريّة:

– لماذا لم تخلد إلى النوم بعد؟

– لأنني قلق وحزين!

– لماذا؟

– إنّه مشتاق لك يا ابنتي، فأنت منذ أن تواصلت مع تلك المرأة، لم تلتفتي لنا قط؟

إقتربت حريّة من ولدها لتعانقه وتقبله، فأبدى لها جفاءً واضحا.. مصمما على البقاء في حضن جدته. حزنت حريّة لجفاء وحيدها وللألم الذي يعتصر قلبه البريء، فجلست قربه

sarkht damir inside.indd 271 24/04/2018 03:18:46

وذرفت دموع القهر على وجنتيها. وإذ بولدها يلحظ الدموع، فقفز من بين يديّ جدته، وحضن والدته وأخذ في تقبيلها قائلا:

- لا تبكي يا أمّي لا تبكي أرجوكِ... أنا أحبك جدًّا!

- وأنا أحبك يا عمري.. أريدك أن تعلم أنك رونق حياتي، تختصر طموحي، وحريتي، وضميري حتى وجودي.

رأت حنونة هذا المشهد المؤثر، وما إستطاعت كبح دموعها لأنها تذكرت فلذة كبدها الذي خطفه القدر من بين أحضانها.. وكأن التاريخ يكرّر نفسه أمامها، يوم دخلت غرفة ولدها طَموح وقد كان ذاك اللقاء الأخير الذي جمع بينهما. فخرجت مسرعة من الغرفة كيلا تزيد من أسى ابنتها وحفيدها. وتابعت حريّة كلامها فوق رأس ولدها:

sarkht damir inside.indd 272 24/04/2018 03:18:46

– يا بنيّ أرجوك أعذرني لإنشغالي عنك هذه الفترة، فامامي مهمة أخيرة لأفي خالك الراحل حقّه عليّ!

– ولكن لقد إشتقت لك يا أمي... فما عدت تجالسينني أو تتناقشين معي وتحاورينني، لا أستطيع تحمل بُعدَكِ عني.

– بنيّ... أريد منك أن تعي أمرًا مهما...

– وما هوَ؟

كان طموح يردّ متنهدًا والغصّةُ تجرّحُ فؤاده. أمّا حريّة فقد حاولت أن تماسك أمام طَموحها فما تعوّدت أن يراها ضعيفة، رغم أنها كانت تعاني آلاما في روحها تتأرجح بين شوق ومسؤولية تجاه شقيقها الراحل من جهّة، وبين أسى التقصير في حقّ ولدها وحيدها من جهة أخرى. وتابعت حديثها معه قائلة:

– أريدكَ يا بنيّ ألا تربط وجودك بأحد كائنا مَن كان حتى أنا والدتك. لأن الحياة لا تتوقف على وجود أشخاص وستستمر رغما عنا إلى أن يشاء الله عكس ذلك.

– لا يا أمي لا، لا أستطيع أن أحيا من دونك ولا أتحمل بعدك أو خسارتك.

– بنيّ عليك أن تكون قويًّا كما كان خالك، وإلا لن تحيا الخلود بعد فنائك مهما فعلت أو حققت في دنياك.

sarkht damir inside.indd 273 24/04/2018 03:18:46

- أمي أنا لا أفهم ما تقولين!

- طَموح... لقد إعتقدت مثلك سابقا، بأن الحياة تتوقف على وجود شخص مهم نعتمدُ عليه، وقد كان خالك محور حياتي. وعندما غدرت به أيادي الشرّ تصورت للوهلة الأولى بأن الكون قد إنتهى وأنّ الزمان قد توقف عن الحركة... ولكنني تذكرت وصيته لي، وتذكرت مسؤوليتي تجاهه خاصة أنه أوصاني أن أدرس المحاماة لأنصر الحقّ والخير، وكأنه كان يتوقع لي نجاحا باهرا وأنني سأنصفه بعد موته. والأهم أنني أنا نفسي أدركت أهمية مثابرتي وإجتهادي في سبيل الخير، كذلك أهمية نجاحي في حياتي المهنية والإجتماعية وأن القادر قد شاء لي سببا عظيما من خلقي تمثل في كشفي الحقّائق وإدانة الفاسدين والأهم أنه منحني أغلى ثروة يمكن لإنسان الحصول عليها ألا وهي ذرية صالحة تمثلت بولد نجيب ناجع حذق ومحترم مثلك.

- لكنني لست قويا مثلك يا أمي!

- تخيّل معي يا بني، لو أنني فقدت الأمل بعد فقدان خالك.. فما الذي كان سيحصل لي؟ تخيّل لو أنني إستسلمت وما فعلت شيئا حيال قضية غدر خالك، كيف للحقيقة أن تنتصر وأن يكشف النقاب عنها كاملة. لهذا أقول لك إيّاك أن تربط وجودك بأحد غير نفسك، وخاصة والدتك وأقرب الناس إليك. فإذا تملكتكَ العاطفة هلكت. وإذا ما تملكتك

sarkht damir inside.indd 274 24/04/2018 03:18:46

العقلانية المحضة تعبت وشابهت الجماد. فعليك أن تبقي على عواطفك لكن مكبوحة بلجام العقلانيّة الرصينة، بهذه الطريقة ستجد حقيقةً سببَ وجودك.

- فهمتك يا أمي.. الآن فهمت ما تقصدينه.

- حسنا جيد جدا. والآن أريدك أن تكون صبورا وحكيما هذه الفترة كما عهدتك، لأننا في صدد الإنتهاء من مشروع صغير ينصف خالك لربما يتغيّر شكل الحكم في البلاد للأفضل. لكن هذا الأمر المهم يتطلب مني التركيز وربما خسارة الوقت على حسابك لصالح القضية التي أناضل في سبيلها. فهل تعدني أنك ستتحمل غيابي وربما إنشغالي عنك لفترة؟

- نعم يا أمي بالتأكيد. لا تقلقي عليّ. أدعو لك بالتوفيق من كلّ قلبي، وإنّي أثق بأن خالي فرح مفتخر بك من مكانه في السماء.

- أتمنى هذا يا طَموح. فأمنيتي الوحيدة تتمثّل بإنصاف خالك الراحل إلى أبعد الحدود، وأن أجعل من حكايته مشروع نضال حقّ في سبيل العدل والعدالة تتوارثه الأجيال من بعدنا لعلّها تهدى بهدى.

- أتوقع منك الكثير يا أمي، فأنت أفضل أمّ في الدنيا.

- أشكر الله على تفهمك، فقد منحني الخالق ولدا لا مثيل له. شكرا لوجودك في حياتي يا بنيّ.

sarkht damir inside.indd 275 24/04/2018 03:18:46

– كم أنا محظوظ لأنك والدتي!

– طَموح سأحمّلك رسالة أريدك ألّا تنساها ما بقيت.

– وما وصيّتك!؟

– أريدك أن تكون قويًّا مهما كانت الأقدار قاسية عليك. إيّاك وأن تنكسر لو فقدت عزيزًا أو مقرّبا أو حتى أقرب الناس إليك وهذا الكلام يشملني..

– ولكن يا أمي؟!

– إسمعني جيدا يا بنّي ولا تقاطعني.

– حسنا كلّي أذان صاغية.

– بنّي إنّ لكلّ منّا زمانًا محدّدًا يعيشه ولا بدّ أن نرحل يوما ما.. لكن الأهم، أن نتمم واجباتنا تجاه أنفسنا قبل الرحيل. فهنالك أناس يعيشون على هامش الدنيا، موجودون للعمل والأكل والشرب وربما التزاوج ولا شيء غير ذلك. فعندما يأتيهم الأجل لا يفقدهم إلّا المقربون منهم ولا شك سينسونهم بعد فترة. أمّا الفئة الأخرى، فأولئك الّذين يحققون سببية وجودهم بأبهى الطرق ويخدمون الخير والحقّ مهما كلّفهم الأمر حتى لو كان الثمن حياتهم.

– كانت حريّة تمسك يدَي ولدها وتتحدث معه بتأثر كبير، وهو بدوره ينظر إلى وجهها وإلى بريق عينيها. فقال لوالدته:

sarkht damir inside.indd 276 24/04/2018 03:18:46

– وهل كان خالي من أولئك الّذين أدركوا حقيقة سببية وجودهم وضحى بنفسه من أجل الخير؟

– نعم يا بنيّ لقد كان خالك خير نموذج عن النضال في سبيل الحقّ والخير، والدليل أنّه ما يزال بيننا في أحاديثنا وأفكارنا رغم رحيله عنّا باكرًا جدًا. فما وصيتي لك اليوم سوى أنني أريدك أن تبحث في حقيقة الملكة أو ما يقال عنها الموهبة التي منحك إيّاها الخالق، لتجد فيها مصدر تميّزك فقوتك. فمن واجبك أن تستخدمها في صالح الخير لا في صالح مآربك الخاصة الزمنيّة أو في صالح الشرّ. إيّاك يا بني أن تخطئ في استخدام موهبتك وإلّا عوقبت عقابا شديدًا. لأن الموهبة ليست ملكًا لك، بل هي ملك الناس، فقد وهبك إياها الله من أجل خدمة الكون الذي تحيا فيه لا من أجل خدمة آنية وجودك.

– وما كانت موهبتك يا أمّي؟

– لقد وهبني القدير الصفاء والقوّة. هذه الموهبة مكنتني من دراسة القوانين وحفظها، واستطعت أن أنجح في مجال المحاماة ولأنني اجتهدت في دراستي وعملي وفّقت في نيل مركز مرموق في القضاء. كذلك تمكنت من حلّ قضايا عديدة ناصرت فيها الحقّ والخير، ولأني سخرّت نفسي في خدمة مجتمعي أكرمني بدوره بإنصافي. تأكد يا بنيّ أنه يستحيل على

sarkht damir inside.indd 277 24/04/2018 03:18:47

مَن يؤمن بالحقّ والخير ألا يكافِئه القدر، لأنّ هذا الأخير يفعل فعل المرآة العاكسة.

– وكيف للقدر أن يكون مرآة عاكسة؟!َ

– بنيّ، متى وقفت أمام المرآة، ماذا تُبصر؟

– سأبصر نفسي بالتأكيد.

– كذلك هو القدر... إنه يفعل فعل المرآة تمامًا... فإن فعلت خيرًا فسترى الخير، وإن أدركت السوء بنواياك وأفعالك فلا شكّ وأنك ستهلك في شرّ ما تنويه وتفعله. إحفظ ما قلته لك للتو ولا تنساه أبدا يا طَموح.

– لن أنساه ما حييت.. أعدك بذلك.

– هذا هو إبني الذي ربيته، وإنني متأكدة يا بنيّ من أنّ لك دورا مهما بين الناس لخدمتهم وخدمة الخير بينهم، ولكن أوانك لم يحن بعد. ذاك لأنّ جوهرك ليس ببعيد عن جوهر خالك الراحل، والطموح لا يمكن لأحد أن يقتله. فلو تمكن أهل الغدر من قتله إلّا أن فكرته لا يمكن لأحد قتلها. لهذا أجد فيك أملا للمستقبل لاحظته في جرأتك ونباهتك وفطنتك وأخلاقك العالية. لا شكّ في أنك ستتابع الرسالة التي كتب عنوانها خالك لتكون أنت وبذات الإسم جوهر موضوعها.

– أمّي لقد أقلقني كلامك هذا.

sarkht damir inside.indd 278 24/04/2018 03:18:47

– وهذه بادرة خير، فالقلق مسؤولِيّة وليسَ ضعفًا، ومن يشعر بها يحمل ضميرًا حرًاّ بالإضافة إلى طموحه، وهذا مطمئن.

– أشكرك على ثقتك، وتأكّدي أنني لن أخيّب أملك أبدا.

– أثق بك لأنني أثق بأنّ الله ما كان ليرسلك إلينا لو لم يكن لك دور في خدمة المجتمع ينطلق من عائلتنا. أتمنى لك التوفيق في رحلتك الزمنية يا بني لعلّك تجد حقيقة وجودك لتدرك وتفهم سببَ خلقك، وتلك هي الغاية الأهم والأسمى. والآن أخلد إلى النوم مطمئن البال فالله سيهبنا كلّ الخير لأننا نقف أمام مرآته صحيحي النوايا صائبي القول والعمل. ولا تنسى أن تسامحني لإنشغالي عنك لفترة قصيرة من الزمن، فعلي أن أتمم واجبي تجاه الخير والحقّ فلربما كانت آخر المهمات المطلوبة في زماني هذا.

– أحبك يا أمي وأتمنى لك التوفيق دوما، وأرجوك أن تتوخي الحذر فأنا لا أريد أن أخسرك، ولكن تأكّدي أنني سأكون قويّا مهما حصل ولن أخيّب لك أملًا. وسأكون خير وريث لاسم خالي الراحل ولن أقبل أن تعكس مرآة قدري إلّا ما هو خير لي ولكلّ مَن أحبه.

sarkht damir inside.indd 279 24/04/2018 03:18:47

- أحمد الله على نعمة وجودك وأشكرك لأنك أعطيتني أجمل ما قد تحصل عليه سيّدة، ألا وهي الأمومة. والآن تصبح على خير يا فارس الخير.

- تصبحين على خير. أحبك يا أمّي.

حضن طَموح والدته حريّة، وقبّلها كثيرًا جمّة ثمّ ذهب إلى فراشه فرحًا مرتاحًا، بينما دخلت حريّة غرفتها وبدأت المطالعة والتحضير في ملف ضمير.

sarkht damir inside.indd 280 24/04/2018 03:18:47

مفاجآتٌ صادمة

بعد مرور يومين، كانت حريّة قد أتمت دراسة ملفها بنجاح مترقبة مرافعتها أمام المحكمة في نهاية الأسبوع بعد أن حضّرت الدفوع الشكلية التي تعتبرها كفيلة وكافية لتحرير ضمير من بَراثن الظلم. وفي مساء اليوم الثاني تلقت الإتصال الذي كانت تنتظره. فها هو موثوق يكلمها ليخبرها عن موعد لقائها المباشر مع الإعلام وقد حُدّد في اليوم الثالث:

– صديقتي العزيزة، كيف حالك؟

– أشكر الله على كلّ شيء، بدءًا من سلامة عقلي ورجاحته وصولا إلى صحّة جسدي. والآن أخبرني هل إستطعت تدبير لقاء مباشر لي على الإعلام؟

– قد قلت لك آنفا... لم ولن أخسر ثقتك أبدا. فرغم الضغوطات على الإعلام إستطعت وصديقي، أن ندبّر لقاء مباشرا معتمدين خطة ألا نكشف هويّة الضيف، حتّى نفاجئ السلطة والناس، فنتمكن من قول ما نريده أقلّه في محور واحد قبل تدخّل السلطة مع إدارة المحطّة.

sarkht damir inside.indd 281 24/04/2018 03:18:47

– خطّة رائعة يا موثوق. لقد كنت متأكدة من ذكائك ووفائك لضمير ومشروعها. حسنا فعلت. ولكن متى سيعقد اللقاء؟

– سيكون بعد يومين من الآن، أيّ في مساء اليوم الذي يسبق يوم محاكمة ضمير.

– جيد جدًا... جيد جدا...

– ولكن لمَ أنتِ سعيدة إلى هذه الدرجة؟! وقد خلت أنك ستغضبين لأننا لم نستطع إيجاد مساحة إعلامية في يوم غد وقد تأخرنا يومين عما كنا نتوقع.

– لا شيء يا صديقي لا شيء... المهم أنك وفيت بوعدك واستطعت أن تدبّر لنا لقاء إعلاميًا مباشرًا قبل موعد المحاكمة. أخبرني، كيف حال الجدّ متنوّر؟

– إنّه في أحسن حال، ودائما ما يردد قولًا أعجب منه. "سيحيا طَموح بصفاء ضميرِ حريّة وحقيقة حريّة ضمير".

– يا إلهي، ما أشدُّ تنوّر عقله ففيه رؤى مستقبلية!

– إشرحي لي قوله، فلا شك أنه يضمر في باطنه معنًى أعمق من ظاهره.

– لا عليك يا صديقي العزيز، فأنت تعلم كم يعشق الفلسفة فكرا وقولا... على أيّ حال، أرجوك أن تبقى إلى جانبه

sarkht damir inside.indd 282 24/04/2018 03:18:47

في اليومين القادمين ولا تتركه أبدا. على أن نلتقي يوم المقابلة. فآتي لأقلك ونذهب سويًّا.

– حسنا سأكون في انتظارك. بالمناسبة يا حريّة هل سمعت شيئا من موهوب، فأنا أحاول التواصل معه ولكنّ خطّه مقفل ولم يكلمني منذ فترة. أخشى أنّه تخلّى عنّا وغادر البلاد.

– لا أستبعد ذلك يا موثوق، فموهوب رجل ماديّ وفي حال لم يجد في المشروع إفادة فلن يتوانى عن تركنا والتخلّي عنّا، هو لا يحمل ذات الإنتماء والوفاء الذي نكنّه لبلدنا الحبيب. ولكن دعنا من موهوب ولنصبَّ جام تركيزنا على إنصاف ضمير وتحريرها من أقبية الظلم.

– أصبت في ما قلته. الآن حريّة ضمير هي الأساس. وأعتقد بأننا ستتمكن من إنصافها بجهودك وإصرارك على نصرة الحقّ.

– وبوجود أمثالك من الأوفياء معنا وإلى جانبنا يا موثوق. والآن دعنا نأمل خيرا حتى يوم محاكمة ضمائرنا.

– حسنا، إلى اللقاء في صباح اليوم الثالث.

– أتركك في رعاية الخالق. دمتَ لي صديقًا وفيًا موثوقًا.

sarkht damir inside.indd 283 24/04/2018 03:18:47

أقفلت حريّة هاتفها متفائلة جدًا مغتبطة من مسار الأمور وفق ما رسمته تمامًا، وخاصة بعد أن إلتزم موثوق بعهده لها وأمّن لها إطلالة إعلامية مباشرة تعتبرها بدورها ضربة قاضية في وجه السلطة. وخلال يومين كانت حريّة قد إستدعت شجاع وأوكلت إليه مهمة دقيقة طلبت تنفيذها بحذافيرها، في حين جهزّت نفسها تماما لمساء اليوم المرتقب الذي سيسبق محاكمة ضمير المقرر انعقادها في صباح اليوم الثاني.

لقد كان شجاع مهتما وممتنًّا للدور الّذي أوكلته إليه حريّة، كما كان مذهولا لدقّة ما رسمته وخططت له.

sarkht damir inside.indd 284 24/04/2018 03:18:48

كانت حريّة دائمة التواصل مع المحقق إلتزام، فكان تطمئن منه إلى حال ضمير،لأنه ممنوع عليها مقابلتها في السجن بأمر من الرئيس، وكان مسموحًا لها التواصل معها عبر الهاتف، إلّا أن حريّة حرصت ألا تخبر ضمير شيئًا عن مسار عملها فكانت دوما تخبرها بأنّ الأمور ستكون على ما يرام. وتخبرها عن تفاؤل الجدّ متنوّر وعن بقاء موثوق إلى جانبه. وتحثّها على أن تبقى قوية كما عهدتها مصرّة على براءتها حريصة على ألا توقع أيّ إعتراف حتى يوم المحاكمة.

sarkht damir inside.indd 285		24/04/2018 03:18:48

sarkht damir inside.indd 286 24/04/2018 03:18:48

اليومُ المُنتظَر

وصل شجاع في مساء اليوم المرتقب إلى منزل الجدّ متنوّر ليقلّ موثوق معه إلى المقابلة الإعلامية المقرر إجراؤها مباشرة على الهواء مع حريّة في تمام الساعة التاسعة مساءً، كي تتحدث فيها عن قضية ضمير. خاصة أن الرأي العام ينتظر مقابلة مهمة في ذاك البرنامج الحواري الناجح، ولكنهم لا يعلمون هويّة الضيف. وتلك قضية كانت قد بدأت الصحف تتناولها لأنها المعنية ناشطة في قوى المجتمع المدني. تلك القوى الشبابية المتحررة التي تحمل كفاءات متميزة في مجالات مختلفة تناهض فساد الدولة وتقارع المفسدين فيها وأداءهم المشبوه.

وما إن دخل موثوق سيارة شجاع حتى قال له:

– ولكن أين حريّة؟

– في مكتبها!

– وهل ستتخلّف عن موعد المقابلة؟

sarkht damir inside.indd 287 24/04/2018 03:18:48

– لا كيف تتغيّب عن مثل هذا الأمر المهم؟ لكنها ستتأخر عن موعدنا لأنّ لديها آخر مهمًا يا صديقي وستوافينا من هناك.

– حسنًا لقد طمأنتني... لأنك لا تدرك مدى الصعوبات التي واجهناها حتى استطعنا تأمين تلك المساحة الإعلامية المباشرة.

– لقد أخبرتني حريّة عن جهودك المضنية، وحدثتني عن ثقتها بك ووفائك لأصدقائك ولا سيّما ضمير. كما أنها ممتنة وضمير لمجالستك الجدّ متنوّر.

– هذا واجبي تجاه أصدقائي يا شجاع.

– لا يعرف الواجب إلّا أهله، وأنت أهل له.

– أشكر إطراءك.. والآن فلننطلق لا نريد أن نتأخر على حريّة والمقابلة، فوجودنا إلى جانبها سيدعمها ولا شكّ.

– نعم... هيا بنا.

وصل شجاع وموثوق إلى مكان المقابلة، وكان مقدّم البرنامج في انتظارهما، لكنّ حريّة لّما تصل بعد. فوقع المقدم في حيرة من أمره، فهو على موعد مع الجمهور بتقديم ضيف يحمل مفاجآت لهم. حاولوا التواصل معها إلّا أنّ خطّها كان مقفلًا. فسادت البلبلة الأجواء، ووقع موثوق في همّ التقصير أمام

sarkht damir inside.indd 288 24/04/2018 03:18:48

صديقه الإعلامي، مستغربا غياب حريّة وقد صار قلقًا عليها. فليس من شيمها التخلّف عن عهد أو وعد، خاصة أنها تعي خطورة المقابلة ودقة ظروفها. فجأة وقبل دقائق قليلة من البثّ المباشر، سحب شجاع أوراقا من حقيبته قائلا:

– حضرة الإعلامي، إن أهمّ ميزة أو صفة تتمتع بها ابنة عمي المحامية حريّة هي أنها تتوقّع الأسوأ دائما، وتضع خططًا بديلة.

– كيف ذلك، ما الذي تقصده؟

– لا تقلق يا موثوق فحريّة لم ولن تخذلك أبدا. فقد طلبت منّي منذ يومين أن أحمل أمانة هي عبارة عن رسالة ومعلومة مهمتين، وكلفتني أن أتلوهما أمام الناس مباشرة في حال أصابها أي أمر حال دون وصولها إلى البرنامج في الوقت المناسب.

– إذا، سلمتك رسالة فيها مضمون حديثها تحسبا لغيابها جرّاءَ أمر طارئ.

– نعم... نعم بالطبع.

– لم يتبق لنا أيّ حلّ آخر، ستخرج للناس لتقرأ رسالتها، وبما أننا لن نكشف هوية الضيف لن يستغرب المتابعون حضورك ولن يعرفوا أنك بديل ضيف آخر.

sarkht damir inside.indd 289 24/04/2018 03:18:48

– جيد جدا وأنا حاضر تماما.

– ولكن يا شجاع هل أنت متأكد من أنك تستطيع القيام بهذه المهمة؟

– إنتظر فترى بأمّ عينيك... ففي رسالتي هذه سأتحدث بلسان جوارحي.

– لم أفهم!

– لا حاجة لك.. عليك أن تسمعني ولا بدّ أنّك ستسرّ.

– إذا.. هيا بنا لنُجرِ المقابلة.

طلب مقدم الرنامج من مدير الإنتاج البدء بالتحضير للبثّ المباشر، وأعلمهم أنّ شجاع سيكون الضيف الرئيس، وموثوق واقع في حيرة من أمره مستغرب ما يحدث أمام عينيه من جهة، وقلق على مصير حريّة من جهة أخرى. بدأت الحلقة وبدأ مقدم البرنامج قائلًا:

– قضايا كثيرة هي حديث الساعة.. ومشاكل جمّة يعانيها مجتمعنا، حتى بات علينا أن ندجّن أنفسنا بواقع مرير نتوقع فيه الأسوأ كلّ يوم، فأصبح جُلّ ما نتمناه يتمثّل في بقائنا على سوء الأمس بما حمل، خوفا من الأسوأ الذي سيأتينا في الأيام اللاحقة، بما أنّ واقعنا يبشّر بالإنتقال من السيئ إلى الأسوأ دائما.

حلقتنا اليوم قد يصفها بعضكم بالغريبة. وآخرون قد يقولون عنها مهمّة، وكثر قد يتجاهلون مضمونها... إلّا أنّ الثابت فيها أنها حلقة صادقة وطنيّة جوهرها قول الحقّيقة في سبيل إحقاق الحقّ. أمّا ضيفنا لهذه الحلقة فهو قرّب من فارس الحريات في بلادنا الراحل طَموح وشقيقته المحاميّة الفذّة السيّدة حريّة التي سكنت قلوب الناس وعقولهم في مقارعتها لبراثن الأقدار الظالمة.

قد علمنا أنّ لديك أمرًا مهمًا ستدليه، يهمّ المواطنين جميعا، وسيعود بالخيرِ على الوطن كافة. الهواء لك، تفضل وقل ما عندك.

– في بادئ الأمر أحييك على برنامجك وأشكر استضافتك الكريمة، كما أحيّي كافة المشاهدين الكرام.

– أهلا وسهلا بك في بيتك. ولكن هل تخبرنا ما هو الأمر المهم الذي أردت إطلاع الناس عليه؟

– في طبيعة الحال، لقد أخذ الرأي العام فكرة من خلال الجرائد والأخبار المحليّة عن الموضوع الذي سأتناوله معك، ولا شك أنه موضوع الساعة.

– هل تعني بكلامك موضوع احتجاز الآنسة ضمير؟

– نعم هو عينه!

sarkht damir inside.indd 291 24/04/2018 03:18:48

- وما الجديد في تلك المسألة؟

- الجميع يعلم أن ضمير محتجزة منذ أسبوع تقريبا على ذمّة التحقيق من دون أيّ تهمة تذكر أو جرم مثبت، وجميعنا نعلم أن التوقيف لا يجب أن يتعدّى وقته المحدّد على أن يُخلى سبيل المتهم بسند إقامة وبأقصى الحالات أن يمنع من السفر. لكن السلطة المحلية رأت أن بإمكانها مخالفة القوانين التي نَصَّ عليها الدستور والتي نصّت عليها أيضا شرعة حقوق الإنسان، معتمدة أسلوب القمع والترهيب وهذا ما لا يمكننا أن نتقبله أبدًا كشعب حرّ لا يملك إلا العزّة والكرامة رصيدًا إنسانيًّا حقيقيًّا.

- ما الّذي تريد قوله، أرجوك أن تكون واضحا وصريحا ومباشرا.

- أحاول أن أضع المشاهدين في صورة واضحة عما يجري.

- لكننا لسنا هنا لنشرح للناس عن جوهر القوانين، بل لنعطيهم مادة لا يملكونها ويحتاجون إليها.

- وهذا ما سيحصل، لهذا أنا معكم اليوم على الهواء مباشرة.

- إذا ما الجديد أو ما الذي لا يعرفه الرأي العام عن القضيّة؟

sarkht damir inside.indd 292 24/04/2018 03:18:48

– ما لا يعرفه الكثيرون أنّ ضمير كانت تحاول إنتاج فيلم قصير عن البطل الراحل طَموح، محاولة تخليد أفكاره بتجسيد حياته في مشاهد صادقة تكرّس أفكاره الحرّة ومواطنته الحقّة.

– حسنًا، وما الذي حصل؟

– ما حصل أنّ "حكاية طَموح" لم يلق قبولا لدى السلطة السياسية في البلاد وبالأخص لدى متحكّم.

– ولماذا أتيت على ذكر الرئيس متحكّم؟ وما علاقته بالأمر؟

– كي أكون صريحا معك ومع المشاهدين، نحن في البدء تفاجأنا مثلك تمامًا، إلا أنّ ما حصل فيما بعد جعلنا نفهم ما يجري، خاصة أننا استطعنا أن نكشف خائنًا بيننا ينقل الصورة بالسوء عنّا للدولة والأجهزة الأمنية.

– قلت إنّ خائنًا بينكم كان سبب إلقاء القبض على ضمير...

– نعم بالتأكيد. وهو الخائن عينه الذي إئتمناه على فكرة مشروعنا الذي نرى فيها خلاص الأجيال القادمة فهو رسالة إنسانيّة وطنيّة فكرية تحرّر عقولهم من قيود التبعية الرجعية.

– ومن هو ذاك الخائن؟

sarkht damir inside.indd 293 24/04/2018 03:18:48

- لسنا هنا للتحدث عن ذاك الخائن بل لنتحدث بأمر أهم بكثير.

- وما هو؟

- بعد قليل ستشهد البلاد مؤتمرا صحافيًا مباشرا يكشف أسرارًا مهمة جدا، ولكن ذاك المؤتمر لن يبدأ حتى أنتهي من إلقاء الرسالة التي في يدي.

أنهى شجاع كلامه ذاك وسحب رسالة من أمامه ليقرأها، بينما الإعلامي وموثوق منبهران مما يسمعانه. فقال الإعلامي:

- وعن أيّ مؤتمر صحافيّ تتحدث؟

- إنتظر حتى أنهي رسالتي، ولا شكّ سيبلغك مخرج برنامجك بضرورة إيقاف الحلقة من أجل البث المباشر.

- وهل أنت على يقينٍ من ذلك؟!

- فلتعتبر أنني أتكهن، ولننتظر ونر إن كان سيتحقق كلامي أم لا.

- حسنا هات ما عندك.

- بكل سرور... "إلى ضمير... إليك يا ضمير أتوجه برسالتي هذه، وحتى لو أنك لا تسمعين كلماتي مباشرة في هذه اللحظة، فلا بدّ أن تتواتر إليك أصداؤها في زمن قريب جدا، والزمن القريب قد يكون غدًا صباحًا!

sarkht damir inside.indd 294 24/04/2018 03:18:48

ضمير.. أخاطبك اليوم على الهواء مباشرة وأمام الملايين من الناس، لأقول لك إنكِ رمز نضال حقيقي، فأنت نموذج أنثوي إنساني راق قلّ مثيله، وربما ثمّة رجال لا يجرؤون على إنجاز ما فعلته، أو أن يبادروا كما بادرت.

مذ تعرّفنا إليك، عرفناك صادقة مواطنة أصيلة شغوفة بعملك وملتزمة قضية الحريّات وخاصة بعد أن عملنا على إنتاج مشروع "حكاية طَموح" وهو عمل يُحاكي أصحاب الضمائر الحرّة ليس في بلدنا بل في العالم أجمع.

ووفقا لما ذكرته للتوّ، أدعوك لتطمئني إلى خروجك سالمة قريبا من السجن، لأنّ لديك محاميّة مميّزة يخنع أمام صلاحها كلّ فاسد أنّى وجد. وفي الغدّ القريب ستنعمين بدنيا حريتك على يدّ حريّة وأحرار كثر غير متوقعين".

– وهل تستبق حكم القضاء؟ هذا غريب! على كلّ حال أرجو أن تختصر رسالتك!

– إنّي ما استبقت حكم القضاء بل قلّ إنّي متيقن من القرائن والأدلة التي في حوزتنا فلا تقلق البتّة.. ها قد شارفت على إنهاء رسالتي: "غدًا ستشرق شمس الحريّة على ضمير وأصحاب الضمائر كافة. غدًا ستكشف الستارة عن الظلاميين، لتنقشع من أمام أعين شعبنا حقيقتهم. وفي ختام الرسالة أدعوكم إلى ترقّب ما سيحصل بعد قليل، وكي أختتم رسالتي

sarkht damir inside.indd 295 24/04/2018 03:18:48

مرتاح البال قرير العين، يسرّني ويشرّفني أمام الجميع وبكلّ جرأة أن أعترف بحبّي لضمير معلنا أنني قد عشقتها من الوهلة الأولى، وها أنا مباشرة على الهواء أطلب يدها للزواج في حال شرفتني وقبلت. وإن للقادر في خلقه شؤونًا".

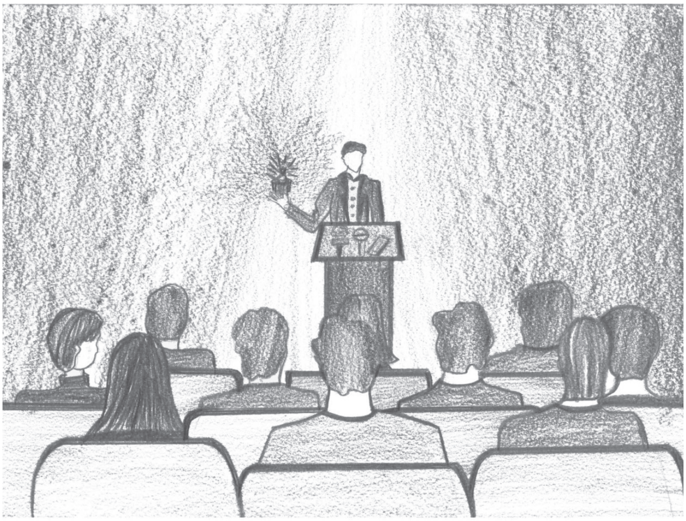

بينما كان شجاع يختتم رسالته، راح مقدم البرنامج يستمع إلى صوت في أذنه يخبره عن اضطرارهم لوقف البث المباشر والإنتقال إلى مؤتمر صحفيّ مهم. وقد صدم الإعلامي لما سمعه، فقد حصل تماما كما توقّع ضيفه شجاع. فقال:

- جميل أن تحمل هذا التفاؤل في كلامك، والأجمل أن تختم كلامك برسالة مفعمة بالحبّ. ورغم أنّ ما قلته للتو فيه

sarkht damir inside.indd 296 24/04/2018 03:18:49

الكثير من النقاش والحوار. إلّا أنني مضطر إلى قطع البث المباشر من أجل تغطيّة مؤتمر صحفيّ مهم حسبما أعلمني مخرج البرنامج. ولكن سأعود إليك لتخبرني كيف عرفت ذلك مسبقا! صدقا لقد أذهلتني!

- إنتظر لتسمع المؤتمر الصحافي الذي ستتابعونه، فما تعتبره مفاجأة مني، لن يعدو كونه مزاحًا أمام الحقّائق التي ستسمعونها بعد قليل.

- لا أعلم كيف يمكن أن تعرف أو أن تتوقع كلّ هذه الأمور. على كلّ حال، أيّها المشاهدون الكرام، نعتذر لأننا مضطرون لوقف بثّ برنامجنا المباشر من أجل متابعة المؤتمر الصحافي.

كانت علامات البهجة لا تفارق وجه شجاع بينما موثوق متفاجئ مما يسمعه من صديقه، في حين أنّ الإعلاميّ يتوق إلى معرفة ما يضمّه ذاك المؤتمر من خبايا ومعلومات هامة، فقد أصبح متيقنا أنّه يخصّ قضية ضمير بشكل أو بآخر من خلال معرفة ضيفه مسبقا بحدوثه.

بدأت شاشات المحطات المحلية وكذلك المحطّة الرسمية الأساسيّة بنقل أحداث المؤتمر.. ومَن غيرها؟ نعم إنّها حريّة سيّدة ذاك المنبر وصاحبة الكلمة الرئيسة فيه، تتوسط الجدّ متنوّر وصديقه متموّل في نقل مباشر من مكتبها في العاصمة.

sarkht damir inside.indd 297 24/04/2018 03:18:49

بدأت وبين يديها أوراق كثيرة مستعدة للتحدث بها أمام ملايين المشاهدين. بينما كان الجميع يتساءل عن فحوى تلك الأوراق، وماذا عسى أن تعلن تلك المحامية المقارعة لأهل الشرّ والفساد، وهي المعروفة بشجاعتها وصوابية أقوالها وأعمالها ونُصرتها للحقّ والخير.

أمسكت حريّة بيدّ الجدّ متنوّر مبتسمة إبتسامة أمل وتفاؤل، نظرت إلى السيّد متموّل نِظرة تقدير وإحترام، رفعت رأسها أمام وسائل الإعلام قائلة:

- إن كان للشر كلمات في مقالات، فللخير مبادئ ومعتقدات. إنّ مؤتمرنا اليوم هو وقفةَ حقّ في وجه وحوش الباطل. هو بسمة أمل، هو مسرحُ الحريّة. هو صرخة ضمير في وطنٍ هو عند أهل الفساد أسير.

في مؤتمرنا اليوم، سنتوجه إلى الرأي العام وكافة الأنام، باحثين في عقولهم عن بقايا أحلام... تلك الأحلام التي تمنح أصحابها دفعا معنويّا إنسانيّا وطنيّا للإستمرار في عيش الحياة بكرامة. ولكن شعبنا لم ولن يعرف الكرامة في حياة تسيطر عليها تبعيّة ينهشها الخوف. نعم الكرامة تفرض علينا إمّا الموت ونحن واقفون بعزّة نفس، وإما أن نحيا وفق ما تمليه علينا قناعاتنا ونحن متلذذون بطعمِ أفكارنا من على موائد طعامنا. اليوم سنكشف ما ليس

sarkht damir inside.indd 298 24/04/2018 03:18:49

متوقعًا، سنكشف ما قد يراه بعضكم خطرا قوميا يهدد الأمن والإستقرار في البلاد، بينما سيجده آخرون نافذة حريّة نحو حياة كلُّها ضمير.

كانت حريّة تقصد إطالة مقدمتها حتى يتسنى لأكبر عدد ممكن من المشاهدين متابعة أهمّ ما سيرد في مؤتمرها الصحافي، في محاولة لاستقطاب أكبر عدد منهم ومتابعة مجريات النقل المباشر. فتابعت:

– لقد أصبح معلوما لدى أغلب فئات الشعب، أنّ الصحافية ومخرجة الأفلام القصيرة الآنسة ضمير تقبع في السجن منذ أسبوع تقريبا من دون أدنى تهمة مثبتة. وقد تحوّل ملفها إلى قاضي الأمور المستعجلة بتكليف من جهات عليا في البلاد. وبالطبع ما كانت ضَمير لتختار أي خيار يخالف قناعاتها وحريّة ضميرها.

ولكي يكون الجميع على بينّة مما حصل، سأوجز لكم قضيتها. هي منذ سنوات وبعد كشف ملابسات إغتيال شقيقي غدرا، أتتني حاملة فكرة مشروع إخراج فيلم قصير عن حياته وقد كان رمزا للعصامية والخير، مناضلا في سبيل الحقّ. لكنني اضطررت للسفر لبضعِ سنوات، فما حركت بدورها ساكنا وكانت تنتظر مني التواصل معها بينما كانت دائمة البحث عني، وأبقت نصب عينيها إنجاز المشروع وهو

sarkht damir inside.indd 299 24/04/2018 03:18:49

أمل الأجيال القادمة لجهة ضرورة إيمانهم بالحقّ والخير من أجل صون الوطن بشعبه وأرضه.

وبعد عودتي من هجرة طويلة إلتقيت بها، فأطلعتني على مشروعها "حكاية طَموح"، وبينما كنّا نعمل على إنجاحه، كان أهل الظلام يتحركون متربصين بنا، وعلموا في الآونة الأخيرة، أنها أنهت الكتابة وستباشر الإنتاج، فشعر الفاسدون بالقلق من أن ينبلج النور ليشرَعَ في فضح عتمة قلوبهم وعقولهم، فقرّروا عرقلة عملها، ولم يتمكنوا من إيجاد طريقة سوى توقيفها.

لقد كمنوا لها على الطريق، وأخذوا منها الأوراق واعتبروها قرينة ضدّها تهدد الأمن القومي في البلاد، وإقتادوها للتحقيق حتى أننا مُنعنا من رؤيتها أو التحدث معها، وهذا أمر مخالف للقوانين والأعراف وحتى المواثيق الدولية ولا سيّما شرعة حقوق الإنسان. وسأترك لكم قليلا من الوقت لتعرفوا الجهّة التي لا تخشى أن تأمر أو توجّه السلطة القضائية".

– ولكن يا سيدة حريّة؟ ألا تعتقدين أن كشف معلومات عن القضية قبل موعدها ولو قبل يوم واحد، قد يعرّضك لخسارة قضيتك، أو أقلّه للملاحقة القانونيّة، خاصة أن لا حكم صادر حتى الآن؟

– في ما خصّ الشأن القانوني، لا أعتقد بأنني قد أقع سهوًا في هوّة مخالفة القانون حتى يلاحقني أهله زورًا فكل شيء

sarkht damir inside.indd 300 24/04/2018 03:18:49

متوقع. أما في ما يخصّ مسألة خسارة القضيّة، فبغض النظر عن نتيجة الحكم التي سيُصدرها القاضي غدًا، تأكّدي يا سيّدتي أننا ربحنا مسبقا أنفسنا يوم وقفنا في صفّ الحقّ والحقّيقة. نحن ربحنا يوم ناصرنا الخير، وما وقفنا في صفّ الشرّ.

– ولكن..

– قبل ذلك! نرجوك أن تسمحي لنا بمتابعة مؤتمرنا وتقديم أخبارنا وأخبار الرأي العام، ومن بعدها لكِ أن تسألي عمّا تشائين. فرغم أننا نحيّي فيك روح الإعلام التواقة إلى كشف الحقّائق، إلّا أنك تستبقين الأمور قليلا، فمن الرائع أن تؤدي السلطة الرابعة دورها في خدمة الناس والخير العام بعيدا من المصالح التجارية والزمنية الفانية،.

لكن كما يقال كلّ شيء في أوانه يا سيدتي الإعلاميّة. أليس كذلك!؟

– نعم، معك حقّ يا أستاذة... أرجوك أكملي كلمتك.

– شكرًا لتفهمك.. والآن لنتابع. فكما أوردت سابقا، لقد تمّ توقيف ضمير بأمرٍ صريحٍ من رئيس البلاد متحكم، وذلك لحجج واهية وقرائن لاعقلانية قانونية. ولأننا لا نريد زعزعة الأوضاع سأوجه كلامي هذا إلى الرئيس، وأنا أعلم تماما بأنّه يشاهدنا في هذه اللحظة بالذات. فلهُ أقول:

"أنظر يا مَن تتحكم بالبلاد ورقاب العباد، أنظر إلى رجلين يجاورانني ها هنا، حتّى ترى تاريخك الأسود في وجهيهما... نعم إنه متموّل رجل الأعمال الذي كان يشغل منصب رئيس مصلحة ومدير عام في وزارة التعليم يوم كنت أنت على رأسها وزيرا... كذلك معي وإلى جانبي السيّد متنوّر، وهو العالم بنور المعارف والحقّائق وقد كان يشغل منصب رئيس الجامعة الوطنية في تلك المرحلة بالذات. وهو الرجل الذي ظُلِمَ. هو الرجل الذي وثق بصديق عمره متموّل لتجنيا معًا ثروة بالحيلة والمكر على حساب هذا الرجل الشريف متنوّر. ورغم أنكما جنيتما ثروة طائلة كنتما سببا لهجرته عن البلاد!"

كان الحضور مصدوما حين راحت تسرد حريّة تلك المعلومات الخطيرة، وكان الصمت سيّد الموقف فعمّ السكون أرجاء المكتب وربما كلّ قاعات الوطن التي تعرض فيها شاشات تنقل ذاك المؤتمر. وكأن الأفكار تاهت عن عقول كلّ مَن سمع وشاهد جرأة حريّة وصلابة موقفها. في حين أنّ شجاع كان قد إعتذر من مقدم البرنامج عن متابعة الحلقة معلنا له أن الواجب يناديه ليكون قرب ابنة عمه في يوم قد يكون الأهمّ في حياتها. فغادر شجاع وموثوق متوجهين إلى مكتب حريّة التي تابعت مؤتمرها:

sarkht damir inside.indd 302 24/04/2018 03:18:50

– يا أيها المتحكم برأس السلطة وبالشعب كلّ الشعب.
أقول لك، إنَّ مشروع "حكاية طَموح" الذي حاولت منعه أو إيقافه بإيقافك الآنسة ضمير، قد أبصر النور ليكون ومنذ هذه الحظة بالذات مُلكًا للرأي العام بمجملِ فئاته. وها نحن سنعرضه مباشرة الآن قبل أن نتابع مؤتمرنا وسترى كيف أنه من دون أن نأتي على ذكرك أو ذكر أيّ فاسد من هؤلاء السلطويين، سنجعلكم تشعرون بالخزي والعار والنقص. لأن النور متى شعّ وبشرارة وميضه كان كفيلًا أن يحرق أهل الفساد.

والآن أطلب من وسائل الإعلام كافة أن تتابع عرض "حكاية طَموح"، لأترك بعدها الكلام للسيّد متنور والسيّد متمول في حال أرادا إعلان موقفٍ ما، ثمّ أعود لأطلب أمرًا من المواطنين كافة. وليعلم الجميع، متى توحّد الشعب خلف الحقّيقة فلا بدّ أنهم سيكونون منتصرين، فلا سلطة تكون قادرة على قمع الحقّ متى وقف أهله متحدين صادقين.

بدأ عرضُ "حكاية طَموح" على شاشة كبيرة في تغطية إعلامية لم يسبق لها مثيل، وقد شاهد أغلب الشعب مؤتمر حريّة، متأثرين بجرأتها ومواجهتها رأس الهرم في السلطة محاججة إيّاه بفساده المثبت. وما أن إنتهى عرض المشروع، حتى علا التصفيق في المكان. عاد الهدوء إلى القاعة المؤتمر حتى إلتفت حريّة نحو الحضور والدموع تملأ عينيها لشدّة تأثرها، وقالت:

sarkht damir inside.indd 303 24/04/2018 03:18:50

- بعد أن شاهدتم صرخة ضمير في حكاية طَموح، سأترك للضيفين الكلام قبل أن أختم المؤتمر طالبةً من الشعب، كُلّ الشعب مبادرة وطنيّة لا بُدّ وأن تكون في صف الحقّ.

عندها وقف متنوّر متأثرا بما شاهده قائلًا:

- لا كلام أضيفه إلى ما قالته الأستاذة حريّة في مسألة قضية حفيدتي ضمير. وإني على ثقّة في أنّ ساعة إحقاق الحقّ آتية ولا ريب. وغدًا سندرك موقع العدل من على مسرح صرح العدالة. وسنترك الحكم لله على كلّ مَن تسوّله نفسه التحكم بالناس إرضاءً لذاك المتحكّم. وإلى هذا الأخير أتوجه بكلامي لأقول: "أعلم أنك تعرفني... وأعلم أنك ما كنت لتتوقّع عودتي، لأنك سببُ هجرتي. فيا هذا، ها هو صديقي القديم متموّل إلى جانبي اليوم، قد سمع صرخة ضمير وضميره الخاص، فأدرك أنّ هذا الكون الفاني لا يستحق المساومة أو المواربة أو حتى ما حمل من أملاك وثروات ماديّة لأنها كلها فانية. ولكن حتى لو أدرك تلك الحقّيقة يكفيه أنّ الله سمح له بأن يعود إلى طريق الخير الذي لا يتوه عنه أيّ باحث عن الحقّ المطلق. لن أطيل الحديث معك عبر الإعلام لأنني سأنتظر مواجهتك من خلف قوس المحاكم في القريب العاجل، إنّي أتهمك مباشرة بقضية فساد عمرها سنوات، هدمت ما هدمت فيها من آمال مئات الأشخاص، وأقفلت بيوتا وشردت عائلات كثيرة. فإن كنت تريد قمع الحريات من خلال قمع

sarkht damir inside.indd 304 24/04/2018 03:18:50

صدى صرخة ضمير، فما عليك إلّا أن تنتظر لتسمع صراخ ضمائر الشعب بأكمله قريبا جدا بعد أن يدرك حقيقة فسادك بقوّة الأدلة الدامغة والقرائن التي نملكها بين أيدينا. والفضل يعود ها هنا إلى صديقي العزيز متموّل".

في هذه اللحظة بالذات، إلتفت متنوّر لينظر إلى متموّل نظرة تقدير وإحترام متبسّما، كأنه يسامحه على كلّ ما مضى، ويفتخر بوقفته الإنسانية والوطنية المفعمة بالوفاء والصدق. فوقف متموّل حاملا ملفا كبيرا بين يديه، ليبرزه أمام الإعلام قائلًا:

– يا متحكم... لقد أدركت متأخرًا أهمية النور في قلب الإنسان، كما أدركت ضراوة الأسى الناجم عن صرخة الضمير فما عدت أحتمل وقررت أن أستريح بعد عمرٍ من الشقاء في عالم المادة الذي لا يضمن لنا حقيقة البقاء... إنني قررت أن أعاقب نفسي لأكسب رضى خالقي كما رضى صديق عمري الصدوق الذي كنت وإياك سبب هجرته عن البلد الذي عشقه حتى الثمالة.

لقد أخطأنا يا متحكم... نعم نحن الإثنان أخطأنا.. وقعنا في شرّ أعمالنا حين قبلنا أن نرهن أنفسنا للثروة والمال على حساب سلامة ضمائرنا. فحبسنا أرواحنا في أقبية سجون الزمنية بأيدينا، وعشنا كما الآلات لا حياة فينا. وكيلا أقع في

sarkht damir inside.indd 305 24/04/2018 03:18:50

الخطأ مرة أخرى... قررت أن أساعد ضَمير التي ساهمْتَ في سجنها بغير حقّ، فعملت على تمويل مشروعهم، وأشكر الله الذي سمح لي أن أقف هذه الوقفة لعلّها تكفّر عن بعض ذنوبي التي لا تنتهي.. وقد كنت مستعدًا لأفعل المستحيل كي ينصفني ويسامحني صديق عمري، لأنني كنت طيلة مدة غيابه أشعر بالحزن الذي أضنى قلبي وأرهقه فما شعرت بالفرح الحقّيقي يوما رغم كلّ ما أملك من مال وسلطة.

وعلى هذا، أتوجه إليك اليوم، لأقول، ما عاد ممكنًا لنا جميعا، أنا وأنت وكلّ مَن شابهنا أن نستمر. فإن كان للشر جولة فالحرب لا بدّ وستنتهي بإنتصار الخير لأنه جوهر النفوس القوية الساعية إلى تحقيق حقيقة الوجود الحقّة. ولأنني ما كنت لأثق بأحد منذ زمن، ولأنني رأيت العتمة في أقبية قلبك، احتفظت لنفسي بضمانة. فهل تعرف ما تلك الضمانة؟! إنها ملف الفساد الكامل الذي يدينني قبل أن يدينك، وفيه تفاصيل كلّ صفقاتنا السود وأهمها بالنسبة إليّ صفقة إعادة بناء الجامعة الوطنية وترميمها، وقد كانت بوابة دخولنا إلى عالم الظلام والتي كانت سبب هجرتك صديق عمري متنوّر وحزنه للأسف... تلك صفقات بعنا جرّائها أرواحنا من أجل حفنة من المال، لا بدّ أنها ستبقى بعد أن نفنى بدورنا.

أعلم أنك متفاجئ لما تسمعهُ، وما كنت لتتوقع ما سمعته للتو منّي... إلّا أن صدى صرخة ضمير أيقظ ضميري الغائب

sarkht damir inside.indd 306 24/04/2018 03:18:50

من سباته، وقد أيقنت وتيقنت أنّه حتى الشرّ لا بدّ وأنه سيخدم الخير يومًا ما.

إنني في هذه اللحظة بالذات أمنح هذا الملف لصديقي متنوّر، ليشرع في دعوته القضائية ضدّنا وضدّ كلّ من شارك معنا في فسادنا، وإنني مستعد لأن تنال نفسي عقابها جرّاء شرّ أعمالي لأنني أستحق ذلك ولا شكّ. فما أروع أن أسكن في سجني حرّ الضمير على أن أحيا ميتًا من دونه!

وفي هذه اللحظة تعانق الصديقان، ونظر متموّل في عينيّ متنور وهو يمسك بكتفيه ليقول له كلمة واحدة "سامحني". أدمع الرجلان وتعانقا من جديد. فوقفت حريّة وقالت:

أمّا الآن وقبل أن ننهي مؤتمرنا هذا، أدعو كافة المواطنين إلى ملاقتنا غدًا في مسيرة وطنيّة سلميّة شيبا وشبابا حتى أطفالا، مطالبين بحريّة ضمير، كما تخلّي ذاك المتحكم عن سلطانه وتوقيع عريضة شعبيّة تثبت رفض الشعب لبقاء رئيسهم في سدّة الحكم. فعليه أن ينال عقابه في حال ثبتت إدانته. إلّا أنني سأطلب طلبا صريحا واضحا وصادقا من كلّ من أراد أن يسير في ركب مسيرة الضمير والحريّة غدا: أتمنى أن تكون مسيرتنا سلمية حضارية هادئة. فلا مواجهة للقوى الأمنيّة لأنهم إخوتنا، ولا تنسوا أبدا أنَّ لا حول لهم ولا قوّة. وكونوا على ثقة أنّنا في حال كنّا نريد بناء دولة حقيقيّة، فمن غير المقبول أن نشرع في

sarkht damir inside.indd 307 24/04/2018 03:18:50

إشغال مؤسساتها الرسمية وبالأخصّ الأمنية منها... وتذكروا أن الغاية هي الوسيلة ولا يجب من أجل تغيير حالة واقعة أو تبديل حال من الأحوال أن نعمد إلى الفوضى أوالوسائل غير الصائبة قولا وعملا مهما كلف الأمر. فهلموا سويًّا ليصدح صوت ضميرنا في الساحات العامة. فنقول لا للفساد ولا لقمع الحريّات. وحاولوا أن تحملوا في أيديكم أقلامًا وأغصان زيتون لمن استطاع، علامة إيماننا بالسلام والحريّات. وتأكدوا دوما أنّه لطالما تكلمت حريّة بلسان ضميرها...

إنتهى المؤتمر.وقد كان وقعه على البلاد صاعقا لأنّه خضّ عقول أهل السلطة والمجتمع المدني ومجمل الرأي العام. وما حصل لم يكن في الحسبان. فما إن بزغ نور الفجر، حتى تهافت الناس إلى الساحات والدروب.. إستيقظت البلاد على هدير تظاهرات عدّة وصلت من كافة أنحاء البلاد إلى شوارع العاصمة، يحمل أغلب مَن كانوا فيها أغصان زيتون وأقلامًا كما تمنّت عليهم حريّة، ويهتفون بصوت ثابت واحد: "الحريّة لضمير... الحريّة لضَمير". وكان الجميع يردّدون من دون إنقطاع هذه العبارة.

وبينما كانت التظاهرة تجتاح العاصمة بالآلاف، كانت حريّة تدافع عن ضمير في المحكمة بعد أن تقدمت في الصباح الباكر بشكوى جزائية بالنيابة عن موكلها الجدّ متنوّر ضدّ رئيس البلاد متحكم وكلّ من يظهر التحقيق تورطه بتهم عديدة منها

sarkht damir inside.indd 308 24/04/2018 03:18:50

سرقة المال العام، سوء الأمانة، التقصير الوظيفي وإستغلال الموقع الوظيفي في السلطة بنيّة الفساد وقمع الحريّات...

وكانت حريّة تحرض على تقديم الشكوى أمام قاضي الأمور المستعجلة في العاصمة خوفا من أن يهرب خارج البلاد أو أن يقدم على استخدام علاقاته وسلطانه للضغط على السلك القضائي بتجاهل الدعوى تلك. إلّا أنّ ما تحسّبت له المحامية الذكية قد حصل، ساعة أبلغها صديقها القائد العام إلتزام أن رئيس البلاد كان قد سافر في الليل الفائت برحلة عمل عاجلة خارج البلاد. عندها أيقنت حريّة أنها ستنتصر لضمير وللجدّ متنوّر ولشقيقها الراحل من خلال إنتصار مشروع حكاية طَموح، لأنّها كانت تعي تماما أنّ متحكم قد هرب ولم يسافر في رحلة عمل ولن يعود قبل أن تهدأ الأجواء... آملةً أن يستقيل من غربته فلا يعود لأن القصاص سيكون في إنتظاره وخاصةً بعد تيقّن الشعب فساده.

وما أن تقدم الإدعاء بنصّ النيابة العامة، حتى ترافعت حريّة طالبة أن تستهل مرافعتها بعرض مشروع حكاية طَموح لهيئة المحكمة. فشاهد جميع مَن في القاعة ذاك الفيلم الحلم. ووقفوا مصفقين متى انتهى عرضه، لما يختزن من مواطنة حقّة وعصامية وإنسانية ووطنية حقيقيّة ظهرت في شخص بطل الحكاية طَموح الذي أدّى دوره باحترافيّة تامة موهوب.

sarkht damir inside.indd 309 24/04/2018 03:18:50

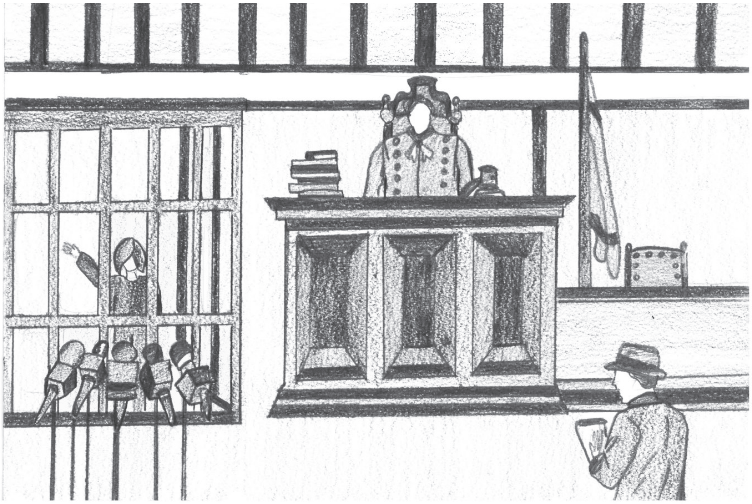

حكمت هيئة المحكمة حضوريا بإسم الشعب على ضمير ببراءتها من التهم الموجهة إليها، وأطلق سراحها لتخرج برفقة حريّة وشجاع وموهوب والجدّ متنوّر يرافقهم القائد إلتزام إلى خارج مقرّ المحكمة ليجدوا جمعا كبيرا من الناس في إنتظارهم يصفقون ويهللون بصوت واحد، لتصدح من حناجرهم الحرّة العبارة التي ستخلّدها الأيام وتتناقلها الأجيال من بعدهم "الحريّة لضمير.. الحريّة لضمير".

وقبل أن يلاقوا الناس ويفرحوا معهم فرحة المنتصرين بقوّة الحقّ على أهل الباطل. نظرت ضَمير إلى حريّة ورفعت يدها أمام الجموع وأشارت إليها أمامهم وكأنّها تقول لهم هذه هي بطلتكم، هذه هي النموذج الإنساني المثالي للمرأة الناجحة. ونظرت في وجه حريّة مبتسمة قائلة:

sarkht damir inside.indd 310 24/04/2018 03:18:51

– حريّة عندي سؤال يؤرقني!

– هل تتفاجئين يا ضَمير إن قلت لك أنني أعرف ماهيته؟!

– أحقًّا تعلمين ماهيّة سؤالي؟

– نعم... بالطبع.

– ولكن كيف عرفت أنه الخائن بيننا؟!

– متى رأيتُ وجوه الناس وناقشتهم اختبرت صلب نواياهم، ولأنني لم أرتح لذاك الشخص مُذْ رأيته في منزل جدك يوم التقيتك لأول مرّة.. عملت جاهدة وأنا أفكر في كيفية كشفه وإثبات خيانته بقرينة دامغة. ولأنّ لي مصادري الخاصة التي أبلغتني بوجود تقارير أمنية مخابراتية حول نشاطنا لإتمام مشروع حكاية طَموح، عملت جاهدة أيضًا لأستحصل على صورة أو نسخة من التقرير.

– ولماذا؟ ولو فرضنا أنك استعطت أن تحصلي على تلك النسخة، فبمَ سيفيدك تقرير لا اسم فيه؟ وكيف لك أن تتبيني هوية المُخبِر الحقّيقي؟ ولماذا لم تطلعيني على شكوكك تلك أو عن وجود ذاك الخائن منذ البداية؟

– شجاع يا ابن عمّي.. متى أردت أن تنصر الحقّ، عليك أن تعمل بهدوء، حتى يتسنّى لك أن تسمع صوتَ وعيك.

sarkht damir inside.indd 311 24/04/2018 03:18:51

أتتذكرون يا أصحاب يوم اجتمعنا في مكتبي في لقائنا الأول الذي بدأنا خلاله التحضير لإطلاق مشروع "حكاية طَموح"؟

- نعم أذكر ذاك اليوم جيدا.

- حسنا يا ضمير.. أتتذكرين ما طلبته منكم يومها؟

- يا إلهي... لا أصدق!

- وما الذي لا تصدقينه يا ضمير!

- شجاع أستغرب منك عدم ربط الأمور بعضها ببعض... رغم أنك تلميذ جدي متنور ورفيق طَموح المقرّب.

- مهلكم عليّ، أقسم بانكم إذا بقيتم على هذه الحال فلسفة وعملا، سأدخل بسببكم مصحًّا عقليا لن أخرج منه إلّا في صندوق. أرحموني، ستصيبونني بالجنون. أشعر بأنّني من كوكبٍ آخر بينكم!

ضحك الجميع وإقترب الجدّ متنوّر من شجاع واضعًا يده على كتفه قائلًا له:

- شجاع يا بنّي ألم تفهم ما قلته لك سابقًا!

- أرجوك يا معلمي إرحمني أرجوك... تتبقّى لي خطوة صغيرة لأقع في هوّة الجنون. إرحموني يا معشر الفلسفة والغموض.

sarkht damir inside.indd 312 24/04/2018 03:18:51

– شجاع، أتتذكر ذاك اليوم الذي حدّثت ضمير عنه.

– نعم أتذكره تماما يا حريّة.

– حسنًا في ذلك اليوم ألم أطلب منكم كتابة إقرار خطيّ تتعهدون فيه بإلتزامكم التام في مشروع حكاية طَموح. حتى أنني طلبت من ضمير توقيع ذاك الإقرار أيضا رغم أنها هي صاحبة الفكرة.

– نعم تذكرت.

– حسنًا... وهل كنت تعتقد بأنني جادة في إلزامكم مشروع حكاية طَموح من خلال ورقة... ألم تفكر في أنَّ مشروع كهذا يحتاج إلى إقرار نفوس لا إقرار نصوص؟!

– إذا ما كان هدفك صراحة؟

– لقد كانت حريّة تسعى إلى مقارنة خطوطنا بخطّ الخائن بيننا الوارد في التقرير المخابراتي الّذي استحصلت عليه بطريقتها الخاصة. ونجحت في ذلك.

– إذا لقد كنت تعلمين أن موهوب هو الخائن منذ البداية.

– نعم بالتأكيد... منذ اليوم الأول.

sarkht damir inside.indd 313 24/04/2018 03:18:51

– يا إلهي ولماذا لم تخبريني بذلك يا ابنة عمّي؟ لكنت تصرفت معه مباشرة.

– ما أخبرتك لأنك تنقاد بالعاطفة دوما، والعاطفة تقود صاحبها نحو الهاوية إن لم تكن مصحوبة بالتعقّل. أضف إلى أن موثوق كان يتقن فنّ إيهام ضمير وإيهامنا معها بأنه يستحق الثقة، من خلال وقفاته الكاذبة في وجه القوى الأمنية دفاعا عن ضمير، وما كانت تلك إلّا بتوجيهات منه لهم أو العكس، لينجح في مخططه، وللأمانة كاد أن ينجح.

– يا إلهي كم يتقن التمثيل ذاك الموثوق، يستحق أن يكون ممثلا مشهورا ربما يفوق إحترافية موهوب وإبداعه في عمله!

– لقد كان موثوقا نعم ولكن لغير أهله، فقد إختار ثقة أهل الباطل والشرّ بدل ثقة أهل الحقّ والخير.

– ولكن هل تعلمين أين هو الآن يا حريّة؟

– أنا سأقول لك يا ضمير.

– تفضل أيها القائد.. بحق أريد أن أعرف أين هو، لأنني أريد مواجهته ورؤية وجهه بعد أن سقط قناعه.

– لا يمكنك أن تواجهيه بعد الآن!

– ولماذا يا ترى؟َ!

sarkht damir inside.indd 314 24/04/2018 03:18:51

- لأنه أمس، كان قد بدأ يشعر بالقلق متى وصل شجاع ليقله وما كانت حريّة برفقته، أدرك أن شيئا غريبا يحصل وأنه أصبح خارج اللعبة. وما أن بدأت حريّة مؤتمرها الصحافي، خرج بدوره ليبلغ الرئيس متحكم بالأمر، وعلمت في وقت مبكر جدا من هذا الصباح أنه كان على متن الطائرة الرئاسية التي أقلّت متحكم إلى وجهة بعيدة في ساعة متأخرة من ليل أمس. وتشير التقارير التي حصلنا عليها منذ وقت قصير بأن متحكم سيستقيلُ من منصبه.

- متحكم رجل جبان رغم سلطانه، فقد قرأت في عينيه خوفًا. أمّا موثوق فعلا فقد نجح في أن يكون صديقا مرائيا، يخفي وجهه الحقّيقي خلف قناع الغدر الظالم.

- وما أكثر أمثالهم في هذا الزمان يا حفيدتي الغالية!

وفي هذه اللحظة بالذات توجهوا جميعا نحو الجموع المحتشدة أمام مقرّ المحكمة، لتقف حريّة بكلّ جرأة أمام آلاف الناس، مستحضرة طيف شقيقها الراحل بما حمل من شجاعة وجرأة لتخاطبهم قائلة:

- أحبائي... أيها الناس الطيبون. من أجلكم ناضل شقيقي الغالي الراحل طَموح، ومن أجل حريّتكم الفكرية والإجتماعية سجنت ضمير، وها هي اليوم تخرج إلينا منتصرة

sarkht damir inside.indd 315 24/04/2018 03:18:51

بقوّة صرختها الحقّة. وما كنا لنقف اليوم وقفة العزّة والكرامة، لولا تكاتفكم وسعيكم لإحقاق الحقّ في نصرة حريّة ضَمير.

اليوم يا أحبائي أثبتم أنكم شعبٌ خلوقٌ، فما سجلّت في حقكم ولو حالة شغب واحدة، فكنتم مسالمين تصرخون بصوت ضمائركم الشريفة. ولأجل كلّ ذلك، سأستعيد أمامكم بعضًا مما قاله شقيقي الراحل في يومه الأخير: "حتى لو صادفنا في حياتنا مَن لا يؤمن بلغة النقاش والحوار ومن كان قادرًا على مصادرة حريّة القرار، لا يجب أن نستسلم، لا يجب أن نخاف، فالروح الانهزامية شرّ مستطير تقود صاحبها بضعف نحو اللاجدوى في الحياة الوطنية الاجتماعية، حتى أنّها لا تترك له مجالًا ليشعر بحقيقة وجوده وكيانه، ولذلك إن كان لا بدّ من الخوف فخافوا إذًا من الأفكار المترددة والإنهزامية التي تراودكم لأنّها لن تترككم بسلام. يا وطني يا طَموحي ويا حلمي، كنْ أكيدًا أنّه لا بدّ لغيوم الشتاء أن تزول وستولد الدولة فكرًا في العقول وتشرق شمس الحريّة في ورود الحقّول، ولن تعرف أرضك أبدًا، لا اليباس ولا الذبول."

وما أن أنهت حريّة كلامها حتى بدأت الجموع بالهتاف لها ولروح شقيقها ولصديقتها ضَمير التي أوقدت بمشروعها حكاية طَموح شعلة الحريّات معلنة حربًا مفتوحة على الفساد في البلاد.

sarkht damir inside.indd 316 24/04/2018 03:18:51

ووسط الصخب في تلك اللحظات... إقترب شجاع من ضمير ليهمس في أذنها قائلًا:

- كم كنت أتمنى لو أنكِ شاهدتني أمس عندما كنت أنقل رسالتي إلى الملايين..

- ومن قال لك إنني ما شاهدتك يا حبيبي؟

- هل قلت يا حبيبي؟

- شجاع لقد شاهدتك، وسمعتك، وكنت مسرورة جدا، وأتمنى أن اخرج بأسرع وقت لأعطيك الجواب.

- إذا...

- بالطبع موافقة.. فمتى ستجد امرأة مثلي رجلا شهما شجاعا مثلك ولا تقبل به شريك حياتها؟

كان الفرح يعمّ المكان، والسعادة تنشر أثيرها بين النفوس التوّاقة إلى الحريّة في كنف الضمير.. وعاش الجميع أجمل اللحظات، وكان شجاع يقفز فرحا بين الناس، ويصرخ لقد وافقت إنها تحبني يا لفرحتي. وكانت حريّة تحادث الناس وتتلقى المباركات على جهودها وصوابية مسيرتها. وفعلا لقد كان مشروع حكاية طَموح شرارة أوقدتها صرخة ضمير من خلال أقدار حريّة.

sarkht damir inside.indd 317 24/04/2018 03:18:51

sarkht damir inside.indd 318 24/04/2018 03:18:51

دائرةُ الأقدار

إنتصرت حريّة لطَموح وضَمير معا.. وبعد عشرة أعوام من إطلاق مشروع "حكاية طَموح"، الّذي انتقل من كونه مجرّد فكرة في حُلم، ليصبح حقيقة واقعية جسّدتها صرخة ضمير بحريّة.

وبعد أن أدرك الناس حقيقة طَموح الراحل وآمنوا في صوابيّة رسالته. وبعد أن كشّفت حريّة عن غشاء الحقّيقة بجسارةٍ في قضيّةٍ أقلّ ما يقال فيها إنها مستعصيّة. وبعد أن حققت ضمير مشروعها الذي كرّس ورسّخ حقيقة وجودها من خلال عيشها لقناعاتها.

ها هو طَموح الشاب، يُحيي فكرة خاله الذي غاب جَسدًا، وذلك من خلال ترشحه وفوزه بالإنتخابات البرلمانيّة بعد أن حاز على إجازتين من الجامعة الوطنيّة واحدة في العلوم السياسيّة والثانية في القانون الدولي. وقد كان ذلك بعد خمس سنوات من رحيل والدته حريّة بعد صراعها مع المَرَض.

لقد وعد طَموح الشاب والدته قبل غفوتها الأخيرة، بأن يحمل راية خاله، وقضيتها، وإرادة صديقتها ضمير، بكلّ

sarkht damir inside.indd 319 24/04/2018 03:18:51

أمانة وإخلاص، ساعيا إلى نصرة العدالة وإحقاقًا للحقّ فخدمةً للخير العام في مجتمعه. وهو الذي أدرك عن قناعة بأن الخير لا ولن يستحق بلا طموح محقّ، مصحوبًا بحريّة الفكر والإعتقاد، ومكللّا بتقاوة الضمير.

نعم، إنّ طموح الشاب قد وعد فوفى، وأثبت خطأ كلّ مَن قال أو إدّعى بأنّ الطموح يُمكِن قَتْلُه بِقَتل حامله. فها هوذا الشاب الخلوق إبن المحاميّة حريّة، ينقض ذاك الأمر بوقفة عزّ وطنيّة بطوليّة حقيقيّة. هو من حضر إلى عالم السياسة والشأن العام حاملا اسم خاله بل قضيته ومسيرته وجوهر فكره، فترشَّح للإنتخابات لينجح ويصبح ممثلا عن الشعب في برلمانه.

أصبح المواطن المشرّع المسؤول الذي ورث عن والدته أفكارها الحرّة، كما ورث إرث خاله الفكريّ النضاليّ الذي لا يموت. فعشق وطنه إلى حدّ الثمالة، وقررّ أن يهِب مجتمعه ما وهبه إيّاه الله سبحانه مِن معارف، وأفكار ومبادِئ. وقَف مرارًا أمام الناس، وخَطَب فيهم بكُلّ جُرأة ومِصداقية. حتى لمسَ الناس في شخصه الصدقَ والحقّ والخير..

وها هو اليوم يلقي خطاب خاله الراحل الذي كان قد ألقاه قبل زمن يوم تبوأ المنصب عينه، ليتأثر أعضاء المجلس ويقفوا مصفقين قائلين "سنبقى مواطنين" وهي العبارة التي أنهى بها طَموح الراحل خطابه. فمَن قال إنَّ الطموح قد

sarkht damir inside.indd 320 24/04/2018 03:18:52

يموت، إنّ الطموح تتوارثه الأجيال ولا بُد أن ينجح ويتحقق ما دام صائبًا محقًّا صادقًا.

لك مني يا شعبُ تحيّة... فروحي فداء الديمقراطية

حمّلتني في تمثيلك أمانة... فاقبل الوفاء منّي هدّية

وأردف قائلا:

"كثر قالوا إنّ لا أمل في إحقاق الحقّ في بلاد يختال فيها الفساد متغطرسا، وما أكثرهم أولئك القائلين بأنّ التغيير مستحيل! وما وجودي اليوم ها هنا إلّا دليلًا واضحًا وصريحًا على إرادة الشعب في التحرر من قيود الرجعيّة والتبعيّة، ذلك بعد أن انتخبت ممثلًا عنهم ولهم لا عليهم في السلطة التشريعية التي تمثّل سلطان الشعب، فصرت أملًا وحلمًا للأجيال الطامحة التي لا تساوم على عيش طموحاتها وبقاء حريّة ضمائرها.

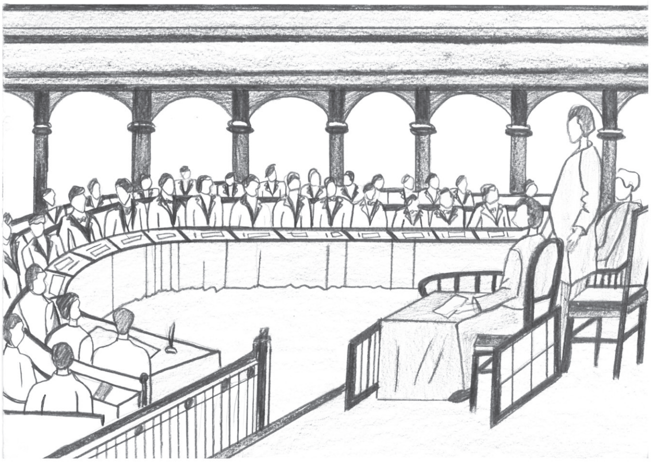

sarkht damir inside.indd 321 24/04/2018 03:18:52

إنني أعد الناس من موقعي هذا، أن أكون وطنيًّا أهلًا للمواطنة، وألا أكون فردًا طائفيًّا متعصبًا حتى ولو كنت أحيا مفتخرا وملتزما بهويتي المجتمعية التي منحني إيّاها خالقي سبحانه. وليعلم الجميع إنني لن أقبل إلّا أن أكون ممثلًا للأمّة جمعاء، لا لمنطقةٍ أو جماعةٍ معينّة. كما سأطبّق الدستور وأقوم بواجبي التشريعي كاملًا، ولن أوافق على قوانين هشّة تضرّ بالدولة أو بمصالحها ومؤسساتها. سأجهد كي أصادق وأعطي الثقة لكلّ ما يصبّ في مصلحة الوطن والمواطنين، رافضا درب الشعارات، ساعيا دائما وأبدا إلى العمل لخلق مساحات جديدة من برامج وخطط عمل تؤدي إلى العدالة الإجتماعية والمساواة.

ولتعلموا، أنّ الشعب قدّ كلّ وملّ فعلا من سماع الوعود، ورؤية فشل السياسيين في تنفيذ العهود. لهذا لن أعد بما لا أقدر على إنجازه، كما أنني أصارح الناس دوما بالحقّيقة. فبرأيي المتواضع يجب النطق بالحقّيقة ولو كانت صعبةً ومرّة، فهذا أفضل من العيش مفقودين في متاهة الرياء والنفاق.

دعونا نتّجه نحو وطن فيه شباب نابض بالحياة،يكون راغبًا في التحرّر، فنسير معًا نحو التجديد والتصحيح، نحو الوطن الحلم، قد نتمكن من حفر ما سنكتبه على سطور المجد الكوني كرسالة حريّة في كتاب ضمير كل إنسان يعي معنى الطموح الحقّ.“

النهاية.

sarkht damir inside.indd 322 24/04/2018 03:18:53

نبذة عن حياة المؤلّف

– ألحان وليد فرحات لبناني، من مواليد نيحا الشوف ١٩٨٦\١٠\٢١. أنهى دراسته المتوسطة في مدرسة راهبات القلبين الأقدسين جزين، والمرحلة الثانوية في ثانوية بلدته نيحا الشوف.

– حائز على إجازتي بكالوريوس من جامعة بيروت العربية بين عامي ٢٠٠٤ و ٢٠٠٩، الأولى بكالوريوس في المالية والعلوم المصرفية، والثانية بكالوريوس في ادارة الأعمال.

– درس العلوم السياسية عامي ٢٠٠٩ و ٢٠١٠ في الجامعة اللبنانية. ويتابع دراسة الإختصاص ذاته في جامعة الجنان، فرع صيدا.

– حائز على إجازة ماجيستير في علوم ادارة الأعمال من جامعة العلوم والتكنولوجيا في بيروت AUL عام ٢٠١١. مقدمًا أطروحة عن تأثير الهيكلية الداخلية للمصارف في مكافحة جريمة تبييض الأموال.

– يتابع دراساته العليا "الدكتوراه" منذ العام ٢٠١٣ في جامعة فينيكس- أريزونا، الولايات المتحدة الأمريكية.

– يُتابع دِراسة الفلسفة في الجامعة اللبنانيّة – الفرع الأول.

– عَمِل مصرفيًا في لبنان وفي بلاد الإغتراب، قبل أن ينتقل للعمل الحرّ في التجارة والمقاولات.

– كاتب وروائيّ، نشر روايتين بعنوان "حكاية طَموح" و"بَراثن وأقدار".

– ناشط سياسيّ واجتماعيّ، و مؤسّس ائتلاف الشباب اللبناني.

– ترشّح للانتخابات النيابيّة في دورتي ٢٠١٣/ ٢٠١٥ المُمدّدتين. كما ترشّح في دورة ٢٠١٨ ممثلًا إئتلاف الشباب اللّبناني مع لائحة القرار الحرّ في دائرة الشوف – عاليه.

Alhan Farhat @Alhan _Farhat Alhan Walid Farhat

sarkht damir inside.indd 323 24/04/2018 03:18:53

sarkht damir inside.indd 324 24/04/2018 03:18:55

الجمهورية اللبنانية

وزارة الإقتصاد والتجارة

المديرية العامة للإقتصاد والتجارة

مصلحة حماية الملكية الفكرية

رقم الصادر : ١١١٨

بيروت في : ٢٠١٨/٠٣/٢٢

شهادة بتسجيل أثر أدبي وفني

رقم : ٦٥٨٩

إن موقع هذه الشهادة، مدير عام الاقتصاد والتجارة، يثبت أنه في هذا اليوم الواقع فيه ٢٠١٨/٠٣/٢٢، الساعة ١٢:٣٠ ، أودع لدى هذه المصلحة السيد ألحان وليد فرحات المقيم في الشويفات، العمروسية – حي الكنيسة – بناية الديك والريشاني – الطابق الأول ثلاث نسخ من اثر أدبي وفني عنوانه: صرخة ضمير وهي عبارة عن عمل روائي أدبي #

وقد أعيدت إلى طالب التسجيل نسخة عن هذا الأثر بعد التوقيع عليها ووضع الرقم المتسلسل ٦٥٨٩ والتاريخ ٢٠١٨/٠٣/٢٢ و ختم المصلحة وفقا لأحكام القانون رقم ٧٥ تاريخ ١٩٩٩/٤/٣.

ل مدير عام الاقتصاد والتجارة

عليا عباس

الجمهورية اللبنانية

وزارة الاقتصاد والتجارة

المديرية العامة للإقتصاد والتجارة

مصلحة حماية الملكية والفكرية

رقم الصادر : ٢٥٤٠

بيروت في : ٢٠١٦/٠٧/١٩

شهادة بتسجيل أثر أدبي وفني

رقم :٦١٤٢

إن موقع هذه الشهادة، مدير عام الاقتصاد والتجارة، يثبت أنه في هذا اليوم الواقع فيه ٢٠١٦/٠٧/١٩، الساعة ١٢:٣١ ، أودع لدى هذه المصلحة السيّد ألحان وليد فرحات المقيم في الشويفات - العمروسية - حي الكنيسة - البناية الثالثة - طابق أول ثلاث نسخ من اثر أدبي وفني عنوانه: "براثن وأقدار" وهو عبارة عن رواية أدبية #

وقد أعيدت إلى طالب التسجيل نسخة عن هذا الأثر بعد التوقيع عليها ووضع الرقم المتسلسل ٦١٤٢ والتاريخ ٢٠١٦/٠٧/١٩ و ختم المصلحة وفقا لاحكام القانون رقم ٧٥ تاريخ ١٩٩٩/٤/٣.

م/ مدير عام الاقتصاد والتجارة

عليا عباس

sarkht damir inside.indd 326 24/04/2018 03:18:58

الجمهورية اللبنانية

وزارة الاقتصاد والتجارة

المديرية العامة للإقتصاد والتجارة

مصلحة حماية الملكية والفكرية

رقم الصادر : 361

بيروت في : 2014/01/28

شهادة بتسجيل أثر أدبي وفني

رقم :5446

إن موقع هذه الشهادة، رئيس مصلحة حماية الملكية الفكرية، يثبت أنه في هذا اليوم الواقع فيه 2014/01/28، الساعة 12:05 ، أودع لدى هذه المصلحة السيد ألحان وليد فرحات المقيم في الشويفات، العمروسية ثلاث نسخ من اثر أدبي وفني عنوانه: حكاية طموح وهو عبارة عن رواية #

وقد أعيدت إلى طالب التسجيل نسخة عن هذا الأثر بعد التوقيع عليها ووضع الرقم المتسلسل 5446 والتاريخ 2014/01/28 و ختم المصلحة وفقا لاحكام القانون رقم 75 تاريخ 1999/4/3.

رئيس مصلحة حماية الملكية الفكرية

سلوى رحال فاعور

sarkht damir inside.indd 328 24/04/2018 03:19:01